
جُرجي زيدان
تاريخ التمدن الإسلامي
(الجزء الخامس)

تاريخ التمدن الإسلامي (الجزء الخامس)

تاريخ التمدن الإسلامي (الجزء الخامس)

تأليف
جُرجي زيدان



تاريخ التمدن الإسلامي (الجزء الخامس)

جُرجي زيدان

رقم إيداع ٢٠١٣/٣٨٦١
تدمك: ١ ٢٤٩ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه
٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ ٢٠٢ + **فاكس:** ٣٥٣٦٥٨٥٣ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: سيلڤيا فوزي.

المحتويات

مقدمة

هذا الجزء الخامس من تاريخ التمدن الإسلامي هو آخر أجزاء الكتاب، فنحمد الله لأننا وفقنا إلى إتمام هذا العمل الشاق، مع ما يعتوره من العقبات ويحتاج إليه من إعمال الفكرة والمراجعة لما توخيناه فيه من التحقيق والتدقيق، ولا سيما بعد أن عمدنا إلى ذكر المراجع في هوامش الصفحات، مع الإشارة إلى الكتاب والجزء والصفحة من كل منها، ولا يخفى ما يقتضيه ذلك من التيقظ والتعب في ضبطه والتوفيق بين أجزائه، ولكنه أعاننا من الجهة الأخرى على الإيجاز في بعض الأماكن، اكتفاء بالإشارة إلى خلاصة الموضوع وإحالة القارئ في استيفائه إلى المصدر الأصلي لئلا يخرجنا إيراده إلى التطويل.

على أن كثرة الموضوعات وتعدد فروعها وتداخلها، قد حملنا أحيانًا على إيراد بعض النصوص في جزء مع ورودها في جزء آخر قبله، وإنما فعلنا ذلك رغبة في استيفاء الأدلة وإحكام البرهان، وبتنسيق المقدمات ونتائجها وتفاديًا من إرجاع القارئ إلى بعض الأجزاء السابقة، وإن كنا لم نعمد إلى هذا التكرار إلا عند الضرورة؛ لأن وجهتنا الأولى في كتابتنا إنما هي بسط العبارة وإيضاح الموضوع، حتى ينجلي للقارئ كأنه مجسم، على أننا كثيرًا ما أحلنا المطالع إلى مراجعة ما سبق ذكره في أماكنه.

والجزء الذي نحن بصدده أكثر سائر الأجزاء طلاوة وأقربها إلى أفهام المطالعين على اختلاف طبقاتهم وتفاوت معارفهم؛ لأنه يبحث في مثل ما ألفوه من العادات والآداب مما تلذ مطالعته وتتوق النفس إلى معرفته، من الأبحاث الاجتماعية والموضوعات العمرانية والأحوال العائلية، مما يريده الناس عادة بقولهم «حضارة» أو «مدنية»، وهو في الحقيقة بعض ظواهرهما على ما تبين لك في الأجزاء السابقة.

فموضوعات هذا الجزء سهلة على المطالع، ولكنها شاقة على المؤلف، لخلو كتب القوم من أمثالها على الأسلوب الذي تطلبناه في هذا الكتاب، ولو بحثت فيما كتبه أسلافنا في

التاريخ والأدب والعلم وغيرها، ما رأيت لأحدهم فصلًا ولا جملة ولا فقرة في نظام الاجتماع مثلًا أو طبقات الناس أو الآداب الاجتماعية أو الحضارة أو الأبهة، إلا ما قد يرد عرضًا في أثناء النوادر أو الحكم أو التراجم أو الوقائع مما استعنا به في الاستدلال على بعض الحقائق المذكورة.

وأبحاث هذا الجزء تنتظم في أربعة أبواب كبرى:

(١) نظام الاجتماع.
(٢) الآداب الاجتماعية.
(٣) حضارة المملكة.
(٤) أبهة الدولة.

فنظام الاجتماع أساسه طبقات الناس، ولذلك قدمنا الكلام بفصول في طبقاتهم قبل الإسلام في جزيرة العرب وما يحدق بها من البلاد العامرة في الشام والعراق ومصر وفارس وإفريقية، ثم طبقاتهم بعد الإسلام وما طرأ عليها من التغيير في أيام الراشدين فالأمويين فالعباسيين، وبسطنا الكلام في نظام الاجتماع في العصر العباسي، فقسمنا الناس إلى طبقتين كبيرتين: الخاصة والعامة، وجعلنا الخاصة أربع طبقات: الخليفة، وأهله، وأهل دولته، وأرباب البيوتات، وأضفنا إلى الخاصة طوائف من الناس يصح إلحاقهم بها سميانهم «أتباع الخاصة» وهم: الجند، والأعوان، والخدم، ويدخل في طائفة الخدم: العبيد، والجواري، والخصيان، وبينا ما كانت عليه كل طبقة أو طائفة في عهد ذلك التمدن.

وجعلنا العامة طبقتين كبيرتين: الأولى المقربون وهم فئة من العامة سمت بهم قرائحهم أو هممهم إلى اللحاق بالخاصة، كأصحاب الفنون الجميلة وأهل الأدب والشعر والغناء وأرباب التجارات الثمينة والصناعات العليا ... وذكر ما كان يكتسبه هؤلاء من الأموال المتدفقة من خزائن الدولة، وأما الطبقة الثانية من العامة فهم معظم الأمة، وينقسمون إلى فئتين: الأولى أهل القرى وهم السواد الأعظم، والثانية عامة أهل المدن وهم أكثر سكانها، ويتعاطون الصناعات اليدوية والتجارات الصغرى، وبينهم طوائف العيارين والشطار والمخنثين وغيرهم، وذكرنا تاريخ كل منها.

وأما الآداب الاجتماعية فصدرناها بتمهيد في تاريخها من زمن الجاهلية، فذكرنا مناقب البدو كالعصبية والأنفة والوفاء والسخاء والنجدة والأريحية والعفة، وكيف تسرب الفساد إلى هذه المناقب تدريجًا بتقدم القوم في معارج الحضارة، وذكرنا الأسباب التي

بعثت على تبديل بعضها في عصر الراشدين فالأمويين إلى العصر العباسي، وبسطنا الكلام في آداب هذا العصر بسطًا وافيًا؛ لأنه هو المراد بهذا الباب، فقسمنا الكلام فيه إلى فصول في العائلة ونظامها وما يتخلل ذلك من حال المرأة العربية، فبينا عفتها وأنفتها في الجاهلية وأوردنا أمثلة ممن اشتهرن فيها بالشجاعة والحزم والرأي، وكيف تبدلت أحوالها في عصر الترف بما أدخله عليها الرجل من الجواري والسراري، حتى ذهبت الغيرة ونشأ سوء الظن فحبسها وضيق عليها، وأفردنا فصلًا لأسلوب الارتزاق في عهد ذلك التمدن بالسخاء المتسلسل على سنة العرب.

وجعلنا كلامنا في المعيشة العائلية فصولًا في الطعام واللباس والمأوى، فأجملنا في تاريخ كل منها في أيام الجاهلية وما أحدثه فيه ذلك التمدن.

ثم أتينا إلى الباب الثالث من هذا الجزء وهو حضارة المملكة، فقسمناه إلى قسمين: أولهما العمارة أو العمران، وثانيهما الثروة والرخاء، والعمارة إما في المدن أو في القصور، فأتينا بأمثلة من عمارة أهم المدن الإسلامية، وأشهر القصور والمباني في دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة وغرناطة وغيرها، أما الثروة فيدور الكلام فيها على أبحاث في ثروة الخلفاء والأمراء وما تقتضيه من التأنق في الطعام والتنعم باللباس والتزين بالأثاث والرياش والمجوهرات ونحوها ... ثم القصف وما يلابسه من التسري وعقد مجالس الغناء والشراب، ثم السخاء وقد نظرنا فيه من أيام الراشدين إلى العباسيين، وكيف تدرج القوم في مقدار الصلة ونوعها، ويتخلل ذلك فصول في الغناء وتاريخه من الوجهة الاجتماعية والأدبية، والمسكر وخلاصة أقوالهم في تحريمه وتحليله وتاريخ انتشاره وانغماس الخاصة فيه، فضلًا عن العامة وما نتج عن ذلك من التهتك والإسراف والفحشاء.

أما أبهة الدولة فجعلنا مدار الكلام فيها على الخلفاء وأحوالهم، من سذاجة الراشدين وتقشفهم إلى بذخ العباسيين وأبهتهم، وقسمنا البحث في هذا العصر إلى فصول عديدة في مجالس الخلفاء ومواكبهم واحتفالاتهم وعلاقاتهم بالدول المعاصرة وملابسهم وألعابهم وملاهيهم، ويتفرع القول في مجالسهم إلى المجالس العامة ومجالس الأدب والغناء والمناظرة وغيرها، فوصفنا المجلس وفرشه ومراتب الجلاس فيه وشروط الاستئذان في الدخول والتحية وآداب المجالسة وعلامة الصرف ونحو ذلك، وقسمنا ملاهيهم إلى فصول في الصيد والسباق والكرة والصولجان ورمي البندق وارتباط السباع وغيرها.

وذيلنا هذا الجزء بجدول أسماء الكتب التي ذكرت في هوامش الأجزاء الخمسة مع اسم المؤلف وسنة نشر الكتاب ومحل طبعه، فضلًا عن فهرس هذا الجزء.

وقد بذلنا الجهد في تحري الحقيقة وتوخينا الإنصاف والإخلاص بما يبلغ إليه الإمكان، فإن أحسنا فذلك قصدنا وأقصى مرادنا، وإن أسأنا فعن غير عمد منا وما العصمة إلا لله وحده.

نظام الاجتماع في المملكة الإسلامية

موضوع هذا الباب النظر في حال الهيئة الاجتماعية في إبان التمدن الإسلامي، وبيان الجماعات التي كانت تتألف منها طبقاتهم وعلاقاتهم بعضها ببعض، ولزيادة الإيضاح نمهد بالكلام عن نظام الاجتماع على عهد الروم والفرس في البلاد التي فتحها المسلمون من تينك المملكتين، وما كان من تأثير الإسلام في ذلك النظام، وكيف تدرج في الارتقاء من أيام الراشدين فالأمويين فالعباسيين، ثم نبسط القول في نظام الاجتماع في العصر العباسي.

طبقات الناس قبل الإسلام

ويقسم الكلام في ذلك إلى وصف طبقات الناس:

(١) في الشام والعراق.
(٢) في مصر.
(٣) في إفريقيا.
(٤) في بلاد فارس.
(٥) في جزيرة العرب.

(١) طبقات الناس في الشام والعراق

نريد بهذين البلدين ما بين دجلة في الشمال الشرقي وآخر حدود الشام في الجنوب الغربي، وسكان هذه البقعة أكثر أمم الأرض اختلاطًا في أجناسهم وأديانهم وآدابهم لكثرة الدول التي توالت عليها من أقدم أزمنة التاريخ، وللعلماء أبحاث طويلة وآراء متضاربة في أحوالهم لا محل لها ولا فائدة منها، وخلاصة ما يستخرج من أبحاثهم أن أقدم من عرف من أهل تلك البلاد بطون من الساميين، وكانت مساكن القبائل السامية تمتد من دجلة عند ما بين النهرين شمالًا شرقيًّا إلى سواحل سوريا حتى العريش فالبحر الأحمر غربًا، وشواطئ اليمن وحضرموت جنوبًا، فخليج فارس وبحر عمان شرقًا، وهي عبارة عن بلاد ما بين النهرين والعراق وسوريا وفلسطين وجزيرة سينا وجزيرة العرب.

والساميون ثلاثة فروع كبرى:

(١) الآراميون، وهم القبائل السامية الشمالية، كانت مواطنهم فيما بين النهرين والعراق وسوريا إلا قسمًا من شواطئها.

(٢) العبرانيون، وهم القبائل السامية الوسطى، وموطنهم في فلسطين وشواطئ سوريا.

(٣) العرب، وهم القبائل السامية الجنوبية، ومقامهم في جزيرة العرب وما يليها من بادية الشام والعراق وجزيرة سينا.

(١-١) الآراميون

فالآراميون كانت لغتهم فرعًا من اللغة السامية يُعرف باللغة الآرامية، وانقسموا بتوالي الأجيال إلى أمم اشتهرت في التاريخ، أهمها أمة السريان فيما بين النهرين والعراق، والكلدان في أعالي سوريا، وانقسمت اللغة بهذا الاعتبار إلى الفرعين السرياني والكلداني.

والعبرانيون يُراد بهم أبناء إبراهيم عليه السلام، وقد استقروا في فلسطين نحو القرن الثالث عشر قبل الميلاد، ويلحق بهم الفينيقيون وكانوا يتكلمون لغة تشبه العبرانية.

وأما العرب فكانوا يتفاهمون بلغة من اللغات السامية هي العربية، ومن فروعها أو أخواتها الحميرية والحبشية، وأقرب القبائل العربية إلى الشام الأنباط، وكان لهم شأن في أثناء تسلط الرومان على الشام سيأتي ذكره.

فما بين النهرين والعراق والشام وفلسطين كانت في أقدم أزمنة التاريخ مأهولة بشعوب سامية تتقارب نسبًا ولغة، أما قبل نزول الساميين فكانت مقامًا لأمم لا يُعرف أصلها، وكان الساميون أقوى منهم فغلبوهم على بلادهم واستقروا فيها، وأخذ أولئك في الانقراض قبل الميلاد بعدة قرون، وهاك ترتيب مساكن الساميين هناك من الشمال إلى الجنوب: السريان، فالكلدان، فالفينيقيون، فالعبرانيون، فالأنباط، وخالطتهم أمم شتى غير سامية، أقامت بين أظهرهم في بقاع مختلفة من بلادهم، غير بقايا الشعوب الأصلية مما يطول بيانه، ولكن الساميين تغلبوا عليهم جميعًا وعاشت أديانهم وآدابهم وعاداتهم.

على أن مركز هذه البلاد الجغرافي جعلها عرضة لمطامع الفاتحين من الأمم القديمة، كالحثيين والآشوريين والفرس، فكانوا يتناوبون فتحها أو اكتساحها وتتقاطر شعوبهم إليها، ولكن الأمر لم يستقم لدولة من هذه الدول في سوريا كما استقام لليونانيين خلفاء

الإسكندر، فإن هذا القائد العظيم فتح هذه البلاد في القرن الرابع قبل الميلاد، وأوغل فيها وغرس في نواحيها بذور الحضارة الإغريقية، وقد اختلطت هذه العناصر الإغريقية بعناصر الحضارات الأصلية في هذه البلاد ونشأ عن ذلك ما يُعرف بالحضارة الشبيهة بالهيلينية Hellenistic، وتوافد إليها اليونان وأقاموا فيها واختلطوا بأهلها ولا سيما بعد ظهور النصرانية وهي في سلطة الرومان، ولكن العنصر اليوناني ما زال متغلبًا عليها، وأكثر تغلبه على سواحل بحر الروم، ويضعف شأنه في الداخل تدريجًا.

ومع ذلك الاختلاط ظلت الشعوب السامية محافظة على آدابها وعاداتها ولغاتها، ولا سيما اليهود فإنهم مع ما أصابهم من الاضطهاد والسبي ظلوا من حيث الآداب والدين على نحو ما كانوا عليه في أيام داود وسليمان، إلا ما أصاب لغتهم من التغيير في أثناء السبي ببابل، فإنها اختلطت بالسريانية والكلدانية وعرفت باللغة الآرامية أو الكلدانية، وبها كتبوا التلمود وانقسموا إلى اليهود والسامريين، أما من بقي من الشعوب السامية ولا سيما السريان فتنصروا وانفردوا بآدابهم وعاداتهم، وأكثرهم كانوا يقيمون في العراق وما بين النهرين وأعالي سوريا إلى فلسطين.

(١-٢) الأنباط

فكانت حدود الشام الغربية على سواحل بحر الروم يغلب عليها العنصر اليوناني، وحدودها الشرقية مما يلي البادية يغلب عليها العنصر العربي، وكان هناك في أوائل القرن الرابع قبل الميلاد أمة عربية عُرفت بالأنباط أو النبط، كان مقامهم وراء فلسطين غربًا جنوبيًّا على أنقاض الأدوميين، في بقعة تمتد من جزيرة سينا إلى حوران، تُعرف بالبلاد العربية الصخرية Arabia petraea، ولا تزال آثار مدينة بطرا باقية إلى الآن وفيها الأبنية المنقوشة والتماثيل المنحوتة ونحوها، حاربهم الروم سنة ٣١٢ق.م بقيادة انتيجونوس وكان الأنباط عشرة آلاف مقاتل، وذكر ديودورس أنهم يجتنبون الزراعة رغبة في الرحلة، ويعيشون على اللحوم والألبان ويحرمون الخمر تحت طائلة القتل، وإنما شرابهم الماء يحلونه بالمن وهو كثير عندهم، وكانوا يتجرون بالمر والأطياب يحملونها من شواطئ البحر الأحمر وبلاد العرب، وبالحمر أو القار يحملونه من البحر الميت إلى مصر ليستخدمه المصريون في التحنيط، وكانت طرق التجارة بين مصر وسائر المشرق لا تسلك إلا على يدهم، وإلا فإنهم يهاجمون القوافل وينهبون التجار، ثم تغلب عليهم البطالسة وقهروهم، فتباعدوا عن حدود مصر ونزلوا حوران، ونبغ منهم في القرن الأول قبل الميلاد

ملك يسميه اليونانيون اريتاس (الحارث) حارب عامل دمشق وغلبه على مدينته واستولى عليها وعلى ملحقاتها تحت رعاية الرومانيين نيفًا وأربعين سنة، ثم صار الأنباط حلفاء الرومان في القرن الأول للميلاد، وامتدت شوكتهم في أثناء ذلك إلى جزيرة العرب مما يلي سواحل البحر الأحمر.

وظلت مدينة بطرا مركزًا تجاريًّا بين الشرق ومصر، حتى اكتشف الناس الطريق من القصير إلى قفط على النيل فأخذت بطرا في التقهقر، وكان الأنباط قد تحضروا فذهبت خشونتهم وعجزوا عن الغزو والحرب وركنوا إلى الزراعة وأووا إلى المنازل وانغمسوا في الترف، فجاءهم تراجان الروماني سنة ١٠٥م فحاربهم وأخضعهم وأذلهم فذهبت عصبيتهم وانحلت قواهم وأخلدوا إلى الدعة، واختلطوا بأهل البلاد الأصليين من السريان أو الآراميين، وانتشروا على حدود سوريا وفلسطين مما يلي البادية بين جزيرة سينا والفرات، ولم تقم لهم قائمة من ذلك الحين.

ولما جاء المسلمون لفتح الشام وجدوا بقايا هذه الأمة هناك يتكلمون اللغة الآرامية أو السريانية، لغة أهل العراق وما بين النهرين، فحسبوا الأنباط والعراقيين أمة واحدة فأطلقوا عليهم جميعًا اسم «الأنباط»، والذي اتفق عليه المحققون أن أنباط بطرا وما يليها عرب، وإنما تكلموا الآرامية على أثر اختلاطهم بأهل الشام والعراق بعد ذهاب دولتهم، ويظن علماء التوراة أن النبطيين ينسبون إلى نباطوط من آباء التوراة.

ولما ضعف الأنباط ظهر مكانهم على حدود الشام والعراق أجيال جديدة من العرب، اتخذهم الروم والفرس حلفاء يردون عنهم غارات إخوانهم أهل البادية، أو ينصرونهم في الحروب التي كانت تنشب بين تينك الدولتين قبيل الإسلام، فأقام حلفاء الروم في جهات حوران وهم الغساسنة، وأقام حلفاء الفرس على شاطئ الفرات في الحيرة وهم المناذرة، فإذا انتشبت حرب بين الروم والفرس تجند الغساسنة للروم والمناذرة للفرس، ودافع كل منهما عن أصحابه، فكانوا مع بداوتهم وسذاجتهم عونًا قويًّا لهاتين الدولتين الضخمتين ينصرون إحداهما على الأخرى، ولنحو هذا السبب أقام العرب على الحدود بين الفرس والروم فيما بين النهرين والعراق، وفيهم بطون من إياد وربيعة ولخم وتنوخ.

فسكان الشام والعراق عند ظهور الإسلام كان معظمهم من بقايا الآراميين الأصليين، وهم السريان في الشمال والشرق، واليهود والسامريون في الجنوب، وبقايا الأنباط في الغرب، يليهم العرب الغساسنة والمناذرة ثم قبائل إياد وربيعة بين النهرين، ويتخلل هذا المجموع شتات من أمم أخرى كالجراجمة في جبل اللكام[١] والجرامقة في الموصل[٢] وأخلاط من مولدي

اليونان والرومان على الشواطئ، ومولدي الفرس والأكراد في الشمال، وكانت جامعة الدين قد غلبت على جامعة النسب أو الجنس أو اللغة، فأصبحت الطوائف تنتسب إلى مذاهبها الدينية، كالنصارى واليهود والسامريين، وينقسم النصارى إلى ملكيين ويعاقبة ونساطرة وموارنة وغيرهم، وكانت الديانة والسياسة مرتبطتين إحداهما بالأخرى، والحزب الديني عبارة عن حزب سياسي يستخدم في تأييد الدولة، فالكنيسة القسطنطينية كانت أم كنائس المشرق، وشعوب هذه الكنائس تنقاد إلى تلك الكنيسة لتأييد سلطة القيصر صاحب العرش فيها، والكلام في تفصيل ذلك يطول.

(١-٣) نظام الاجتماع في الشام والعراق

أما موقف الأهالي من الحكومة فكان على غير المألوف بيننا، لبعد النسبة بين الحاكم والمحكوم في تلك الأيام، ولا سيما في البلاد التي يحكمها الغرباء البعيدون عن أهلها لغة أو دينًا أو جنسًا. فالرومان كانوا يعدون البلاد وأهلها ملكًا لهم يتصرفون فيهم كيف شاءوا، وكان الفلاحون في كثير من البلاد يعدون من توابع العقار، فينتقل العقار من مالك إلى آخر، وفلاحوه معه يسمونهم serfs أي الأقنان (جمع قن)، إلا الذين تسمو بهم هممهم إلى التقرب من رجال الدولة بالصناعة أو الأدب أو التجارة وهم قليلون. فكان الناس طبقتين: طبقة الخاصة وهم الملك وأهله وأعوانه ورجال الدين ومن جرى مجراهم، والعامة أهل البلاد الأصليون وأكثرهم الفلاحون أو الأكرة.

فخاصة أهل الشام في العصر الروماني حكامها وهم البطارقة، والبطريق غير البطريرك. وكان البطارقة عند الرومانيين جماعة من أشراف المملكة الرومانية، نشأوا مع مدينة روما وكان لهم نفوذ عظيم في الدولة الرومانية، وانحط شأنهم بعد انقسامها ولم يبق لهم عمل، فلما امتدت سطوة الروم إلى المشرق رأوا تلك البلاد البعيدة لا يستطيع الحكم فيها وإخضاع أهلها إلا أهل السطوة والهيبة، فعهدوا بذلك إلى البطارقة وولوهم المستعمرات الشرقية وفي جملتها الشام ومصر، وكانت الشام ولاية واحدة تقسم إلى ١١ إقليمًا، على كل إقليم بطريق معه الجند كأنه حاكم مستقل،[٣] وكانت حدود الشام بالنظر إلى الحكومة تنتهي من الشمال الشرقي إلى الفرات، ولا يدخل العراق وما بين النهرين فيها، وإنما جعلناهما في كلامنا عن الأهالي؛ لأنهم وأهل الشام من أصل واحد كما رأيت.

(٢) طبقات الناس في مصر

إن سكان مصر أقل اختلاطًا بغيرهم من سكان الشام والعراق، ومع ذلك فقد توالت الهجرة إلى مصر من أقدم أزمنة التاريخ قبل زمن الفراعنة.

والفراعنة أكثرهم من الفاتحين الغرباء، فكانوا إذا فتحوا مصر واستقام الأمر فيها هاجر إليها أهل عصبيتهم لاستثمار ذلك الفتح، فيأتون على أن تكون إقامتهم وقتية ريثما يجتمع لهم المال، ولكن أكثرهم لا يرجعون ولا تمضي بضعة أجيال حتى يختلطوا بالسكان ويصيروا جزءًا منهم، كما حدث في زمن الرعاة والفرس واليونان والرومان وغيرهم ممن فتحوا مصر قبل الإسلام، والغالب في الفاتحين أنهم لا يزالون يميزون عصبيتهم على عصبية سائر رعاياهم، حتى ينتقل الأمر من أيديهم إلى فاتح آخر فتتناسى عصبيتهم ويندمجون في جملة الوطنيين، ناهيك بمن يأتي مصر للاتجار أو الاستثمار لاشتهارها بالخصب والرخاء.

وكان الفاتحون يترفعون غالبًا عن الاختلاط بسائر أفراد الأمة، فيكون منهم الجند ورجال الدولة والكهنة ونحوهم من أهل السيادة، ويجعلون مقامهم في المدن الكبرى ويبقى الشعب للفلاحة والصناعة والخدمة، فالبطالسة حكموا مصر نحو ٣٠٠ سنة، وتقاطر اليونان في أيامهم بكثرة، وكانوا يقيمون في الإسكندرية أو غيرها من العواصم، وأكثرهم من الجند أو التجار أو رجال الدولة لإدارة الحكومة، وكذلك كان شأن الرومان، فإنهم تولوا وادي النيل ستة قرون، والروماني يجتهد في أن يميز نفسه عن المصري لغة ومذهبًا وخلقًا، وكانوا يقيمون في المعاقل والحصون أو المدن الكبرى كما كان حالهم في الشام.

فلما ظهر الإسلام كان سكان مصر طبقتين:

(١) الرومان أو الروم، وعاصمتهم الإسكندرية ومنهم رجال الدولة والأجناد وبعض رجال الدين.

(٢) الأهالي وهم الأقباط الأصليون، يخالطهم بعض المولدين من اليونان والرومان وغيرهم من النازحين للتجارة أو الخدمة أو غيرهما، من أهل الشام واليمن والعراق والنوبة وإفريقية، وكان بين الحكومة والأهالي فاصل آخر مذهبي، فكان الروم على مذهب الملك وهم الملكيون، والأقباط على مذهب يعقوب البردعي وهم يعاقبه.

(٣) طبقات الناس في إفريقية

يريد العرب بإفريقية البلاد الواقعة في شمال إفريقيا، حيث الآن تونس وطرابلس والجزائر ومراكش، وهي في الأصل مستعمرة سامية لبعض النازحين من فينيقية قبل الميلاد بعدة قرون، بنوا فيها مدينة قرطاجة أو قرطجنة وأنشأوا دولة تعتبر شرقية باعتبار أصلها وإن كانت غربية في موقعها؛ لأن أهلها ساميون ولغتها من أخوات اللغة العربية، وقد حارب القرطجنيون الرومانيين ونازعوهم على السيادة، فقطعوا إليهم البحار وجبال الألب حتى حاصروا روما وكادوا يذهبون بدولتها، ولو فعلوا ذلك لتغير وجه الأرض عما نعرفه، ولكنهم أخفقوا فرجعوا ثم ارتد عليهم الرومان وحاربوهم في بلادهم حتى أفنوهم وخربوا مدينتهم، وتوالى على قرطاجة بعدهم أمم شتى كالرومان والوندال وغيرهم.

أما أهل البلاد الأصليون فقد كان معظمهم قبل القرطجنيين أقوامًا من الجنس البربري يعتصمون بالجبال دأبهم النهب والغزو، ولما ذهب القرطجنيون وخلفهم الرومان وجدوا أهل تلك البلاد طبقتين؛ إحداهما: حضرية تتوطن السواحل فيما هو الآن مراكش والجزائر وتونس يتعاطون التجارة والصناعة، والأخرى: تسكن الجبال والبادية، فسموا الأولى الموريتانيين والثانية النوميديين، وكان النوميديون من القبائل الرحل الأشداء فلم تقو الدولة الرومانية على إذلالهم، بل كانوا كثيرًا ما يهاجمون حاميتها في المدن ويعودون إلى جبالهم، ذلك كان شأنهم مع من فتح إفريقية بعد الرومان، وما زالوا على ذلك حتى جاء المسلمون وفتحوا إفريقية وأهلها طبقتان: الأولى أهل المدن وهم الموريتانيون ومن اختلط بهم من الأمم الفاتحة كالروم والوندال وقد اعتنقوا النصرانية وتحضروا، والثانية النوميديون وهم لا يزالون على بداوتهم وظلوا ممتنعين في جبالهم إلى أواخر القرن الأول للهجرة، وهم الذين يسميهم العرب قبائل البربر على ما هو مدون في كتبهم، ولهم شأن كبير في تاريخ الإسلام.

(٤) طبقات الناس في بلاد فارس

نريد ببلاد فارس ما بين دجلة في الغرب الجنوبي ونهر جيحون في الشرق الشمالي، ويدخل فيها خوزستان وكرمان ومكران وبلاد الجبال وخراسان وأذربيجان وأرمينيا وغيرها، وهي تحوي شعوبًا شتى من أمم مختلفة لا يمكن حصرها وتمييزها بعد أن طال العهد عليها، ولكنها تمتاز على أي حال عما يجاورها من سكان العراق والشام وامتيازًا

كليًّا في الجنس واللغة والدين: أما الجنس فسكان بلاد فارس أكثرهم من الجنس الآري وهو غير الجنس السامي الذي عمر الشام وما وراءها كما تقدم، أما اللغة فالفارسية من اللغات الآرية أخوات لغات أوربا وهي غير اللغات السامية، وأما الدين فالمذهب الذي كان شائعًا في تلك البلاد قبل الإسلام هو الزردشتية أو المجوسية في حين أن ديانة أهل العراق والشام كانت النصرانية واليهودية.

وتوالى على بلاد فارس دول كثيرة حتى فتحها الإسكندر في القرن الرابع قبل الميلاد، فلما مات واقتسم المملكة قواده لم يستطيعوا استبقاء تلك البلاد في حوزتهم، فاقتسمها أمراؤها وهم المعروفون بملوك الطوائف، حتى قام أردشير بن ساسان سنة ٢٢٤م فجمع كلمتها بالسيف وتوالى عليها أهله إلى ظهور الإسلام، وهي الدولة الساسانية.

فلما ظهر الإسلام كان سكان تلك المملكة طبقتين: العامة والخاصة، أما العامة فأهل البلاد الأصليون ومنهم الفلاحون والصناع والخدم وغيرهم من نتاج الاختلاط قرونًا بين القبائل الآرية وبعض القبائل الطورانية من الأتراك والديلم، وكانوا يسمون عند ظهور الإسلام «الطاجية»، ولا يعرف أصل هذه اللفظة تماما،[٤] ولكنهم يريدون بها طبقة العامة، والطاجية ضخام الأجسام أقوياء الأبدان.

وأما الخاصة فالملك وأهله ورجال دولته ورجال الدين والأشراف من بقايا الدول السالفة، فبعد الملك وأهله تأتي طبقة الشهارجة «شهريجان» أو السهارجة،[٥] وهم أشراف السواد وأرباب الدولة كالبطارقة عند الروم، تليهم طبقة الدهاقين — وأحدهم دهقان — وينتسبون إلى الملوك القدماء من الدول السالفة، وهم أصحاب الأرض وفي أيديهم أكثر البقاع التي يستغلونها على رقاب الطاجية، والدهاقين خمس مراتب، وقد يتولون الإمارات ويتعاطون الحكومة كأمراء بخارا (بخارا خدا) فقد كانوا عند ظهور الإسلام من الدهاقين، وكذلك هرات، وقد يكون الدهقان مثل بعض العامة.

وكانت مملكة فارس — عند ظهور الإسلام — في حوزة الدولة الساسانية، تقسم إلى عمالات يتولى كل عمالة أمير يسمونه «مرزبان» وأصل معنى هذه اللفظة قائد الحدود، على أن بعض العمال كانوا يتمتعون بشيء من الاستقلال في أحكامهم، ولا سيما في الإمارات البعيدة، وكان بعضها مستقلًّا استقلالًا تامًّا ويتخذ كل أمير لقبًا خاصًّا به، مثل «رتبيل» لقب أمير سجستان، و«رنجان» لأمير سمندجان، و«جيغويه» لصاحب طخارستان، و«اصبهبذ» لصاحب بلخ، و«باذان» لمرو الروذ، «شهرك» للطالقان، و«أخشيد» لصاحب فرغانة، وقس عليه، على أن بعض الولايات، كمرو وسرخس وطوس، كان يتولاها المرازبة.

وأكبر نفوذًا وسطوة من أشراف المملكة وملوكها رجال الدين وهم كهنة الزردشتية، ويسميهم المسيحيون المجوس، واسمهم عند الفرس الموبذان وأحدهم «موبذ»، وهم كالأساقفة عند النصارى، رئيسهم يسمونه «موبذ موبذان» مثل رئيس الأساقفة، وكان نفوذهم في الدولة يفوق نفوذ الملك،[٦] ومنهم القضاة أو من يقوم مقامهم في الحكومة بين الناس.

وكان في بلاد الفرس جماعات تجمعهم نسبة أو صفة يقيمون في بلد أو يتنقلون في البلاد، كالأساورة والسيابجة والزلط والأحامرة ونحوهم.[٧]

(٥) طبقات الناس عند العرب الجاهلية

قد علمت أن سكان جزيرة العرب من الشعوب السامية إخوان الآراميين والعبرانيين، ولكنهم لم يصبهم ما أصاب إخوانهم في العراق والشام من الاختلاط، لامتناع جزيرتهم على الفاتحين بما يحدق بها من البوادي التي يعسر سلوكها على الجيوش، وقد هم بها الآشوريون واليونان والروم وغيرهم ورجعوا عنها بلا طائل، حتى إذا كان القرن الخامس للميلاد فتح الأحباش قسمها الجنوبي (اليمن) وعجزوا عن الحجاز، فاستنصر اليمنيون الفرس فنصروهم وأخرجوا الأحباش وحلوا محلهم واختلطوا بأهل اليمن وعرفوا بالأبناء الأحرار.

على أن بلاد العرب كانت ملجأ النازحين من الشام أو مصر أو العراق، فرارًا من ظلم أو ضغط أو امتناعًا على الحكومة لسبب من الأسباب، وأكثر الأمم نزوحًا إليها اليهود، لكثرة ما قاسوه من الاضطهاد منذ خروجهم من مصر إلى أن اضطهدهم الروم في عهد طيطس وغيره، وهاجر إليها كثيرون من اليونان والرومان والفرس والهنود والأحباش وغيرهم بلا حرب ولا اضطهاد، ومع ذلك فإن العرب ظلوا مستقلين بأنسابهم وعاداتهم وآدابهم، ويقسمون باعتبار النسب أو الوطن إلى: قحطانية أو يمنية، وعدنانية أو حجازية، وانقسمت لغتهم بهذا الاعتبار إلى حميرية ومضرية، وقد فصلنا طبقات العرب وقبائلهم وحلفاءهم ومواليهم وعبيدهم في الجزء الرابع من هذا الكتاب.

(٦) نظام الاجتماع في عصر الراشدين

بينا في الجزء الرابع ما أحدثه الإسلام من التغيير في العصبية العربية، وما تولد به من الطبقات الجديدة التي لم تكن قبل الإسلام، كالمهاجرين والأنصار وأهل بدر وأهل القادسية، وما اقتضاه النسب الهاشمي أو القرشي من العصبيات الجديدة، ومنهم طبقات الأشراف من العلويين أو العباسيين وأبناء الأنصار والمهاجرين، على ما وضعه عمر في ديوانه من مراتب العطاء باعتبار تلك الطبقات[٨] وما يلحق بذلك من طبقات التابعين وتابعي التابعين والانتساب إلى مشاهير الصحابة كآل الزبير وآل أبي بكر وغير ذلك مما اقتضاه الإسلام والفتوح، فتولد من ذلك بيوتات إسلامية غير البيوتات العربية التي كانت قبل الإسلام.

وعندما سار العرب لفتح الشام والعراق كان أول من لقيهم على حدودها العرب أبناء لغتهم وأهل عصبيتهم، ولما أوغلوا في هذين البلدين استأنس أهلوها باللسان العربي لقربه من لسانهم الآرامي أو السرياني، مع بعد لسان حكامهم يومئذ الرومي أو الفارسي عنهم — فكان ذلك من جملة ما مهد لهم أسباب الفتح — أما طبقات الناس الأصلية في هذين القطرين فقلما أصابها تغير في عصر الراشدين؛ لأن المسلمين لم يكونوا يخالطونهم ولا يدخلون في شيء من أحوالهم الإدارية أو الدينية أو السياسية، وإنما كان همهم اقتضاء الجزية والخراج وحماية من دخل في ذمتهم من أهل الكتاب، فكانوا يقيمون في مضاربهم أو معاقلهم بضاحية البلد المفتوح بما يشبه الاحتلال العسكري — إلا من دخل في حوزتهم من الأرقاء بالأسر أو السبي ومن أعتقوه فصار من الموالي — وهناك طبقة جديدة نشأت بانتشار الإسلام خارج جزيرة العرب، وهم المسلمون من غير العرب، ولهم شروط وأحوال تخالف ما للعرب على ما بيناه في الجزء الرابع.

(٧) نظام الاجتماع في عصر الأمويين

كانت قصبة الإسلام على عهد الراشدين في المدينة بجوار قبر النبي ﷺ، فنقلها الأمويون إلى الشام قرب البلاد المفتوحة، وعملوا على توسيع دائرة مملكتهم، فجردوا الجيوش وفتحوا المدن حتى وطئت حوافر خيولهم ما وراء النهر في أقصى الشرق … وركبوا بحر المجاز (مضيق جبل طارق)، إلى إسبانيا ففتحوها وما وراءها من بلاد الإفرنج إلى منتصف غالة وهي ما يُعرف الآن بفرنسا، ونصبوا أعلامهم على أعظم مدائن الفرس

والترك والروم والإسبان والإفرنج، وهددوا القسطنطينية، وحولوا الاحتلال المؤقت إلى السيادة الدائمة، وأقاموا دولة الإسلام في هذه الأقطار وأيدوها بنقل دواوين الحكومة في الشام ومصر والعراق من اليونانية والقبطية والفارسية إلى العربية، وبعد أن كانت تلك الدواوين يتولاها أهل البلاد غير المسلمين جعلوها في أيدي المسلمين، وضربوا النقود العربية فاستعاضوا بها عن نقود الروم والفرس، ونقشوا عليها الآيات القرآنية بدلًا من الصور والرموز، ونقلوا طراز الدولة من اليونانية أو الفارسية إلى العربية، فآل ذلك كله إلى انتشار العرب في الأرض وسيادة العنصر العربي ونشر اللغة العربية.

وقد استمسك العرب بعصبيتهم خلال العصر الأول الذي تلا الفتح، وفرقوا بين أنفسهم وبين الموالي تفرقة واضحة، وانقسموا هم أنفسهم إلى قحطانيين وعدنانيين، وظل العرب في أيامهم على بداوتهم بما كانوا يتوخونه من المحافظة على خشونة الجاهلية وسذاجتها وآدابها.

فطبقات الناس في العصر الأموي تقدمت خطوة عما كانت عليه في زمن الراشدين، فكان الناس طبقتين كبيرتين: المسلمين وغير المسلمين، والمسلمون طبقتان: العرب وغير العرب وهم الموالي، وظل غير المسلمين، وهم أهل الذمة من القبط والأنباط والروم والفرس وغيرهم، على ما كانوا عليه قبل الإسلام، إلا من دخل منهم في خدمة المسلمين من الأطباء والكتاب والمترجمين؛ فقد نشأت منهم طبقة جديدة من أهل الذمة لم تكن قبل الإسلام، هذا إلى ما حدث في أثناء الفتوح الأموية والحروب الأهلية من انتقال بعض الطوائف والجماعات من بلد إلى آخر، كانتقال السيابجة والزط إلى سواحل الشام في أيام معاوية، ونقل الحجاج لجماعة من زط السند إلى العراق وإسكانه إياهم بأسافل كسكر، وسبى عبيد الله بن زياد خلقًا من أهل بخارا وإنزاله إياهم البصرة، ولما بنى الحجاج مدينة واسط نقل كثيرًا منهم إليها فأقاموا فيها وتناسلوا[٩] فضلًا عمن كانوا يصطحبونهم أحيانًا في حملاتهم البعيدة للفتح أو الغزو، فقد يكون في الحملة جماعات من البرابرة والأنباط والأقباط والجرامقة والجراجمة[١٠] فهؤلاء إذا فتحوا بلدًا أقاموا فيه وتناسلوا واختلطوا بأهله.

وبالجملة فإن الهيئة الاجتماعية في أيام الأمويين كانت في بدء انتقالها من حالها القديمة في عصر الروم والفرس إلى حالها الجديد الذي ستكون عليه في العصر الإسلامي، ولم يتم ذلك الانتقال وتتكيف هذه الهيئة الاجتماعية بشكلها الخاص بالإسلام والتمدن الإسلامي إلا في العصر العباسي، لترفع الأمويين عن الاختلاط بغير العرب ورغبتهم في

البقاء على البداوة، ومع إيغال جنودهم في بلاد فارس وخراسان وتركستان ومصر والمغرب والأندلس، فإنهم قلما اختلطوا بأهلها أو اقتبسوا منهم أو قلدوهم في شيء من عاداتهم وأخلاقهم، إلا ما اتخذوه من الحرس والبريد والسرير على ما يأتي بيانه، أما العباسيون فنظرًا لتغلبهم بالموالي على الأمويين فقد جعلوا مقامهم بين أشياعهم الفرس، فبنوا بغداد على الحدود بين الفرس والسريان، أو بين الآريين والساميين، أو بين المجوس والنصارى، وقربوا الفرس واتخذوا منهم الوزراء والعمال ورجال الدولة، فنظموا لهم الدواوين على نحو ما كانت عليه في الدولة الساسانية.

هوامش

(١) البلاذري: فتوح البلدان، القاهرة ١٩٣٢، ص١٦٣ وما بعدها.

(٢) مختصر تاريخ الدول لابن العبري، ص١٣١.

(٣) راجع تفصيل ذلك في الجزء الأول من هذا الكتاب.

(٤) الهلال، ص٩٩ سنة ١٣.

(٥) المسعودي ١٢٣ ج١.

(٦) Le Christianisme dans l’Empire Perse, 6.

(٧) البلاذري ٣٨١.

(٨) الجزء الأول من هذا الكتاب.

(٩) البلاذري ٣٨٤.

(١٠) البيان والتبيين ١١٤ ج١ وابن الأثير ٣٥ ج٥.

نظام الاجتماع في العصر العباسي

كل ما قدمناه من الكلام على طبقات الناس في العصور السالفة إنما هو تمهيد للكلام عن العصر العباسي، عندما نضج التمدن الإسلامي وتكيفت طبقاته على شكل خاص بهذا التمدن، وكان على أتم أشكاله في مدينة بغداد قصبة العالم الإسلامي، فهي أوضح أنموذج يمثل به نظام الاجتماع في ذلك العصر.

كان الناس في العصر العباسي طبقتين: الخاصة والعامة، تحت كل منهما طبقات وأتباع وفروع سيأتي تفصيلها:

(١) طبقات الخاصة

كان الخاصة خمس طبقات:

(١) الخليفة.
(٢) أهله.
(٣) رجال دولته.
(٤) أرباب البيوتات.
(٥) توابع الخاصة.

فالخليفة صاحب السلطتين الدينية والسياسية[١] فأحر بمن كان هذا منصبه أن يعظم الناس شأنه، ويتقربوا إليه بالطاعة وبذل الخدمة والتزلف بالمدح والإطراء، وسيأتي الكلام على الخلفاء ومجالسهم ومواكبهم والآداب المتبعة في مخاطبتهم وغير ذلك في باب أبهة الدولة من هذا الجزء.

وأهل الخليفة هم بنو هاشم، وكانوا أرفع الناس قدرًا بعده ويسمونهم الأشراف وأبناء الملوك،[٢] فإذا دخلوا على الخليفة جلسوا على الكرسي، وسائر الناس دونهم على الوسائد أو البسط، إلا هو فإنه يجلس على السرير، وكانوا يرتزقون على الغالب برواتب يقتضونها من بيت المال، فضلًا عما ينالونه من النعم والهدايا بحسب ما يتراءى للخليفة في أمرهم، فإذا خاف تطاول أحدهم للملك أثقل يديه بالهدايا وقطع لسانه بالعطاء؛ تلك كانت سياسة العباسيين منذ تأسيس دولتهم، وكان الهاشميون في أوائلها عونًا كبيرًا في تأييدها، يتولون الأعمال ويقودون الجند ويعينون الخليفة بالرأي والسياسة، فلما تأيدت أصبح الخلفاء يخافون مطامع أهلهم، فأخذوا يبذلون لهم الأموال، فمن أعجزهم كف أذاه بالمال عمدوا إلى الفتك به، باشر ذلك أبو جعفر المنصور وسار الخلفاء على خطته، فكانوا يعطون أهلهم الرواتب الباهظة والهدايا الفاخرة ويسهلون عليهم أسباب القصف واللهو ليشتغلوا بذلك عن طلب الملك وتعجز هممهم عن النهوض.

فكان الهاشميون في الغالب من أهل السعة والرخاء، يتمتعون بشرف الملك ولا يحملون أوزاره وأعباء تبعته، فانغمس أكثرهم في الترف وانهمكوا في الشراب والغناء وابتنوا القصور الشماء والحدائق الغناء، واستكثروا من الجواري وجمعوا إليهم المغنين والقيان وقربوا الشعراء والأدباء، وأكثر مقامهم في البصرة، بعيدين عن دور الخلفاء ودسائسها إلا من ولاه الخليفة عملًا أو جندًا، واشتهر بعضهم بالثروة الطائلة كمحمد بن سليمان، فقد بلغت أمواله نيفًا وخمسين مليون درهم غير الضياع والدور، وكانت غلته ١٠٠٠٠٠ درهم في اليوم،[٣] وبلغت ثروة خمنة بنت عبد الرحمن الهاشمي ما لا يسعه الديوان،[٤] ومع ذلك فقد كانوا يؤخذون بغير ذنبهم ويخافون الدسائس على حياتهم.

وأما رجال الدولة فنريد بهم الوزراء والكتاب والقواد ومن جرى مجراهم من أرباب المناصب العالية، وكان أكثرهم في إبان الدولة العباسية من الموالي وخصوصًا الفرس، كالبرامكة وآل سهل وآل وهب وآل الفرات وآل الخصيب وآل طاهر وغيرهم، وكانوا يختلفون نفوذًا وسطوة باختلاف الخلفاء وتفاوت أدوار التمدن، ولكن الوزارة كانت على الإجمال من أوسع أبواب الكسب على ما بيناه في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

أما أهل البيوتات فهم الأشراف من غير الهاشميين، ومرجع شرفهم إلى اتصال حبل قرباهم بالنسب النبوي أو بقريش، وكان الخلفاء يراعون جانبهم ويفرضون لهم الأعطية

والرواتب ويقدمونهم في مجالسهم، على أن هذه الأنساب كانت أكثر نفعًا لأصحابها في عهد بني أمية منها في أيام بني العباس، ولا سيما بعد ضعف العنصر العربي بقتل الأمين، فلما أفضى الأمر إلى المعتصم قطع رواتب الأشراف في جملة ما قطعه من أعطيات سائر العرب، وربما أعيد بعضها بعد ذلك على غير قياس.

(٢) أتباع الخاصة

وللخاصة أتباع أخرجوهم من طبقات العامة بما خصوهم به من أسباب القربى والخدمة وهم أربع طبقات:

(١) الجند
(٢) الأعوان
(٣) الموالي
(٤) الخدم

(٢-١) الجند

فالجند فرق كثيرة تختلف أصلًا ونظامًا على ما فصلناه في الجزء الأول من هذا الكتاب، وقد يتبادر إلى الذهن قياسًا على المألوف عندنا أن الجند رجال الخليفة يأتمرون بأمره، وقد يكون بعضهم كذلك، لكنهم كانوا يختلفون في ذلك العصر عما هم عليه الآن؛ لأن بعض الخاصة من الوزراء والعمال كانوا يجندون رجالًا ينفقون عليهم من أموالهم، وقد يبتاعون غلمانًا ويربونهم للاستعانة بهم على أعدائهم وقت الحاجة ويسمونهم بأسمائهم، وقد يذهب الوزير أو العامل وينتقل جنده إلى غيره ويبقى معروفًا باسمه، فاجتمع في بغداد من الأجناد طوائف كثيرة تنتسب إلى أصحابها، كالساجية والنازوركية والبيلغية والهارونية، وفيهم الأتراك والفرس والبرابرة والأحباش والأكراد. ومن هذا القبيل الفرق العزيزية والأخشيدية والكافورية في مصر مما لا يُحصى، ومن تلك الفرق ما هو من قبيل الضابطة أو نحوها كالشاكرية، أو لمجرد حماية القصور أو غير ذلك.

(٢-٢) الأعوان

أما الأعوان فهم خاصة الرجل ورفاقه، ولا يراد بهم ما يراد بالرفاق أو الأصدقاء اليوم، فقد كان للخلفاء وسائر الخاصة من رجال الدولة والأشراف رفاق يصطحبونهم ويجالسونهم ويعيشون في منازلهم ويكون لهم رواتب يقتضونها، ومنهم طائفة الجلساء الذين يجالسون الخليفة أو الأمير، وهم غير الندماء أو الشعراء، وإنما هم رجال من أهل التعقل والثقة يختصهم الخليفة أو الأمير أو الشريف بمجالسته، فيفاوضهم في شئونه ويركن إليهم في مهامه وتكون لهم الدالة عليه، وربما كان بعضهم من مشايخ أهله أو بعض ذوي قرابته.

(٢-٣) الموالي

وأما الموالي فقد فصلنا الكلام عنهم في الجزء الرابع من هذا الكتاب، وبينا أحوالهم وشروطهم وتاريخهم ولا حاجة إلى المزيد.

(٢-٤) الخدم

أما الخدم فأكثرهم في ذلك العهد الأرقاء السود والبيض من الذكور والإناث، وقد اصطلحوا أن يسموا الأرقاء البيض مماليك والسود عبيدًا، ويقسم الكلام في الخدم إلى ثلاثة أقسام: الأرقاء والخصيان والجواري.

الأرقاء:

في الجزء الرابع من هذا الكتاب فصل عن الرق في الإسلام ومصادره وأحكامه، وفصل آخر عن الخدم وطبقاتهم ونفوذهم في الدولة حتى نبغ منهم القواد والوزراء، فنأتي في هذا المقام بما يختص من هذا الموضوع بنظام الاجتماع.

قلنا فيما تقدم عن طبقات الناس قبل الإسلام: إن العامة من أهل البلاد الأصليين بالشام والعراق ومصر وفارس كانوا يئنون تحت نير الاستعباد، وبعضهم أرقاء فعلًا ولا سيما الأقنان خَدَمة المزارع الذين كانوا ينتقلون مع العقار من مالك إلى مالك، فهؤلاء العامة جاءهم الإسلام رحمة؛ لأنهم تحولوا من الرق إلى الحرية أو إلى العهد، فمن أسلم

صار حرًّا له ما للمسلمين وعليه ما عليهم، ومن ظل على دينه دخل في ذمة المسلمين يدافعون عنه ما أدى الجزية، إلا من حاربهم وأسروه فهو ملك لهم يتصرفون به كيف شاءوا، ولكن أكثر الذين حاربوا المسلمين في صدر الإسلام من حامية البلاد وهم الجنود من الروم أو الفرس لم يكونوا من عامة أهل البلاد المظلومين، فمن دخل من الحامية في أسر المسلمين صار مِلكًا لهم، وكان للمسلمين بعد ذلك أن يطلقوا سراحهم أو يعتقوهم، ولكن الغالب أنهم كانوا يدخلون الإسلام ويصبحون في جملة الموالي، وقد زعم بعض أمراء بني أمية استعباد أهل البلاد المفتوحة عنوة أو اعتبار المسلمين غير العرب من الموالي، ولكن الشريعة الإسلامية لم تجز لهم ذلك، فأنكره العلماء وذوو الرأي فلم يلبث أن رجع عنه من أراده من القواد ورجال الدولة، وقد كانت تصرفات أولئك القواد والأمراء من بين الأسباب التي دفعت إلى الثورة على بني أمية، فلما قامت الدولة العباسية تلاشت هذه النزعات نهائيًّا.

كثرة الأسرى والأرقاء

وتكاثر الأسرى في أثناء الفتوح حتى كانوا يعدون بالألوف ويباعون بالعشرات، اعتبر ما كان من ذلك في الصدر الأول وما تبعه من الفتوح البعيدة في أيام بني أمية، فقد بلغت غنائم موسى بن نصير سنة ٩١هـ في إفريقية ٣٠٠٠٠٠ رأس من السبي، فبعث خمسها إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك ٦٠٠٠٠ رأس، ولم يُسمع بسبي أعظم من هذا،[٥] وذكروا أن موسى هذا لما عاد من الأندلس كان معه ٣٠٠٠٠ بكر من بنات شرفاء القوط وأعيانهم،[٦] وقس على ذلك غنائم قتيبة في بلاد الترك وغيرها.

وبلغت غنائم إبراهيم صاحب غزنة سنة ٤٧٢هـ من قلعة في الهند ١٠٠٠٠٠ نفس،[٧] وفي وقعة ببلاد الروم سنة ٤٤٠هـ بقيادة إبراهيم بن أينال سبى المسلمون ١٠٠٠٠٠ رأس غير الدواب،[٨] وفي جملة غنائم الحرب، فضلًا عن الأسرى من الرجال، جماعات من النساء والغلمان مما يثقل نقله، فكثيرًا ما كانوا يبيعونهم بالعشرات رغبة في السرعة، كما فعلوا في واقعة عمورية سنة ٢٢٣هـ؛ إذ نادوا على الرقيق خمسة خمسة أو عشرة عشرة، وربما بلغ ثمن الإنسان بضعة دراهم، ذكروا أنه بلغ من كثرة غنائم المسلمين في واقعة الأرك بالأندلس أن بيع الأسير فيها بدرهم والسيف بنصف درهم،[٩] والبعير بخمسة دراهم، وقد يقضون عدة أشهر وهم يبيعون الأسرى والغنائم.

تلك أمثلة من أسباب تكاثر الرقيق عند المسلمين، غير ما كان يرسله بعض العمال إلى بلاط الخلفاء من الرقيق وظيفة كل سنة من تركستان[10] وبلاد البربر وغيرهما.

معاملة الأسرى

كانوا في صدر الإسلام إذا ظفروا بغنيمة تولى الأمير قسمتها على القواد، بعد إرسال الخمس إلى بيت المال، ثم اختلف ذلك مع الزمان باختلاف الدول، ففي الدولة الفاطمية بمصر كانوا إذا عاد الجند من حرب ومعهم الأسرى يصل الأسطول بالنيل إلى شاطئ القاهرة فينزلون الأسرى ويطوفون بهم القاهرة، ثم ينزلونهم في مكان كانوا يسمونه المناخ (في جهة الإسماعيلية اليوم) كان مستودعًا للأسرى الذكور، فينظرون فيهم فإذا استرابوا في أحد قتلوه، ومن كان شيخًا لا ينفع ضربوا عنقه وألقوا جثته في بئر كانت في خرائب مصر تعرف ببئر المنامة، ومن بقي يضاف الرجال منهم إلى من في المناخ، ويُمضى بالنساء والأطفال إلى قصر الخليفة، بعد ما يُعطى الوزير منهم طائفة ويُفرق الباقي لخدمة المنازل، ويُدفع الصغار من الأسرى إلى الأستاذين فيربونهم ويعلمونهم الكتابة والرماية ويسمونهم إذ ذاك «الترابي»، وقد يرتقي أولئك الصبيان إلى رتب الأمراء.[11]

ولم يكن استخدام الأسرى على هذه الصورة خاصًّا بالمسلمين، بل هي عادة كانت مرعية في تلك الأعصر، فمن يقع من المسلمين في أيدي أعدائهم كان حظهم الاسترقاق حتى يفتديهم المسلمون، وكان للخلفاء عناية في فكاك الأسرى يبذلون في سبيله المال أو يعطون أسرى عندهم على سبيل المبادلة، ومن هنا نشأ ما يُعرف «بالفداء» في تاريخ العلاقات بين المسلمين والروم؛ لأن الحرب كانت سجالًا بينهما في البر والبحر يأسرون بعضهم بعضًا، فاحتاج الجانبان إلى تنظيم عملية فداء الأسرى، فكانوا يتفقون على اللقاء في موضع معين لتبادل الأسرى، فيتبادلونهم واحدًا بواحد، حتى إذا زاد عند أحدهم عدد من الأسرى افتداه الجانب الآخر بالمال، وكان الأمويون يفتدون أسراهم أحيانًا وعلى قلة، النفر بعد النفر، في سواحل الشام والإسكندرية وملطية وسائر الثغور على الحدود، وأول فداء منظم وقع في أيام بني العباس على يد الرشيد كان سنة ١٨٩هـ، وتوالى الفداء بعده بضع عشرة مرة في أثناء ١٥٠ سنة، وتزايدت عناية المسلمين في فكاك أسراهم حتى أصبح أهل الورع من الأغنياء يقفون المال على فكاكهم.[12]

أما الروم فقلما كانوا يفتدون أسراهم بالمال، ولعل السبب في ذلك أن أولئك الأسرى يكونون في الغالب لفيفًا من رعاياهم أو أجنادًا من الغرباء المأجورين وليس من الروم

أنفسهم، أما المسلمون فهم غالبًا المهاجمون، فإذا ظفروا كانت غنائمهم من ذلك اللفيف، وإذا غلبوا فمن وقع في الأسر منهم كان من المحاربين الذين يستحقون الفداء، والرابطة القومية بين المسلمين يومئذ أشد وثوقًا منها بين الروم ورعاياهم وأجنادهم، على أن المسلمين كثيرًا ما كانوا يأبون المال بدل الأسرى ولا سيما في الدولة الفاطمية، ولا يُعرف عن هذه الدولة أنها فادت أسيرًا من الإفرنج بمال ولا بأسير مثله، فكان ذلك من جملة البواعث على زيادة الأرقاء عند المسلمين.

فهل يستغرب بعد ذلك إذا استكثر المسلمون من العبيد والمماليك فيبلغ عددهم عند بعضهم عشرة أو مائة أو ألفًا؟ حتى الفقراء من عامة الجند كان أحدهم لا يخلو من عبد أو بضعة عبيد يخدمونه،[١٣] وكان للفارس في عصر الأيوبيين عشرة أتباع يخدمونه أو بضع عشرات إلى مائة؛[١٤] فكيف بالأمراء والقواد؟ حتى في صدر الإسلام، فإن الخليفة عثمان كان له ألف مملوك مع علمك بزهد الراشدين قبله،[١٥] فاعتبر كم يكون عددهم في أيام الثروة والترف، فقد كان الأمير في الدولة الأموية إذا سار مشى في ركابه مائة عبد أو بضع مئات أو ألف عبد،[١٦] وبلغ عدد غلمان رافع بن هرثمة والي خراسان سنة ٢٨٩هـ ٤٠٠٠ عبد ولم يملك أحد من ولاة خراسان قبله مثله.

أصناف الأرقاء

وكانوا إذا تكاثر الأرقاء عند أحدهم وأراد استخدامهم في منزله جعل عليهم نقيبًا يتولى النظر في شئونهم يسمونه الأستاذ، على أن الغالب في الغلمان إذا كثروا عند أمير أن يتخذهم جندًا يحرسونه فيعلمهم الحرب والقتال، فقد كان عند الأخشيد صاحب مصر ٨٠٠٠ مملوك يحرسه في كل ليلة ألفان، وأكثر فرق الجند عند الأمراء من غلمانهم، وأصلهم من السبي والأسرى أو يبتاعونهم بالمال لهذه الغاية كما تقدم في كلامنا عن فرق الجند، وربما بلغ ثمن المملوك ألف دينار.

أما الباقون من الأرقاء للخدمة في البيوت فيعلمونهم الصنائع اللازمة لتدبير المنزل، فمنهم الفراش والطباخ والخازن والوكيل أو النقيب والبواب والملاح والركابي وغيرهم،[١٧] ومنهم الوصيف والمملوك، وفيهم التركي والفارسي والبربري والزنجي والصقلبي بين مجلوب ومولد من الذكور والإناث مما لا يُحصى.

وإذا زادوا عما يحتاجون إليه في الخدمة أو الحراسة أو الحماية اتخذوا الغلمان منهم زينة لمجالسهم، وكان يفعل ذلك أهل السعة واليسار ولا سيما الخلفاء، فإنهم تأنقوا في

تزيينهم بأنواع اللباس المزخرفة مما لم يُسبق له مثيل، وأول من أقدم على ذلك الأمين بن الرشيد فإنه بالغ في طلب الغلمان ولا سيما الخصيان، وابتاعهم وغالى فيهم وصيرهم لخلوته وزينهم زينة الجواري، ثم صار الاستكثار من الغلمان سنة عند الخلفاء فكان عند المقتدر بالله ١١٠٠٠ غلام أو مملوك، وفيهم البيض والسود، فالبيض من الفرس والديلم والترك والطبرية وغيرهم، والسود من النوبة والزغاوة يجلبونهم من مصر ومكة وإفريقية، والزنج أصلهم من رجال صاحب الزنج الذي ثار بالبصرة، وهم غتم قح يأكلون لحوم الناس والبهائم الميتة، وقد عوقبوا على ذلك فلم يرجعوا وكانوا منفردين لا يختلطون بالبيض، ولكل طائفة نوبة في خدمة الخليفة بين حراسة وغيرها.[١٨]

الخصيان:

الخصاء عادة شرقية كانت شائعة قديمًا بين الآشوريين والبابليين والمصريين القدماء، وأخذها عنهم اليونانيون ثم انتقلت إلى الرومان فالإفرنج، ويقال: إن أول من استنبطها سميراميس ملكة آشور نحو سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد، وكان المظنون أن الخصاء يذهب بقوة الرجولية، وفي التاريخ جماعة من الخصيان اشتهروا بالشجاعة والسياسة، وتولوا مناصب مهمة في أزمنة مختلفة، منهم نارسس القائد الروماني الشهير في عهد جوستنيان في القرن السادس للميلاد، وهرمياس حاكم أتارنية في ميسيا الشهير الذي قدم الفيلسوف أرسطو ذبيحة عن روحه غير ما ذكره فيه من القصائد، وممن اشتهر من الخصيان في الإسلام كافور الإخشيدي صاحب مصر، واشتهر منهم في الهند وفارس والصين جماعات كبيرة، واستبد الخصيان في أواخر الدولة الرومانية استبدادًا كبيرًا.

وللخصاء أغراض أشهرها استخدام الخصيان في دور النساء غيرةً عليهن، فلما ظهر الإسلام وغلب الحجاب على أهله استخدموا الخصيان في دورهم، وأول من فعل ذلك يزيد بن معاوية، فاتخذ منهم حاجبًا لديوانه اسمه فتح، واقتدى به غيره فشاع استخدامهم عند المسلمين، مع أن الشريعة الإسلامية أميل إلى تحريمه، على ما يُؤخذ من حديث رواه ابن مظعون.

وكانت تجارة الرقيق شائعة في أوربا قبل الإسلام، ومن أسباب رواجها أن قبائل الصقالبة (الروسيين) نزلوا في أوائل أدوارهم شمالي البحر الأسود ونهر الطونة، ثم أخذوا ينزحون غربًا جنوبيًّا نحو أواسط أوربا وهم قبائل عديدة عُرفت بعدئذ بقبائل السلاف (الصقالبة أو السكلاف) والصرب والبوهيم والدلماشيين وغيرهم، فاضطروا وهم نازحون

أن يحاربوا الشعوب الذين في طريقهم كالسكسون والهون وغيرهم، وكان من عادات أهل تلك العصور أن يبيعوا أسراهم بيع الرقيق كما تقدم، فتألف لذلك جماعات كبيرة من التجار يحملون الأسرى عن طريق فرنسا فإسبانيا، وقد يحملونهم إلى إفريقية والشام ومصر، فلما وقعت هذه البلاد في أيدي المسلمين راجت تلك التجارة.

فكان التجار من الإفرنج وغيرهم يبتاعون الأسرى من الصقالبة والجرمان من جهات ألمانيا عند ضفاف الرين والألب وغيرهما إلى ضفاف الدانوب وشواطئ البحر الأسود — ولا يزال أهل جورجيا والجركس إلى اليوم (حوالي ١٩١٠) يبيعون أولادهم بيع السلع — فإذا عاد التجار من تلك الرحلة ساقوا الأرقاء أمامهم سوق الأغنام، وكلهم بيض البشرة على جانب عظيم من الجمال، وفيهم الذكور والإناث حتى يحطوا رحالهم في فرنسا ومنها ينقلونهم إلى إسبانيا (الأندلس) فكان المسلمون يبتاعون الذكور للخدمة أو الحرب والإناث للتسري، وغلب على أولئك الأرقاء انتسابهم إلى قبيلة السلاف، وكانت تلفظ عندهم «سكلاف» فعربها العرب «صقلبي»، وأصبح هذا اللفظ عندهم يدل على الرقيق الأبيض بالإجمال، وكثيرًا ما يرد لفظ الصقالبة في تاريخ الإسلام ويراد به الأرقاء من قبائل السلاف والجرمان، وفعل الإفرنج نحو ذلك أيضًا فاستخدموا هذا اللفظة لنفس هذا المعنى ومنها esclave في الفرنسية وsklave في الجرمانية وslave في الإنجليزية.

ولما شاع الحجاب بين المسلمين إبان سلطانهم واستخدموا الخصيان في دورهم، عمد تجار الرقيق — وأكثرهم من اليهود — إلى خصاء بعض الأرقاء وبيعهم بأثمان غالية، فراجت تلك البضاعة وكثر المشتغلون بها وأنشأوا «لاصطناع» الخصيان معامل عديدة أشهرها «معمل» الخصيان في فردان بمقاطعة اللورين في فرنسا، وكان اليهود يخصون أولئك المساكين وهم أطفال فيموت كثيرون منهم على أثر العملية، فمن بقي حيًّا أرسلوه إلى إسبانيا فيشتريه الكبراء بثمن كبير، وأصبحوا بتوالي الأزمان يتهادون الخصيان كما يتهادون الخيل أو الإناث أو الآنية، فكان ملوك الإفرنج إذا أرادوا التقرب من خليفة المسلمين في الأندلس أو غيرها أهدوه التحف ومن جملتها الخصيان، كما فعل أمير برشلونة وطركونة لما طلبا تجديد الصلح من المستنصر خليفة الأندلس فإنهما أهدياه ٢٠ خصيًّا من الصبيان الصقالبة و٢٠ قنطارًا من صوف السمور ... إلخ، فتكاثر الخصيان في بلاط الخلفاء حتى تألفت منهم فرق الحراسة الخاصة، كما تألفت الفرق من سائر المماليك والعبيد، فإذا احتفل الخليفة ببيعة أو نحوها كان المماليك والخصيان زينة ذلك الاحتفال.

وراجت تجارة الصقالبة في إبان التمدن الإسلامي، وكل ما كان يفد على المملكة الإسلامية منهم يستجلب من الأندلس؛ لأنهم كانوا يخصون بالقرب منها، غير ما يحملونه من الصقالبة من جهات خراسان مما يسبيه الخراسانيون ويحملونه للبيع؛ لأن بلد الصقالبة طويل يسبيه الإفرنج من الغرب والخراسانيون من الشرق.[19]

الجواري:

تكاثرهن

للجواري شأن كبير في تاريخ التمدن الإسلامي لا يقل عن شأن العبيد والموالي، وأصل الجواري ما يسبيه الفاتحون في الحرب من النساء والبنات، فهن ملك الفاتحين ولو كن من بنات الملوك أو الدهاقين، يستخدمونهن أو يستولدونهن أو يتصرفون في بيعهن تصرف المالك بملكه،[20] ولما أفضت أحوال المسلمين إلى الترف والقصف وتدفقت الأموال من خزائن الخلفاء والأمراء جعلوا يتهادونهن كما يتهادون الحلي والجواهر، فمن أحب التقرب من كبير أهدى إليه جارية أتقنت صناعة يعلم أنه راغب فيها؛ فإذا علم مثلًا أنه يحب الجمال أهداه وصيفة جميلة، أو علم منه ميلًا إلى الغناء أهدى إليه قينة رخيمة الصوت، وقد يهديه عدة جوار أتقن عدة صناعات، وربما صارت إحداهن بعد حين أم ذلك المنزل وصاحبة الأمر فيه إذا استولدها سيدها، وإذا كانت في دار خليفة لا يبعد أن تصير من أمهات الخلفاء، كما اتفق لأكثر خلفاء بني العباس، ذكروا أن جارية اسمها دنانير صفراء صادقة الملاحة كانت أروى الناس للغناء القديم، وقد خرجها رجل من أهل المدينة فاشتراها جعفر البرمكي، وسمع الرشيد صوتها فألفها وصار يسير إلى جعفر لسماع غنائها ووهب لها هبات سنية، وعلمت امرأته زبيدة بخبرها فشكته إلى عمومته فلم ينجحوا في إرجاعه، فرأت أن تشغله عنها بالجواري، فأهدت إليه عشر جوار منهن مارية أم المعتصم ومراجل أم المأمون وفاردة أم صالح.[21]

وكثيرًا ما كان العمال والأمراء يتقربون إلى الخلفاء بأمثال هذه الهدايا، فأهدى ابن طاهر إلى الخليفة المتوكل هدية فيها ٢٠٠ وصيفة ووصيف،[22] فلا غرو إذا تكاثرن في قصور الخلفاء والأمراء وأهل الوجاهة، وليس الاستكثار منهن حادثًا في الإسلام، وإنما هو من بقايا التمدن القديم، فقد كان ملوك الفرس والروم يتهادون وبلغت عدتهن عند بعض

الأكاسرة ٦٠٠٠ جارية،[٢٣] وكان لجماعة من بني العباس ألف جارية، وسيأتي بسط ذلك في مكان آخر.

أصناف الجواري

فلما تعود الناس اقتناء الجواري اشتغل النخاسون في استجلابهن من أقصى بلاد الترك والهند والكرج والخطا وأرمينيا والروم والبربر والنوبة والزنج والحبشة صغارًا وكبارًا، يربونهن على ما تقتضيه مواهبهن أو جمالهن، فينبغ منهن الخدم والحواضن والمواشط والولائد والمغنيات والعوادات والعالمات وأمهات الدهاء والسياسة وغير ذلك، وفيهن البيضاء والسمراء والحمراء والبربرية والزنجية، بين مولدة في البصرة أو الكوفة أو بغداد ممن يفصحن العربية، ومجلوبة من أرضها أو سبية أخيذة على حالها تتكلم التركية أو الفارسية أو الرومية أو الهندية أو البربرية، ولا تزال، ولو تعربت، أعجمية اللسان، والمولدة أثمن من الجليبة، وتختلف أثمانهن باختلاف الصناعة أو الجمال وباختلاف الغرض من ابتياعهن للتوليد أو الغناء أو الخدمة، وفي الجليبات النصرانية واليهودية والمجوسية، لكل منهن شأنها في دينها حتى يعيدن أعيادهن بما يستلزمه العيد من الزينة الدينية كالصلبان والأحجبة ونحوها؛ ذكر أحمد بن صدقة أنه دخل على المأمون في يوم الشعانين وبين يديه عشرون وصيفة جلبًا روميات مزنرات قد تزين بالديباج الرومي وعلقن في أعناقهن صلبان الذهب وفي أيديهن الخوص والزيتون.[٢٤]

على أنهم كانوا يختصون كل صنف من الجواري بصفات خاصة، وقد صنفوا كتبًا في هذا الموضوع بينوا فيها الصفات المستحسنة في كل صنف منهن، وخلاصة ذلك قولهم: من أراد النجابة فبنات فارس، ومن أراد الخدمة فبنات قيصر، ومن أراد غير ذلك فبنات بربر، والمولدات والزنجيات للزمر، والحبشيات للحفظ وخزن المال، والنوبة للطبخ، والأرمن للتربية والرضاع، ومن أقوالهم: الوجوه في الترك، والأجسام في الروم، والشعور في الخطا وفارس، والعيون في الحجاز، والخصور في اليمن،[٢٥] وقالوا في وصف المولدات بالبصرة والكوفة: إنهن ذوات الألسن العذبة، والقدود المهفهفة، والأوساط المخصرة، والأصداغ المزرفنة، والعيون المكحلة[٢٦] مما يطول شرحه، وكانت تجارة الجواري على أروجها في بغداد، فكانوا يحملون إليها أجملهن خلقًا وأذكاهن عقلًا، لما يتوقعونه من بيعهن بالأثمان الباهظة.

تعليم الجواري

وكان تعليم الجواري وتربيتهن من أبواب الكسب الواسعة في ذلك العصر، فيذهب أحدهم إلى دار الرقيق يبتاع جارية يتوسم فيها الذكاء، فيثقفها ويرويها الأشعار أو يلقنها الغناء أو يحفظها القرآن أو يعلمها الأدب أو النحو أو العروض أو فنًّا من فنون المنازل ثم يبيعها، وكان يفعل ذلك على الخصوص المغنون المشهورون بدقة الصناعة كإبراهيم الموصلي وابنه إسحاق، فربما ابتاع أحدهم الجارية بمائة دينار فإذا علمها وثقفها باعها بخمسمائة أو ألف دينارًا،[٢٧] وأشهر المغنيات في المدينة والبصرة وبغداد تعلمن على هذه الصورة، وقد يربي بعضهم الجارية ويهديها إلى الخليفة أو الوزير لتكون وسيلة له في نفوذ الكلمة عنده، وقد تنبغ إحداهن في فن من الفنون الجميلة كالغناء أو الشعر أو الأدب فتبتاع بألوف الدنانير،[٢٨] فكيف إذا أتقنت غير فن منها؟ وربما نبغت منهن من تجيد الشعر والغناء أو فنون الأدب والأخبار، فيقصدها أهل الأدب وذوو المروءة للمذاكرة والمساجلة في الشعر وغيره، وقد ينبغن في حفظ القرآن حتى كان منهن عند أم جعفر مائة جارية لكل واحدة ورد عشر القرآن، وكان يسمع في قصرها كدوي النحل من القراءة.[٢٩]

فتعدد الجواري في دور الكبراء وتسابق أهل الترف إلى التفنن في تزيينهن، وأشهر من فعل ذلك أم جعفر المذكورة، فإنها لما رأت ابنها يغالي في تخنيث الغلمان وإلباسهم ملابس النساء اتخذت طائفة من الجواري سمتهن المقدودات، عممت رءوسهن وجعلت لهن الطرر والأصداغ والأقفية وألبستهن الأقبية والقراطق والمناطق كأنهن من الغلمان، واقتدى بها وجيهات قومها فاتخذن الجواري الغلاميات أو المطمومات وألبسنهن الأقبية والمناطق الذهب.[٣٠]

نفوذ الجواري

وطبيعي في ربات الحسن أن يكن نافذات الكلمة؛ لأن الجمال قوة والحب سلاح، ولذلك كان أرباب الدهاء من الخلفاء والأمراء يتباعدون عن الجواري، إذا أُهدي إلى أحدهم جارية لم يلتفت إليها، ولا سيما مؤسسي الدول كمعاوية والمنصور وعبد الرحمن الداخل، فاشتهر المنصور بكرهه للهو، وكان عبد الرحمن إذا أهداه أحد جارية ردها،[٣١] وعكس ذلك خلفاء أواسط الدولة إبان الترف والقصف والرخاء، فإنهم كانوا يتمادون في حب الجواري حتى يتسلطن على عقولهم، كما فعلت حبابة بيزيد بن عبد الملك الأموي حتى كادت تذهب

بعقله وشغلته عن مهام الخلافة، وكما فعلت ذات الخال بالرشيد، فإنها ملكت قياده حتى حلف يومًا أنها لا تسأل شيئًا في ذلك اليوم إلا قضاه لها، فسألته أن يولي حمويه الحرب والخراج بفارس سبع سنين، ففعل وكتب له عهده به وشرط على ولي عهده بعده أن يتمها له إن لم تتم في حياته،[٣٢] وكثيرًا ما كان الخلفاء والأمراء يشتغلون بالجواري عن رعاية الملك ولا سيما المغنيات، ولذلك كان رجال الحيلة يستخدمونهن للجاسوسية أو نيل رتبة أو منصب، وكان المأمون يدس الوصائف هدية ليطلعنه على أخبار من شاء.[٣٣] ويزداد الجواري نفوذًا وسطوة إذا صرن أمهات كما صارت الخيزران وغيرها من أمهات الخلفاء، راجع الجزأين الثاني والرابع من هذا الكتاب، وسيأتي الكلام على المغنيات في باب المغنين.

(٣) طبقات العامة

فرغنا من طبقات الخاصة وأتباعهم، ونحن متكلمون عن العامة وهم أكثر عددًا وأبعد عن الحصر؛ لأنهم لفيف من أمم شتى ولا سيما في بغداد في إبان عمارتها، وقد تقاطر إليها المرتزقون والمحترفون والمستجدون من أطراف المملكة الإسلامية، بين صانع وبائع وفيهم العربي والنبطي والفارسي والخراساني والتركي والسندي والرومي والكرجي والأرمني والكردي والقبطي والبربري والنوبي والزنجي والأندلسي وغيرهم، وفيهم أهل الحرف الراقية، وتجار السلع والأقمشة والجواهر والرقيق وباعة الطعام والشراب، فضلًا عن الأدباء والشعراء والحكماء والمغنين والندماء مما يطول شرحه ويعسر حصره، على أننا تسهيلًا للبحث نقسم العامة على الإجمال إلى طبقتين كبيرتين: الأولى طبقة المقربين من الخاصة، والثانية طبقة الباعة وأهل الحرف والرعاع وغيرهم.

(٣-١) الطبقة الأولى: المقربون من الخاصة

نريد بهذه الطبقة نخبة العامة الذين تسمو بهم نفوسهم أو عقولهم إلى التقرب من الخاصة بما يعجبهم أو يطربهم، فيستظلون بهم ويعيشون من عطاياهم أو رواتبهم أو يرتزقون من بيع سلعهم لهم، وهم أربع فئات: أهل الفنون الجميلة والأدباء والتجار والصناع.

أهل الفنون الجميلة:

المصورون

الفنون الجميلة — ويسميها العرب «الآداب الرفيعة» — ثلاثة: التصوير، والشعر، والموسيقى، فالتصوير لم يكن له شأن كبير في التمدن الإسلامي لورود القول بتحريمه، وإنما كانوا يصورون ما يصورونه في الدولة الأموية والعباسية يقلدون به ما بين أيديهم من تصوير الروم والفرس، أو ما جاء به السلاجقة من صناعة المغول من أواسط تركستان، على أن التصوير أزهر، وارتقى في بلاد فارس بعد اجتماع كلمة الفرس تحت سيطرة المغول على أثر فتح هولاكو بغداد سنة ٦٥٦هـ فإن تلك الصناعة أخذت في الارتقاء من ذلك الحين؛ لأن المغول المشار إليهم أتوا معهم بمهندسين من أهل الصين تولوا هندسة حصار بغداد، ومعهم جماعة من أرباب الفنون الجميلة والرياضيات والصناعات الدقيقة، فاستفاد الفرس منهم وأتقنوا هذه الفنون وفي جملتها التصوير ونشروه في سائر ممالك المسلمين، وزينوا به كتبهم وجدران قصورهم ومنسوجاتهم في بلاد فارس ومصر وتركستان وغيرها،[٣٤] وفي دور الكتب الكبرى في مدائن العالم المتمدن اليوم أمثلة من هذه الصور، ملونة تلوينًا بديعًا أكثرها تمثل حوادث بعض كتب التاريخ أو الأدب أو العلم، وبعضها تمثل رسومًا خيالية كصورة المعراج ونحوها، ففي دار الكتب بالقاهرة صور ملونة هي عبارة عن أشكال زينوا بها كتابي الشاهنامة للفردوسي وعجائب المخلوقات للقزويني وغيرهما، أما في إبان التمدن الإسلامي فلم يكن لأهل هذه الصناعة سوق عند الخاصة، إلا من اشتغل منهم بهندسة الأبنية ولا سيما في الأندلس.

الشعر والموسيقى

أما الشعر والموسيقى فقد راجا وتقرب أصحابهما من الخلفاء وسائر طبقات الخاصة واكتسبوا بهما الأموال الطائلة، وقد بينا في الجزء الثالث من هذا الكتاب ما هو الشعر العربي وما أصله، وما كان شأنه في الجاهلية وما آل إليه بعد الإسلام، من عصر الراشدين فالأمويين فالعباسيين وسائر دول الإسلام، وتحدثنا عن جمع الشعر ورواته وطبقات الشعراء في الإسلام وأشعارهم، والشعر وتأثيره في الدولة والشعر والخلفاء والأمراء وغير ذلك — وسيأتي الكلام عما كان الشعراء يصيبونه من الأموال — بقي علينا النظر في الموسيقى وأهلها وهم المغنون.

المغنون:

الغناء قبل الإسلام

الغناء طبيعي في الأمم؛ لأنه لغة النفوس وترجمان العواطف، وكل أمة غناؤها يناسب طبائعها وعاداتها، فالعرب في الجاهلية كانوا أهل ماشية وأنعام وخيام، فلم ينتبهوا إلى شيء من الفنون الجميلة غير الشعر، وكانوا يلهجون به ويطربون بتلاوته بلا ترنيم ولا غناء، وتلك أول خطوة نحو الموسيقى؛ لأنها بنت الشعر أو أخته.

ثم ظهر فيهم «الحداء» وهو غناء يتغناه الحداة في سوق إبلهم والفتيان في قضاء خلواتهم، ثم عمدوا إلى «الترنيم»، وكان ترنيمهم على نوعين: «الغناء» وهو ترنيم الشعر، و«التغبير» (بالغين والباء) وهو ترنيم القراءة لغير الشعر.

ثم تنوع الغناء عندهم حتى صار على ثلاثة أوجه، أو ثلاثة ألحان أو أصوات وهي: النصب والسناد والهزج، «فالنصب» يريدون به غناء الركبان وغناء الفتيان، وهو الذي يقال في المراثي، ويسمى «الغناء الجنابي» نسبة إلى رجل من قبيلة كلب اسمه جناب بن عبد الله يزعمون أن أصل الحداء منه، وهو يخرج من الطويل في العروض، و«السناد» اللحن الثقيل ذو الترجيع الكثير النغمات والنبرات، وهو على ستة طرق، منها الثقيل الأول وخفيفه والثقيل الثاني وخفيفه، وأما «الهزج» فهو الخفيف الذي يرقص عليه ويمشي بالدف والمزمار فيطرب ويستخف الحلوم، وشاع الغناء قبل الإسلام في أمهات المدن من بلاد العرب وهي المدينة والطائف وخيبر.»[٣٥]

أما آلات الموسيقى عندهم فأشهرها الدف، وهو أشكال منها المستدير والمربع والكبير والصغير، والمزمار على أبسط أنواعه، ولا يظهر أنهم كانوا يعرفون غير الدف والمزمار وما يتفرع عنهما من آلات النفخ والقرع، وأما آلات الأوتار كالعيدان والطنابير والمعازف ونحوها فهي من صناعة الفرس والروم، لم يعرفها العرب إلا بعد الإسلام.

الغناء في الإسلام

فلما جاء الإسلام واستولى العرب على ممالك الدنيا وحازوا سلطان العجم والروم، كانوا في عصر الراشدين لا يزالون على بداوتهم مع غضارة الدين وشدته، مما يدعو إلى ترك أحوال الفراغ وما ليس نافعًا في دين ولا معاش، حتى تركوا ما كان عندهم من أنغام الجاهلية، ولم يكن الملذوذ عندهم إلا ترجيع القراءة والترنم بالشعر، فلما جاءهم الترف

في أيام بني أمية ومن بعدهم وغلب عليهم الرفه بما حصل لهم من غنائم الأمم صاروا إلى نضارة العيش ورقة الحاشية واستحلاء الفراغ، وكان المغنون من الروم والفرس قد دخلوا في سلطان العرب، وحُمل بعضهم إلى الحجاز في جملة الأسرى أو السبايا فأصبحوا من موالي العرب، وقد حملوا معهم العيدان والطنابير والمعازف والمزامير، فغنوا بها فأعجبوا بألحانهم فاشتغل المغنون وأكثرهم من الموالي في تلحين أشعار العرب على الألحان الفارسية أو الرومية، فنبغ في المدينة في أيام بني أمية طائفة من المغنين، والمشهور أن أول من أدخل غناء الفرس إلى العربية سعيد بن مسجح، وهو مكي أسود كان في مكة لما حاصرها الأمويون، وفيها ابن الزبير في أواخر القرن الأول للهجرة، فاستقدم ابن الزبير بعض البنائين من الفرس لترميم الكعبة، فسمعهم سعيد بن مسجح يغنون بالفارسية فالتقط النغم وغناه بالعربية، فأعجب الناس كثيرًا فسافر إلى الشام وفارس فأتقن فن الغناء، وعنه أخذ من جاء بعده من مغني المدينة وغيرها، وشاع الغناء في المملكة الإسلامية وراجت بضاعته باتساع أسباب الحضارة والرخاء، وتكاثر المغنون لما شاهدوه من رغبة الخاصة في الغناء، فنبغ جماعة من مهرة الموسيقيين أتقنوا هذه الصناعة وآلاتها إتقانًا حسنًا، على ما بيناه في الجزء الثالث من هذا الكتاب، وإنما يهمنا الآن النظر في تاريخ انتشار المغنين في الإسلام وما كان من منزلته ومنزلتهم.

الغناء والدين

كان الغناء في صدر الإسلام مكروهًا إن لم نقل محرمًا، واختلف الأئمة في تحريمه وتحليله كله أو بعضه، ويقال بالإجمال إن أهل الحجاز أجازوه وأهل العراق كرهوه، وحجة من أحله أن أصله الشعر الذي استحسنه النبي ﷺ وحض عليه وندب أصحابه إليه، واستنصر به على المشركين، فقال لحسان شاعره: «شن الغارة على بني عبد مناف، فوالله لشعرك أشد عليهم من وقع السهام في غلس الظلام.» وأكثر شعر حسان يُغنى به، وحجة من حرمه أنه يسعر القلوب ويستفز العقول ويستخف الحليم ويبعث على اللهو ويحض على الطرب، وهو باطل من أصله،[٣٦] وحلل آخرون بعض الغناء وحرموا بعضه، ولكن أهل التعقل والتقوى كانوا يكرهونه في كل حال، ولذلك لم يظهر إلا بعد عصر الراشدين، وكان معاوية بن أبي سفيان يعيب على الراغبين في الغناء، ولا سيما أهل الوجاهة والشرف، وله مع عبد الله بن جعفر حكاية تدل على أنه كان يعيب عليه استماع الغناء،[٣٧] وإن سره

اشتغال هذا وسواه من أهل النبي باللهو والطرب عن مقاومته في طلب الخلافة، بل هو كان يبذل لهم الأموال في هذا السبيل.

ولما تولى الخلافة أصحاب اللهو والقصف أخذ الغناء في الانتشار، وأول من أباحه ونشط أهله يزيد بن معاوية، ففي أيام هذا (سنة ٦٠–٦٤هـ) ظهر الغناء في مكة واستعملت الملاهي؛ لأنه كان صاحب لهو وطرب،[٣٨] وتفشى الغناء الجديد في الحجاز ولا سيما المدينة، وما زال محصورًا فيها تقريبًا حتى أفضت الخلافة إلى الوليد بن يزيد بن عبد الملك (سنة ١٢٥–١٢٦هـ) وكان صاحب شراب ولهو مع تهتك وخلاعة، فبعث إلى المدينة في استقدام المغنين إليه في دمشق[٣٩] فأخذ الغناء في الانتشار في بلاد الإسلام من ذلك الحين.

مقاومة الخلفاء للغناء

على أن أهل التعقل من الخلفاء والأمراء كانوا لا ينفكون عن منعه جهد طاقتهم، وكان العقلاء من غير الحكام يحرضون الولاة على منعه حتى في المدينة معدن الغناء في ذلك العصر،[٤٠] وكثيرًا ما كان أمير مكة يخرج المغنين من الحرم خوفًا من افتتان الناس بغنائهم[٤١] وصرفهم عن أمور دينهم، ولم يكن أهل الغيرة على العرض يصبرون على سماعه، ومن أقوالهم: «المغنون رسل الغرام».

ذكروا أن سليمان بن عبد الملك كان يكره الغناء، فسمع مغنيًا في عسكره فطلبه فجاءوه به فقال: «أعد ما غنيت.» فتغنى واحتفل فقال سليمان: «والله لكأنها جرجرة الفحل في الشول، وما أحسب أنثى تسمع هذا إلا صبت إليه.» ثم أمر به فخصي![٤٢]

وسليمان هو الذي أمر بخصي المخنثين في المدينة لمثل هذا السبب، قيل: إنه كان في بادية له يسمر ليلة على ظهر سطح وقد تفرق عنه جلساؤه، فدعا بوضوء فجاءت به جارية فبينما هي تصب عليه لحظ أن ذهنها مشتغل عنه بغناء تسمعه فتجاهل، وفي الصباح ذكر الغناء ولين فيه حتى ظن القوم أنه يشتهيه، فأفاضوا فيه وذكروا من كان يسمعه ومن يغنيه حتى توصل إلى الرجل الذي شغلت الجارية بغنائه في الأمس، فلما تحقق ذلك أقبل على القوم وقال: «هدر الجمل فضبعت الناقة، ونب التيس فشكرت الشاة، وهدل الحمام فزافت الحمامة، وغنى الرجل فطربت المرأة!» ثم أمر به فخُصي. وسأل عن الغناء أين أصله فقيل: «في المدينة بجماعة المخنثين وهم أئمته والحذاق فيه.» فكتب إلى عامله هناك: «أخص من قبلك من المخنثين المغنين.» فخصاهم.[٤٣]

على أن المتهتكين من الخلفاء والأمراء لم ينكروا ما يجر إليه الغناء من أسباب اللهو، قال الوليد بن يزيد الذي ذكرنا أنه أول من استقدم المغنين إليه: «إياكم والغناء، فإنه ينقص الحياء ويزيد في الشهوة ويهدم المروءة ويثور على الخمر ويفعل ما يفعل المسكر، فإن كنتم فاعلين فجنبوه النساء فإن الغناء رقية الزنا، وإني لأقول ذلك فيه على أنه أحب إليَّ من كل لذة وأشهى إليَّ من الماء البارد إلى ذي الغلة، ولكن الحق أحق أن يقال!»[٤٤]

فكيف بالعقلاء وأهل الحزم ومؤسسي الدول أو معيديها مثل معاوية وهشام والمنصور وأبي مسلم، أو أهل التقوى مثل عمر بن عبد العزيز الأموي والمهتدي العباسي؟ فقد تقدم ما عابه معاوية على عبد الله بن جعفر، أما هشام فسمع عن أشعب المضحك في المدينة فأمر كاتبه أن يكتب باستقدامه، فلما ختم الكتاب أطرق هشام طويلًا ثم قال: «هشام يكتب إلى بلد رسول الله ليحمل إليه مضحك؟!» وتمثل:

إذا أنت طاوعت الهوى قادك الهوى ... إلى بعض ما فيه عليك مقال

وأوقف الكتاب،[٤٥] وأما المنصور فقد كان يعير آل الزبير بحبهم الغناء.[٤٦] وسمع ذات يوم ضرب طنبور في داره فكسره على صاحبه، أما عمر بن عبد العزيز فبلغه أن قاضيًا من قضاته استخفه الطرب من الغناء فأمر بعزله.[٤٧] والمهتدي العباسي كان يتشبه بعمر المذكور، فلما تولى الخلافة سنة ٢٥٥هـ كانت الملاهي قد انتشرت في الدولة العباسية فأمر بمنع الغناء[٤٨] وربما امتنعوا عنه إلى أجل ريثما يصفو لهم الزمان، كما فعل المأمون لما عاد من خراسان وقد أهمه تأييد خلافته، فبقي عشرين شهرًا لا يسمع غناء،[٤٩] وكذلك الأمراء العقلاء مثل خالد القسري، فإنه أمر صاحب شرطته بمنع الغناء من العراق.[٥٠]

اشتغال الخلفاء بالغناء

ولكن ذلك لم يكن ليمنع تيار الترف من مجراه الطبيعي، على ما اقتضته الحضارة في ذلك العهد، فالمسلمون لما تحضروا وأخلدوا إلى السكينة والراحة عمدوا إلى أسباب الرخاء وفي جملتها الغناء، والمرجع في ذلك إلى الخلفاء والأمراء؛ لأن الناس على دين ملوكهم ولا سيما في الحكم المطلق، فإذا أحب الخليفة الغناء أحبه رجال دولته، فراجت بضاعته وكثر المغنون والمغنيات حتى اشتغل الخلفاء وأهلهم به وتعلموا الضرب على آلاته، وأول

من دونت صنعته به عمر بن عبد العزيز في أيام إمارته على الحجاز، ثم الوليد بن يزيد وله أصوات اشتهرت عندهم، واشتغل جماعة من خلفاء بني العباس بصناعة الألحان والتلحين، أشهرهم الواثق والمنتصر والمعتز والمعتمد والمعتضد، أما أبناء الخلفاء فأول من دونت صنعته فيه إبراهيم بن المهدي وأبو عيسى بن الرشيد وعبد الله بن موسى الهادي وعبد الله بن محمد الأمين وأبو عيسى بن المتوكل وعبد الله بن المعتز وغيرهم، فقس على ذلك ما كان في زمن بني أمية، ولا سيما في عصر الاضمحلال، حتى كانوا يحملون المغنين وآلاتهم في أسفارهم ولو إلى القتال، فقد وجدوا في معسكرهم لما ظفر به العباسيون بنواحي أصبهان سنة ١٣١هـ ما لا يُحصى من البرابط والطنابير والمزامير.[٥١]

فالغناء المطرب من جملة ما اقتبسه المسلمون من البلاد التي فتحوها، فاشتغلوا بنقل كتب الموسيقى من الفارسية والهندية،[٥٢] وحملهم الترف على سماعه والولوع به، فتقرب به إليهم جماعة من العامة صار لهم مقام رفيع بين الجلساء، وسنعود إلى ذكرهم.

العلماء والفقهاء والأدباء:

هم طائفة من العامة تقربوا إلى الخلفاء بما يلذ لهم من سماع الأخبار والنوادر، أو النظر في علوم تلك الأيام الدينية أو اللسانية أو الأدبية أو التاريخية، ويدخل في ذلك الفقهاء والمحدثون والنحاة والأدباء من أصحاب الأخبار، كالأصمعي وأبي عبيدة والكسائي والفراء وغيرهم، وكان للخلفاء رغبة في مجالستهم وسماع أبحاثهم، فكانوا يقربونهم ويعظمون شأنهم ويجيزونهم ويفرضون لهم الأعطية والرواتب، على ما سنبينه في باب أبهة الدولة، وقد تكلمنا عن الفقهاء ومنزلتهم في أماكن كثيرة من هذا الكتاب.

واقتدى بالخلفاء وزراؤهم وأمراؤهم، كالبرامكة وآل الفرات فإنهم أغدقوا الأموال على هؤلاء فنشطوا العلم وأهله حتى صار العلم صناعة يرتزق بها أصحابها من الناس، ويدخل فيما تقدم المترجمون من غير المسلمين، وفيهم السريان والروم والفرس وغيرهم ممن نقل العلوم القديمة إلى اللغة العربية في العصر العباسي، فإنهم فئة من أهل الذمة قربهم الخلفاء وأكرموهم من أجل علمهم على ما فصلناه في الجزء الثالث من هذا الكتاب.

التجار:

نريد بالتجار باعة السلع الثمينة التي تقتضيها الحضارة، كالمجوهرات والمصوغات والرياش الثمين والثياب الفاخرة والآنية والرقيق، وأكثر ارتزاقهم من الخليفة وأهله وأهل دولته وسائر الخاصة من جلسائه وأعوانه، وكانوا يقيمون في بغداد والبصرة وغيرهما من المدن الإسلامية، وأكثرهم من جالية الفرس والروم وغيرهم من الأمم التي اشتهر أهلها بالعناية بهذه الطرف، كانوا يحملون إلى دار السلام أصناف التجارة للارتزاق مما يتدفق من خزائن الدولة في عصر الثروة.

فكانوا يحملون الياقوت والماس من بلاد الهند، واللؤلؤ من البحرين، والعقيق والعاج من الحبشة، والأدهان والزيوت العطرية من نيسابور، ونسيج الكتان من شيراز، وطراز الوشي والأقمشة المنسوجة من الشعر التي تصنع منها ثياب مثقالية يلبسها الخليفة ورجال الدولة، والكلل المرتفعة والستور المعلمة من القز، هذه كلها من فسا، والبسط والنخناخ والمصليات والزلالي من جهرم، والستور والمقاعد من دشت، وأحسن أصناف البسط والتكك الرفيعة والوسائد والأنماط والمقاعد من أرمينية، وكان لهم صبغ من القرمز يصبغون به الصوف لا مثيل له، والعتابي والوشي وسائر ثياب الحرير من أصفهان، والثياب المنيرة من الري، والأبريسم ومطارف القز، وطبقات الخشب من طبرستان ونيسابور، والسمور الأسود وجلود الخز وجلود الثعالب السود من بلاد الروس، والبز من بلخ، والكاغد والنوشادر والأوبار والسمور والسنجاب والثعالب من وراء النهر وكذلك المسك، ولكن أصله من بلاد التبت، والبسط والمصليات وثياب الصوف من بخارا، والديبقي من تنيس ودمياط، والستور والبسط المصرية من البهنسا، والطيالسة المقورة الرفيعة من كرمان، والحصر والقباطي والقراطيس من مصر، والمناديل الديلمية البيضاء المعلمة من قومس؛ ربما بلغ ثمن المنديل منها ٢٠٠٠ درهم، والمقانع القزيات من جرجان والسوس، والبرود المنيرة والصاع والأمشاط من الري، والأكسية والجوارب من قزوين، والخفآف والسمور من همدان، والزجاج والخزف من البصرة، والحصر من عبادان، والديباج والأنماط من تستر، والجلود المدبوغة من الحبشة بطريق اليمن، والمسك والكافور والعود من الصين.

أما الرقيق فأبيضه كان يحمل مما وراء النهر، وأصله من الصقالبة أو من الخزر الأتراك من بادية تركستان، وأحسنهم يُربى في سمرقند وخوارزم ثم يُحمل إلى بلاد الإسلام، ويحمل الرقيق الأبيض أيضًا من الأندلس وفيه الجواري والغلمان، وأصلهم من

سبي الإفرنج وجليقية أو من الصقالبة كما تقدم، ومن الرقيق الأبيض صنف كان يرد من خراسان غالٍ جدًّا، ربما بيع الغلام منه بخمسة آلاف دينار، أما الرقيق الأسود فكل ما يحمل منه إلى بلاد الإسلام من السودان بطريق مصر أو بلاد المغرب.

وكان لهذه التجارات قوافل أو سفن تنقلها من الشرق والغرب والشمال والجنوب، وتبيعها في أسواق بغداد وغيرها من المدن الإسلامية، وأكثر الناس اشتغالًا بنقلها في البر طائفة من التجار اليهود الراذانية كانوا يتقنون اللغات الرائجة في ذلك العصر، وهي العربية والفارسية والرومية والإفرنجية والأندلسية والصقلبية، ويسافرون بين الأقاليم العامرة يحملون التجارات من إقليم إلى آخر[٥٣] كما كان الفينيقيون في إبان دولتهم.

أما التجارة البحرية فأشهر أصحابها السيرافيون، فقد كانوا يحملون الجواهر والعاج والأبنوس والفلفل والصندل والعود والعنبر والكافور وسائر الأطياب والعقاقير والتوابل من الهند والصين وشواطئ إفريقيا وجزائر الهند واليمن وغيرها إلى البصرة فبغداد.[٥٤]

فكان التجار يفدون على دار السلام بهذه التجارات فيبيعونها بالأثمان الفاحشة، ويدخل في هذه الطبقة من الناس الصيارفة وأكثرهم من اليهود، وكانوا يقرضون رجال الدولة المال بالربا الفاحش، اشتهر منهم في بغداد صيارف كانت مكاسبهم موقوفة على الدولة ورجالها كآل فنخاس وآل عمران وغيرهم.

تجار المسلمين

فلما نضج التمدن الإسلامي واشتغل المسلمون أنفسهم بالتجارة لم يقصروا في شيء من شروطها، وأتقنوها علمًا وعملًا حتى ألفوا الكتب فيها وفي الاقتصاد السياسي، وبين يدينا نسخة من كتاب «الإشارة إلى محاسن التجارة» للشيخ أبي الفضل جعفر بن علي الدمشقي من أهل القرن الخامس للهجرة، فيه فوائد اقتصادية لم يسبقه أحد إليها وأبحاث في معنى النقود والسلع والمال الصامت والأعراض وتحقيق أثمان الأشياء، ما لا تقل قيمته عمَّا بلغ إليه علماء الاقتصاد في هذا العصر؛ يدل ذلك على ما بلغ إليه المسلمون من الرقي في علم التجارة، ناهيك بأهل الرحلة منهم إلى أطراف المعمورة في ذلك العصر، فقد طافوا العالم برًّا وبحرًا من القرن الرابع للهجرة، ودونوا رحلاتهم تسهيلًا لأسباب التجارة، واكتشفوا طرقًا تجارية في البحر المحيط والبحر الهندي والأحمر، وفي أواسط إفريقيا وآسيا لم يسبقهم إليها أحد.

أما الأسفار التجارية فقد كانوا فيها سلاطين البحار، فمخرت سفنهم البحر الأبيض على كل شواطئه، والبحر الأحمر إلى آخره، والبحر المحيط إلى سومطرا فزنجبار إلى بلاد الكفرة، وشرقًا إلى كلكتة وجزائر الهند والصين، وجنوبًا إلى مدغشقر وسائر شواطئ إفريقيا الشرقية، واجتازوا بحر قزوين إلى بلاد الخزر والروس، أما برًّا فاخترقوا بلاد الهند وتركستان والتبت حتى نزلوا بلاد الصين، وأوغلوا في إفريقيا إلى خط الاستواء، فقربوا الأبعاد بين تلك الأصقاع المتباعدة.

فكان التجار المسلمون حوالي القرن الرابع للهجرة يجوبون الأقطار برًّا وبحرًا، ينقلون التجارة من بلد إلى بلد، بين شواطئ فارس وسواحل إفريقيا والحبشة واليمن وسواحل الهند والصين وسائر المشرق، ويقطعون صحارى خراسان وتركستان وأرمينية وأفغانستان والهند والشام ومصر والسودان وإفريقية والأندلس في نقل أصناف التجارة، كأنهم هم وحدهم تجار الأرض، ومركز تجارة الشرق البصرة بحرًا وبغداد برًّا، واشتهر من تجار المسلمين ممن كانوا يخترقون البحار في القرن الرابع للهجرة السيرافيون الذين تقدم ذكرهم، والعمانيون وكانت سفنهم التجارية تجوب بحار الصين والهند والزنج واليمن والقلزم، وقد عرفهم المسعودي وذكرهم في تاريخه.[٥٥]

ثروة التجار

وقد استغرقنا في الكلام على التجارة، وجملة القول أن التجارة العليا كانت من أبواب الرزق الواسعة في ذلك العصر لأصحاب المواهب التجارية ولمن يخدمهم التوفيق ويتقربون من البلاط أو بعض أهله، فظهر في عهد ذلك التمدن بيوتات تجارية جمعت الأموال حتى تجازت ثروتها الملايين من الدنانير، وفيهم جماعة من عامة الناس يوصفون بالغفلة، فخدمهم حظهم حتى ارتقوا إلى طبقة الخاصة وجمعوا الأموال الطائلة، كآل الجصاص تجار الجواهر وقد اشتهروا في العصر العباسي مثل شهرة آل روتشيلد في القرن الماضي وروكفلر الأميركي في هذا القرن، وأول من أثرى منهم الحسن بن عبد الله، وقد قص هو نفسه توصله إلى الثروة فقال: «كان بدء يساري أني كنت في دهليز أبي الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون بمصر، وكنت وكيله في ابتياع الجوهر وغيره مما يحتاجون إليه، وما كنت أفارق الدهليز لاختصاصي به، فخرجت إلى قهرمانة لهم في بعض الأيام ومعها عقد جوهر فيه مائة حبة، لم أر قبله ولا بعده أفخر ولا أحسن منه، كل حبة منه تساوي مائة ألف دينار، وقالت: يحتاج أن تخرط هذا حتى تصغر فتجعل في آذان اللعب

وفي قلائدها، فكدت أطير وأخذتها وقلت: السمع والطاعة، وخرجت في الحال مسرورًا وجمعت التجار، ولم أزل أشتري كل ما قدرت عليه إلى أن جمعت مائة حبة أشكالًا من النوع الذي طلبته وأرادته، وجئت عشيًّا وقلت: إن خرط هذا يحتاج إلى انتظار وزمان، وقد خرطت اليوم ما قدرنا عليه وهو هذا، ودفعت إليها المجتمع وقلت: الباقي يخرط في أيام، فقنعت بذلك وأعجبها الحب، فخرجت وما زلت أيامًا في طلب الباقي حتى اجتمع، فحملته إليها، وقامت على المائة حبة بدون المائة ألف درهم، وأخذت منهم جوهرًا بمائتي ألف ألف دينار، ثم لزمت دهليزهم وأخذت لي غرفة كانت فيه فجعلتها مسكني، وكان يلحقني من هذا أكثر مما يُحصى، حتى كثرت النعمة وانتهيت إلى ما استفاض خبره.»[٥٦]

وكان لابن الجصاص بيت كبير في بغداد لبيع المجوهرات، فلما كانت النكبات والمصادرات على عهد المقتدر بالله العباسي في أوائل القرن الرابع للهجرة، كان ابن الجصاص في جملة الذين صودروا، وسبب ذلك أن عبد الله بن المعتز لما بويع بالخلافة ثم انحل أمره وتفرق رجاله وطلبه المقتدر اختفى عند ابن الجصاص المذكور، فوشى به خادم فصادره المقتدر بالله على ١٦٠٠٠٠٠٠ دينار، وبقي له بعد مصادرته شيء كثير من الدور والقماش والأموال والضياع وغيرها، ويقال مع ذلك إنه كان أحمق أبله، فاعتبر مقدار ما كان يصل إليه التجار أهل النباهة والدهاء.

وقس على ذلك ثروة تجار الفرش والأثاث، ولا سيما في البصرة، فقد اشتهر فيها جماعة من أهل اليسار وأكثر غناهم من تجارة البحر، فقد كانت سفن بعضهم تعد بالمئات وتحمل بها التجارة إلى أنحاء العالم؛ ذكروا واحدًا منهم اسمه الشريف عمر كان دخله ٢٥٠٠٠٠٠ درهم في السنة،[٥٧] وبلغت ثروة صاحب مراكب في البصرة ٢٠٠٠٠٠٠٠ دينار.[٥٨] ومنهم رجل اسمه أحمد بن عمار كان طحانًا بالبصرة، فأصعد إلى بغداد في أيام المعتصم فاتسعت حاله حتى صار يخرج من الصدقة كل يوم مائة دينار، فإذا اعتبرتها عشر ماله كان دخله ألف دينار في اليوم، واستوزره المعتصم لأمانته ولكنه كان جاهلًا.[٥٩]

الصناع:

أما الصناعة فقد أخذوا منها بنصيب كبير؛ لأنهم كما برعوا بالاتجار في السلع برعوا أيضًا في صناعتها، وارتقت الصناعة عندهم بتوالي الأجيال، حتى فاقوا في بعضها البلاد الأخرى وامتازوا بصناعات خاصة بهم، فهم الذين نشروا السكر في العالم، نقلوه من

مواطنه في الهند إلى بلاد فارس وأنشأوا له المعامل واستخرجوا منه أصنافًا لم يكن لها مثيل،[٦٠] وهم أتقنوا صناعة الورق ونشروها في العالم، وعنهم أخذها أهل أوربا بطريق الأندلس،[٦١] وقد امتازت بعض مدن الأندلس بصناعات كانت تفاخر بها صناعات المشرق، فكانوا يصنعون في مرسية وشيًا مذهبًا في غاية الإتقان، وفيها أيضًا معمل للبسط لم يكن له نظير وآخر للأسرة المرصعة، وكان في مالقة معامل للزجاج الغريب وفخار مزيج مذهب ونوع من الفسيفساء المفضضة على شكل خاص، ولهم اختراع في صناعة الزجاج يؤثرونه لهم، فذكروا أن أول من استنبط صناعة الزجاج من الحجارة عباس بن فرناس حكيم الأندلس،[٦٢] واخترعوا البارود للبنادق على ما بيناه في الجزء الأول من هذا الكتاب.

ولهم في الميكانيكيات صناعات حسنة كالساعة التي اشتهرت في جامع دمشق وذكرها ابن جبير في رحلته في القرن السادس للهجرة، وهاك ما قاله في وصفها على ما شاهده بعينه:

> وعن يمين الخارج من باب جيرون جدار البلاط الذي أمامه غرفة لها هيئة طاق كبير مستدير فيه طيقان صفر (أي: نحاس) وقد فتحت أبوابًا صغارًا على عدد ساعات النهار ودبرت تدبيرًا هندسيًّا، فعند انقضاء ساعة من النهار تسقط صنجتان من صفر من فمي بازين مصورين من صفر قائمين على طاستين من صفر تحت كل واحد منهما، أحدهما تحت أول باب من تلك الأبواب والثاني تحت آخرها، والطاستان مثقوبتان، فعند وقوع البندقتين فيهما تعودان داخل الجدار إلى الغرفة، وتبصر البازيين يمدان أعناقهما بالبندقتين إلى الطاستين ويقذفانهما بسرعة بتدبير عجيب تتخيله الأوهام سحرًا، وعند وقوع البندقتين في الطاستين يسمع لهما دوي، وينغلق الباب الذي هو لتلك الساعة للحين بلوح من الصفر، لا يزال كذلك عند كل انقضاء ساعة من النهار، حتى تنغلق الأبواب كلها وتنقضي الساعات ثم تعود إلى حالها الأول، ولها بالليل تدبير آخر، وذلك أن في القوس المنعطفة على الطيقان المذكورة اثنتي عشرة دائرة من النحاس مخرمة تعترض في كل دائرة زجاجة من داخل الجدار في الغرفة، يدير ذلك كله منها خلف الطيقان المذكورة، وخلف الزجاجة مصباح يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة، فإذا انقضت عم الزجاجة ضوء المصباح وفاض على الدائرة أمامها شعاع فلاحت للأبصار دائرة محمرة، ثم انتقل ذلك إلى الأخرى حتى ينقضي الليل وتحمر الدوائر كلها، وقد وكل بها في الغرفة

متفقد لحالها درب بشأنها يعيد فتح الأبواب وصرف الصنج إلى مواضعها. ا.هـ.[٦٣]

وقس على ذلك كثيرًا من الآلات المائية وغير المائية المركبة من البكر والأكر والأنابيب والأمخال وغيرها للرفع والجر والنقل، ولهم فيها مؤلفات طوى الزمان بعضها وأكثرها مأخوذ في أصله عن اليونانية، ككتاب «الحيل الروحانية ومخانيقا الماء» لفيلون البيزنطي، وكتاب «رفع الأشياء الثقيلة» لهيرون الإسكندري نقله إلى العربية قسطا بن لوقا البعلبكي، وغيرها مما نقله الإفرنج إلى اللاتينية في نهضتهم الأخيرة، وفقدت ترجمته العربية كما فقد أصله اليوناني قبله، وفي هذه الكتب كثير من الرسوم الموضحة لحركة تلك الآلات.[٦٤]

واشتغل المسلمون في هذه الفنون وألفوا فيها الكتب من عند أنفسهم، وقد وقفنا على مؤلف خطي في الآلات الروحانية أطلعنا عليه صديقنا الشيخ شبلي النعماني العالم الهندي الشهير، وهو تأليف «رئيس الأعمال بديع الزمان أبو العز بن إسماعيل بن الرزاز الجزري» في أسباب الحيل والحركات الروحانية والآلات المتخذة للساعات المستوية والزمانية ونقل الأجسام بالأجسام من المقدمات الطبيعية — ألفه لأبي الفتح محمود بن محمد بن قزل أرسلان من آل ارتق في أواخر القرن السادس للهجرة، فيه رسوم ملونة تمثل الآلات الضاغطة والرافعة والناقلة والمتحركة حركات خفية، وبينها رسم يشبه ما وصفه ابن جبير عن ساعة دمشق — فيدل هذا وغيره على ما بلغ إليه المسلمون من إتقان فن الميكانيكيات مما يحتاج في وصفه إلى كتاب بأسره.

(٣-٢) الطبقة الثانية من العامة

نريد بهذه الطبقة سائر من بقي من الأمة وهم السواد الأعظم، وفيهم الزارع والصانع والعيار والشاطر واللص والمخنث والصعلوك وغيرهم مما لا يُحصى، ولسهولة الإحاطة بهم نقسمهم إلى قسمين: أهل القرى وهم المزارعون، وأهل المدن وهم الصناع والباعة والرعاع.

المزارعون أهل القرى:

فالمزارعون أو الأكرة يتألف منهم معظم سكان المملكة وهم أصل ثروتها، وأكثرهم من أهل الذمة يقيمون في القرى، إلا من أسلم منهم فينزل في المدن، وكانوا يتكلمون

لغات البلاد الأصلية: السريانية والآرامية واليونانية في العراق والشام، والقبطية بمصر، والفارسية في بلاد فارس، والتركية في تركستان بما وراء النهر، وأخذ العنصر العربي يتغلب على عناصرهم، واللغة العربية تتغلب على ألسنتهم، والإسلام يتغلب على أديانهم، حتى ساد الإسلام عليهم جميعًا، وعمت العربية البلاد الواقعة غربي دجلة وهي العراق والشام ومصر وإفريقية والسودان، وصارت تعد بلادًا عربية وأكثر أهلها مسلمون، وانقرضت اللغات التي كانت منتشرة فيها إلا بقايا قليلة من السريانية في بعض القرى المتباعدة من الشام والعراق، أما شرقي دجلة بفارس وتركستان والهند فقد ساد الإسلام أيضًا، وانتشرت اللغة العربية بين أهل العلم، ولكن ألسنة أهل البلاد ظلت حية يتفاهمون بها إلى الآن.

العامة سكان المدن:

هم نفر ممن يؤمون المدن من أهل المطامع وطلاب المكاسب، بالتجارة أو الجندية أو الأدب أو الشعر، وتقعد بهم نفوسهم عن اللحاق بأهل الهمم وأصحاب القرائح فيضطرون إلى احتراف ما يعيشون به مما لا يحتاج لهمة أو رأي، ولو أردنا الرجوع إلى أصول عامة بغداد مثلًا لرأيناهم أخلاطًا من مولدي العرب والفرس والترك والديلم والروم والنبط والأرمن والجركس والأكراد والكرج والبربر وغيرهم، ولكنهم يعدون عربًا لتغلب اللغة العربية على ألسنتهم.

وعامة المدن طبقتان: الطبقة الأولى المرتزقون بالصناعة والتجارة، وهم طائفتان:

(١) الصناع أصحاب الصناعات اليدوية كالحدادين والحياكين والخياطين والحلاقين والنجارين والصيادين والخبازين والطحانين ومن جرى مجراهم.

(٢) الباعة الذين يبيعون البقل واللحم وغيرهما من أصناف المأكولات على أنواعها وبعض المنسوجات والسلع الصغيرة، وهم طوائف كثيرة كالزياتين والبقالين والجزارين وباعة الأقمشة والطحين والخضر ونحوها.

والطبقة الثانية رعاع يرتزقون من النهب واللصوصية، وهم أصناف كثيرة نشأت في بلاد الإسلام على أثر الفتن والانشقاق بين أهل الدولة لا يستطيع أهل هذا الجيل تصور أمثالهم لبعد ذلك عن مألوفهم، إلا الذين أدركوا متشردي بيروت المعروفين بالزعران، وهم طائفة من أهل البطالة كانوا يحترفون السرقة والتحرش بأبناء السبيل، والزعران

مثال صغير لرعاع ذلك العصر، فقد كان في بغداد وغيرها من مدن الإسلام طوائف كثيرة تُعرف بالعيارين والشطار والصعاليك والزواقيل ونحوهم، كثيرًا ما استفحل أمر بعضهم حتى تعجز الحكومة عنهم وقد تستنجدهم في بعض حروبها.

والسبب في ظهورهم اضطراب الدولة العباسية بعد عصرها الأول، بمن دخل فيها من المفسدين منذ حجر على الخلفاء واستولى الأجناد على مصالح الدولة وجعلوا همهم جمع المال لأنفسهم والتنازع على السلطة كما بيناه في الأجزاء الماضية، ولا سيما الجزء الرابع، ولا يخفى ما تجر إليه الفتن من وقوف الأعمال وغلاء الأسعار، غير ما كان يرتكبه الحكام أنفسهم من خزن الأقوات، فتقل أرزاق العامة فيعمدون إلى التعدي ويؤلفون عصابات لمناوأة أصحاب الأموال من التجار وغيرهم في المدن، ولا سيما بغداد أم المدائن الإسلامية في ذلك العهد، فكان الرعاع يتكاثرون ويزدادون تعديًا، والحكام في شغل عنهم والخسارة معظمها على الأهالي، وتوالى ذلك أعوامًا حتى خربت مدينة السلام وأم حضارة الإسلام، ولا يمكن الإلمام بكل طوائف الرعاع فنذكر أشهرها:

العيارون

ظهور العيارين ببغداد في أواخر القرن الثاني للهجرة، وكان لهم في الفتنة بين الأمين والمأمون شأن كبير؛ لأن الأمين لما حوصر في تلك المدينة وعجز جنده عن الدفاع استنجد العيارين، وكانوا يقاتلون عراة في أوساطهم المآزر وقد اتخذوا لرءوسهم دواخل من الخوص سموها الخود ودرقا من الخوص والبواري قد قرنت وحشيت بالحصى والرمل، ونظموهم نظام الجند على كل عشرة عريف، وعلى كل عشرة عرفاء نقيب، وعلى كل عشرة نقباء قائد، وعلى كل عشرة قواد أمير، ولكل ذي مرتبة من المركوب على مقدار ما تحت يده، ومعهم أناس عراة قد جعل في أعناقهم الجلاجل والصدف والأحمر والأصفر ومقاود ولجما من مكانس ومذاب، وبلغ عددهم يومئذ خمسين ألف عيار[٦٥] وساروا للحرب يضربون الأعداء بالمقلاع والحصى، وكانوا أهل مهارة في ذلك فأبلوا بلاء حسنًا، لكنهم لم يثبتوا أمام المجانيق والجنود المنظمة، فعادت العائدة عليهم وقُتل منهم خلق كثير، وفيهم يقول الشاعر:

خرجت هذه الحروب رجالًا   لا لقحطان ولا لنزار

معشر في جواشن الحصر يعدو ن إلى الحرب كالليوث الضواري
ليس يدرون ما الفرار إذا الأبـ ـطال عاروا في القنا للفرار
واحد منهم يشد على الفيـ ـن عريان ما له من إزار
ويقول الفتى إذا طعن الطعـ ـنة خذها من الفتى العيار

وحدث نحو ذلك من العيارين في حرب المستعين والمعتز سنة ٢٥١هـ إذ حُصر المستعين بالله ببغداد نحو حصار الأمين فيها، فاستعان بالعيارين وفرض لهم الأموال وجعل عليهم عريفًا اسمه ينبونه وعمل لهم تراسًا من البواري المقيرة وأعطاهم المخالي ليجعلوا فيها الأحجار، على أنهم كانوا كلما حدثت فتنة أهلية اغتنموا اشتغال الدولة بها وهموا بالمنازل والحوانيت وأخذوا الأموال، وكثيرًا ما كانت تحدث أمثال هذه الفتن في بغداد من القرن الثالث للهجرة وما بعده.[٦٦]

وكانوا يزدادون قوة كلما ازدادت الدولة ضعفًا، وتكاثرت تعدياتهم على بغداد كلما تكاثرت الفتن فيها، إما بين الحكام في التنازع على السلطة أو الأموال، وإما بين العامة تعصبًا لبعض المذاهب ولا سيما بين السنة والشيعة أو الحنفية، فلم ينقض النصف الأول من القرن الخامس للهجرة حتى تسلط العيارون على بغداد، وجبوا الأسواق وأخذوا ما كان يأخذه رجال الدولة وانتظموا انتظام الشرطة أو الجند، واشتهر من رؤسائهم في ذلك العصر رجل اسمه الطقطقي وآخر اسمه الزيبق[٦٧] بطل القصة المشهورة.

وظهر العيارون في سائر المدن الإسلامية وعظم شأنهم وكثيرًا ما كان الوزراء وغيرهم من أرباب الحل والعقد يقاسمونهم ويسكتون عنهم.[٦٨]

الشطار

هم طائفة أخرى من الرعاع كانوا يمتازون بملابس خاصة بهم ولهم مئزر يأتزرون به على صدورهم يُعرف بأزرة الشطار[٦٩] وكانوا أكثر انتشارًا في المملكة الإسلامية من العيارين وأطول بقاء منهم، وظهروا في الأندلس ولهم فيها نوادر وتنكيتات وتركيبات وأخبار مضحكة تملأ الصحف لكثرتها وتضحك الثكلى،[٧٠] على أن اسمهم كان يختلف باختلاف البلاد، فهم يعرفون في العراق بالشطار، وفي خراسان يسمونهم سرا بداران، وفي المغرب الصقورة، وسماهم ابن بطوطة «الفتاك»، وذكر تفشيهم في أيامه (القرن الثامن للهجرة) وأشار إلى اجتماعهم على الفساد وقطع الطرق وتكاثرهم في نواحي

سبزوار، حتى هجموا على مدينة بيهق وملكوها وملكوا غيرها وجندوا الجنود وركبوا الخيل وولوا أحدهم سلطانًا عليهم، وانحاز إليه العبيد يفرون من مواليهم فكل من جاء من هؤلاء أعطاه ذلك السلطان مالًا وفرسًا، وإذا ظهرت منه شجاعة أمَّره، إلى آخر ما ذكره.[٧١]

ولم يكن الشطار وغيرهم من أهل الشرور يعدون اللصوصية جريمة، وإنما كانوا يعدونها صناعة ويحللونها باعتبار أن ما يستولون عليه من أموال التجار الأغنياء زكاة تلك الأموال التي أُوصي بإعطائها للفقراء،[٧٢] وكان أولئك اللصوص إذا شاخ أحدهم ربما تاب فتستخدمه الحكومة في مساعدتها على كشف السرقات، وكان في خدمة الدولة العباسية جماعة من هؤلاء الشيوخ يقال لهم: «التوابون»، على أنهم كثيرًا ما كانوا يقاسمون اللصوص ما يسرقونه ويكتمون أمرهم.[٧٣]

طوائف أخرى من الرعاع

وهناك طوائف أخرى من رعاع العامة أو من في معناهم، تكاثروا في عصر الاضمحلال بالمملكة العباسية، كالصعاليك والزواقيل والحرافيش وغيرهم، كان طلاب السلطة يستعينون بهم في حروبهم بعضهم على بعض ويعدون بالآلاف، فقد كان مع أبي دلف عشرون ألفًا من الصعاليك.[٧٤]

ويدخل في معنى هذه الطوائف ممن تجمهروا للارتزاق بالتعدي على أصحاب الأموال العبيد، وكانوا كثيرين لا يخلو منهم منزل كما رأيت، فلما اختلت الأحوال وضعف أسيادهم ذهبت الهيبة من قلوبهم حتى إذا سنحت لهم فرصة نهضوا مع الناهضين، وربما انتحلوا لنهوضهم دعوة دينية يقومون بها، كما فعل صاحب الزنج في أواسط القرن الثالث للهجرة، فإنه قام قرب البصرة باسم الشيعة العلوية، وكان في ضواحيها جماعة من العبيد يكسحون السباخ، فدعاهم إلى النهوض معه على أن يحررهم من الرق ويريحهم من التعب، وكانوا قد شاهدوا رفاقهم الأرقاء البيض (المماليك الأتراك) يتمردون على الخلفاء فاقتدوا بهم، فكل عبد سمع بهذه الدعوة تبعها، حتى استفحل أمرهم وضربوا أسيادهم بالسياط،[٧٥] واجتمع منهم مئات الألوف، وحاربوا الدولة العباسية بضع عشرة سنة قتلوا في أثنائها ٢٥٠٠٠٠٠ نفس من الرجال والنساء والأطفال مما تقشعر له الأبدان، وانتهت تلك الدعوة بقتل زعيمها وتفرق أصحابه، وأراد البجة بمصر أن يفعلوا مثل الزنج بالعراق فلم يفلحوا، وقد يعد من هذا القبيل أيضًا الحشاشون، وهم طائفة

من الفوضويين ظهروا في القرن الخامس للهجرة، وجعلوا دأبهم الفتك بأهل السلطة غدرًا، وكان لهم شأن كبير في تاريخ الإسلام.[٧٦]

ومن طبقات العامة «المخنثون»، وكانوا في الحجاز قبل الإسلام، وهم جماعة من أهل الخلاعة انتشروا بالمدينة بعد الإسلام على إثر ظهور اللهو والقصف وكثرة الأموال، وكثيرًا ما كانوا يفسدون النساء يتوسطون بينهن وبين الرجال، وكان أحسن المغنين منهم، وقد تقدم خبر سليمان بن عبد الملك وما فعله بهم، وربما أشبهوا ما كان في القاهرة من «الخول» من عهد غير بعيد، ولما انتشر الغناء في المملكة الإسلامية انتشر المخنثون معه، وتكاثروا في بغداد والشام ومصر والأندلس وسائر المغرب، والأندلسيون إذا قالوا المخانيث قد يريدون المماليك الصقالبة.

وفيما خلا ذلك فقد كان في المدن من طبقات العامة ما لا يحصيه عد، من أهل الاحتيال للمعايش بأساليب الخداع والشعوذة أو نحوهما، ولكل صنف من هذه الأصناف اسم خاص، وربما زاد عددها جميعًا على عشرين نوعًا، كقولهم المخطراني والكاغاني والبانوان والقرسي والعواء والمشعبذ والفلور والأسطيل والمزيدي[٧٧] وغيرهم.

أخلاق العامة:

فالعامة في المدن أخلاط من غوغاء ولفيف من أمم شتى وصناعات شتى، وهم جهال أتباع من سبق إليهم من غير تمييز بين الفاضل والمفضول، وسئل الإمام علي عن العامة فقال: «همج رعاع أتباع كل ناعق.» وقال الفضل بن يحيي: «الناس أربع طبقات: ملوك قدمهم الاستحقاق، ووزراء فضلتهم الفطنة والرأي، وعلية أنهضهم اليسار، وأوساط ألحقهم بهم التأدب، والناس بعدهم زبد جفاء وسيل غثاء، لكع لكاع وربيطة اتضاع، هَمّ أحدهم طعامه ونومه.» وقال معاوية للأحنف: صف لي الناس، فقال: «رءوس رفعهم الحظ، وأكتاف عظمهم التدبير، وأعجاز أشهرهم المال، وأدباء ألحقهم بهم التأدب، والناس بعدهم أشباه البهائم؛ إن جاعوا ساموا وإن شبعوا ناموا.» هذه هي آراء خاصة تلك الأيام في عامتهم.

ومع ذلك فطلاب السلطة كانوا يراعون جانبهم ويقربونهم بما يرضيهم ولا سيما الدين وهو جامعتهم الكبرى، ولا غرو فإنه أكبر أسباب سعادتهم، ولهذا السبب رأيتهم شديدي التعلق بالخليفة إذا أظهر التقوى، لما في منصبه من الصبغة الدينية، وهو رئيسهم وإمامهم، فكانوا له عضدًا قويًّا، ولولاهم لذهبت الخلافة العباسية من بغداد

قبل الزمن الذي ذهبت فيه؛ لأنهم كانوا كثيرًا ما ينهضون لنصرته على القواد والوزراء إذا أرادوا خلعه، وأكثرهم مع ذلك لا يعرفون من الدين غير اسمه، ولو سئل أحدهم عن اعتقاده لما أحسن الجواب، فضلًا عن بساطتهم وسذاجة أفكارهم وجهلهم سائر الأمور.

ذكروا من دهاء معاوية في مداراة الناس واجتذاب قلوب العامة أن رجلًا من أهل الكوفة دخل على بعير له إلى دمشق في حال منصرفهم عن واقعة صفين، فتعلق به رجل من أهل دمشق فقال: هذه ناقتي أُخذت مني في صفين! فارتفع أمرهم إلى معاوية، وأقام الدمشقي خمسين رجلًا بينة يشهدون أنها ناقته فقضى معاوية على الكوفي وأمره بتسليم البعير إليه، فقال الكوفي: «أصلحك الله، إنه جمل وليس بناقة.» فقال معاوية: «هذا حكم قد مضى.» ودس إلى الكوفي بعد تفرقهم فأحضره وسأله عن ثمن بعيره ودفع إليه ضعفيه وبره وأحسن إليه وقال له: «أبلغ عليًّا أني أقابله بمائة ألف ما فيهم من يفرق بين الناقة والجمل.»

وبلغ من أمرهم في طاعته أنه صلى بهم عند مسيرهم إلى صفين الجمعة في يوم الأربعاء، وأعاروه رءوسهم عند القتال وحملوه بها، وركنوا إلى قول عمرو بن العاص أن عليًّا هو الذي قتل عمار بن ياسر حين أخرجه لنصرته، ثم ارتقى بهم الأمر في طاعته إلى أن جعلوا لعن علي سنة ينشأ عليها الصغير ويهلك عليها الكبير.

وذكروا عن عامة بغداد في إبان التمدن الإسلامي أن رجلًا منهم رفع إلى بعض الولاة وشاية برجل من علماء الكلام زعم أنه يتزندق، فسأله الوالي عن مذهب الرجل فقال: «إنه مرجئ قدري إباضي رافضي، يبغض معاوية بن الخطاب الذي قاتل علي بن العاص!» فقال له الوالي: «ما أدري على أي شيء أحسدك، على علمك بالمقالات أو على بصرك بالأنساب ...»

وكان جماعة من علماء ذلك العصر يجتمعون في بغداد للمناظرة في أبي بكر وعمر وعلي ومعاوية، وكان بعض العامة يأتون فيستمعون، فتصدى أكبرهم لحية ذات يوم لبعض الباحثين وقال له: «كم تطنبون في علي ومعاوية وفلان وفلان!»

فقال له الرجل: «فما تقول أنت في علي؟»

قال: «أليس هو أبا فاطمة؟»

قال: «ومن هي فاطمة؟»

قال: «امرأة النبي عليه السلام ... بنت عائشة أخت معاوية!»

قال: «فما كانت قصة علي؟»

قال: «قتل في غزاة حنين مع النبي، وقد كان عبد الله بن علي حين خرج في طلب مروان إلى الشام، وكان من قصة مروان ومقتله ما قد ذكر، ونزل عبد الله بن علي الشام، ووجه إلى أبي العباس السفاح أشياخًا من أهل الشام من أرباب النعم والرياسة، فحلفوا لأبي العباس السفاح أنهم ما علموا لرسول الله قرابة ولا أهل بيت يرثونه غير بني أمية حتى وليتم الخلافة.»[٧٨]

أولئك هم العامة في كل زمان ومكان، وطلاب السلطة المطلقة لا يستغنون عنهم؛ لأنهم معظم الرعية وبهم تُجبى الأموال ومنهم تتألف الجنود، فمن استطاع كسب ثقتهم واجتذاب قلوبهم ملكوه، ولا يجتذب قلوب العامة مثل الدين، فإذا اجتمعت السياسة والدين تمت وسائط السلطة المطلقة وتولى أمور الناس أكثرهم دهاء وأقدرهم على استرضاء العامة بالتقوى.

هوامش

(١) راجع الجزء الرابع.
(٢) المسعودي ١٧٧ ج٢ وغيره.
(٣) المسعودي ١٨٨ ج٢.
(٤) الأتليدي ١٥١.
(٥) نفح الطيب ١١٣ ج١ وابن الأثير ٢٥٩ ج٤.
(٦) ابن الأثير ٢٧٢ ج٤.
(٧) ابن الأثير ٤٦ ج١٠.
(٨) ابن الأثير ٢٢٧ ج٩.
(٩) نفح الطيب ٢٠٩ ج١.
(١٠) المقريزي ٣١٣ ج١.
(١١) المقريزي ١٩٣ ج٢ و٤٨٩ ج١.
(١٢) المقريزي ٧٩ و١٩١ ج٢.
(١٣) المسعودي ٢٢ ج٢.
(١٤) المقريزي ٩٥ ج١.
(١٥) الدميري ٤٩ ج١.
(١٦) ابن الأثير ١٤٧ ج٤ والأغاني ٣٧ ج١.

(١٧) طبقات الأطباء ١٤١ و١٤٥ ج١.
(١٨) تاريخ الوزراء ١٢.
(١٩) ابن حوقل ٧٥.
(٢٠) ابن خلكان ٣٢٠ ج١.
(٢١) الأغاني ١٣٧ ج١٦.
(٢٢) المسعودي ٢٨٠ ج٢.
(٢٣) المسعودي ١١٥ ج١ وترتيب الدول ١١١.
(٢٤) الأغاني ١٣٨ ج١٩.
(٢٥) ترتيب الدول ١١٢.
(٢٦) المسعودي ١٥٤ ج٢.
(٢٧) الأغاني ١٥٤ ج٨.
(٢٨) الجزء الثاني من هذا الكتاب.
(٢٩) ابن خلكان ١٩٠ ج١.
(٣٠) المسعودي ٣٦٦ ج٢.
(٣١) نفح الطيب ٧٠٩ ج٢.
(٣٢) الأغاني ٨٠ ج١٥.
(٣٣) العقد الفريد ١٤٨ ج١.
(٣٤) Revue Arch, Les Ecoles des Peintures en Perse, 1905, 11.
(٣٥) العقد الفريد ١٨٦ ج٣.
(٣٦) العقد الفريد ١٧٨ ج٢.
(٣٧) العقد الفريد ١٨٢ ج٣.
(٣٨) المسعودي ٦٨ ج٢.
(٣٩) العقد الفريد ٢٦٩ ج٢، والمسعودي ١٣٣ ج٢.
(٤٠) العقد الفريد ١٩٦ ج٢.
(٤١) الأغاني ١٣٠ ج٢.
(٤٢) الكامل للمبرد ٣٧٧.
(٤٣) الأغاني ٦١ ج٤.
(٤٤) الأغاني ١٣٤ ج٦.

(٤٥) المسعودي ١٣١ ج٢.
(٤٦) الأغاني ١١٥ ج٢.
(٤٧) المسعودي ١٢٢ ج٢.
(٤٨) فوات الوفيات ٣٧١ ج٢.
(٤٩) الأغاني ١٠٦ ج٥.
(٥٠) الأغاني ١٢٣ ج٢ و٦٣ ج١٩.
(٥١) ابن الأثير ١٩٠ ج٥.
(٥٢) الجزء الثالث.
(٥٣) ابن خرداذبة ١٥٣.
(٥٤) الإصطخري والمسعودي.
(٥٥) المسعودي: مروج الذهب، ص٥٤ ج١.
(٥٦) فوات الوفيات ١٣٨ ج١.
(٥٧) ابن الأثير ٢٠ ج٩.
(٥٨) ابن حوقل ١٩٨.
(٥٩) الفخري ٢١٣.
(٦٠) Encycl, Brit, Article Sugar.
(٦١) الجزء الأول.
(٦٢) نفخ الطيب ٨٧٣ ج٢.
(٦٣) رحلة ابن جبير ٢٧١.
(٦٤) المشرق عدد ٦ سنة ٧.
(٦٥) المسعودي ٢١٨ ج٢.
(٦٦) ابن الأثير ٢٤٤ ج٨ و١٤٥–١٥٠ ج٩.
(٦٧) ابن الأثير ٢٤٦ ج٩.
(٦٨) ابن الأثير ٤١ ج١١.
(٦٩) الأغاني ٩١ ج٦.
(٧٠) نفح الطيب ٧٦٦ ج٢.
(٧١) رحلة ابن بطوطة ٢٣٥ ج١.
(٧٢) الجزء الرابع.

(٧٣) المسعودي ٣٣٥ ج٢.
(٧٤) ابن الأثير ٦٩ ج٧.
(٧٥) ابن الأثير ٨٢ ج٧ والطبري.
(٧٦) الهلال ص٨٣ سنة ١٠.
(٧٧) كتاب البخلاء ص٣٧، وقد فسر الجاحظ في ذلك الموضع معاني هذه الألفاظ.
(٧٨) المسعودي ٥٢ ج٢.

الآداب الاجتماعية

آداب العرب في الجاهلية

نريد بالآداب الاجتماعية ما يدور بين الناس من المعاملات الأدبية والأمور الاعتبارية في هيئتهم الاجتماعية، وما يتبادلونه من العلائق العائلية على ما تقتضيه عاداتهم وأخلاقهم وطبائع إقليمهم، وأساس تلك الآداب في التمدن الإسلامي ما كان عند العرب قبل الإسلام من المناقب والعادات وحال المرأة عندهم، فنقدم الكلام بتمهيد في هذا الشأن.

(١) مناقب العرب الجاهلية

تختلف مناقب الناس وآدابهم باختلاف ضروب معايشهم وأطوار تمدنهم وطبائع إقليمهم، فللبدو مناقب غير مناقب الحضر، ولأهل القرى آداب تختلف عما لأهل المدن، وأهل الأقاليم الحارة آدابهم تخالف آداب أهل الأقاليم الباردة، جريًا على ما يقتضيه ناموس الارتقاء من التناسب بين طبائع القوم وطبائع إقليمهم، لئلا يتولاهم الضعف ويدركهم الفناء.

فأهل البادية يحتاجون إلى الشجاعة مثلًا أكثر مما يحتاج إليها المتمدنون، لتفرد البدوي عن المجتمع وتوحشه في الخلاء وبعده عن الحامية وانتباذه عن الأسوار، ويقوم بالدفاع عن نفسه بيده فهو دائمًا يحمل السلام وينفرد في القفر واثقًا بنفسه، فصارت الشجاعة سجية له، بخلاف أهل المدن الذين ألقوا جنوبهم على مهاد الراحة وانغمسوا في الترف، ووكلوا أمرهم في المدافعة عن أعراضهم وأموالهم وأنفسهم إلى واليهم والحامية التي تولت حراستهم، واستناموا إلى الأسوار التي تحوطهم فهم آمنون قد ألقوا السلاح، وتوالت على ذلك منهم الأجيال وتنزلوا منزلة النساء والولدان الذين هم عيال على سواهم، فأصبح الجبن طبيعة فيهم، اعتبر ذلك بسائر ما يغلب في طباع أهل البدو كالعصبية

والكرم والوفاء والأنفة والنجدة وغيرها مما تستلزمه البداوة ولا تستقيم إلا به على ما سنبينه:

(١) **العصبية:** هي أظهر طبائع البدو وأعمها، وقد فصلنا أسبابها وشروطها وسائر أطوارها في الجزء الرابع.

(٢) **الشجاعة:** البدو يعيشون غالبًا بالغزو، وهم دائمًا في قتال أو يتأهبون لقتال، فالشجاعة شرط من شروط بقائهم، وقد كانت غالبة فيهم، يكرمون الشجاع ويتفاخرون بالشجعان، واشتهر فيهم جماعة كبيرة من أهل البسالة في الجاهلية والإسلام، كعمرو بن معد يكرب، وربيعة بن المكدم، ودريد بن الصمة، وعروة بن الورد، وعنترة العبسي، وملاعب الأسنة، وعامر بن الطفيل، وعلي بن أبي طالب، وخالد بن الوليد، والمقداد بن الأسود، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن الزبير وأخيه مصعب وغيرهم، واشتهرت نساؤهم بالشجاعة أيضًا، كما سيجيء في كلامنا عن المرأة.

(٣) **الكرم:** وهو من مناقب أهل البادية، اقتضته طبيعة إقليمهم لما قدمناه من مسير البدوي في أسفاره منفردًا، وقد يبتعد عن مضربه أيامًا في بادية لا طعام فيها ولا ماء، فإذا لم يجد من يقريه ويسقيه مات، فنشأ عن ذلك الضيافة وقرى الضيفان، وأصبح الكرم من أفضل المناقب عندهم، شأن سائر أجيال البدو غير العرب كالجرمان قبل تمدنهم، فكان البدو يتفاخرون بالضيافة ويتسابقون إلى المغالاة فيها، حتى أوقدوا نارًا بجانب مضاربهم يهتدي بها المارة ليلًا يسمونها نار القرى، وبالغوا في احترام الكرماء ترغيبًا للناس في هذه الفضيلة لافتقارهم إليها، فأصبح الأسخياء يبالغون في ذلك ويكثرون من النيران، فإذا اشتد البرد أو هبت الرياح فعجزوا عن إيقادها، فرقوا الكلاب حوالي الحي وربطوها إلى العمد لتستوحش فتنبح، فيهتدي الأضياف على نباحها، ولذلك كان من أسماء الكلاب عندهم «داعي الضمير، ومتمم النعم، ومشيد الذكر»، وكانوا يتفاخرون بعظم جفانهم وارتفاعها، ومن أكبر تلك الجفان جفنة عبد الله بن جدعان، كان الرجل يستظل في ظلها.[١]

وأشهر الكرماء في الجاهلية حاتم الطائي ويضرب المثل بكرمه، فيقال للمبالغة في مدح كريم: «إنه أكرم من حاتم طي»، ومنهم كعب بن مامة الإيادي، وهرم بن سنان، وخالد بن عبد الله وغيرهم، وكان جودهم قاصرًا على الضروري من حاجات الإنسان، كالطعام والشراب واللباس لبساطة أحوالهم، وربما جادوا بالإبل أو الماشية، فلما ظهر الإسلام وكثرت أموالهم من الغنائم والعطايا صاروا يجودون بالنقود والجواهر والضياع والرقيق وغيرها كما سنرى.

(٤) **الوفاء:** لما كان الغدر سهلًا على البدوي، لإمكانه الفرار من القصاص والإيغال في البادية، حيث لا يستطيع خصمه الوصول إليه وليس ثمة وازع يخيفه أو جند يقبضون عليه، ولا هناك دين يزجره مما يفضي إلى ضياع الحقوق وفساد الأحوال، جعلوا يرغبون الناس في الوفاء ويعظمون أمره ويمتدحون أهله، فرغب الناس فيه وأصبح بتوالي الأجيال خلقًا لهم، وصاروا يأنفون من إخلاف الوعد ويشهرون بمرتكبه ويبالغون في الثناء على أهل الوفاء.

(٥) **الاستقلال:** لا شيء أحب إلى أهل البادية من الاستقلال، ولا سيما الرُّحَّل فإنهم طُبعوا على الحرية وكرهوا التقيد بشيء، حتى المكان فهم لا يتوطنون صقعًا، بل يجعلون منازلهم على ظهورهم ينتقلون بها إلى حيث يطيب لهم المقام، وهم لا يحملون ضيمًا ولا يصبرون على ظلم، وتمكنت الحرية من طباعهم حتى ظهرت في أقوالهم وأفكارهم، ونشئوا على الأنفة وعزة النفس وإباء الضيم، ألا ترى كيف ظهر ذلك منهم في صدر الإسلام، إذ كانوا يخاطبون الخلفاء كما يخاطبون عامة الناس، والخلفاء لا يرون بأسًا بذلك؛ لأنه كان طبعًا مألوفًا فيهم؟

(٦) **النجدة:** هي من طبائع البدو ولازمة لزوم الضيافة، وبينهما تناسب من حيث إغاثة الضعيف، فإذا استنجدت البدوي على أمر أنجدك ولو بذل نفسه في هذا السبيل، وتظهر نجدتهم على الخصوص في الجوار وحمى الذمار، وقد فصلنا ذلك في الجزء الرابع.

(٧) **الأريحية:** وقد وصفنا هذه المنقبة وصفًا مختصرًا في الجزء المذكور، وهي من مناقب أهل النجدة والفروسية التي يعبر عنها الإفرنج بقولهم Chevalerie ومرجعها إلى الافتخار بحسن الأحدوثة، ولما كان العرب أهل خيال وذوي نفوس حساسة كان للأريحية عندهم شأن كبير، فالرجل منهم تقيمه كلمة وتقعده، وربما تجردوا للحرب نقمة على عبارة تطعن في شجاعتهم أو كرمهم أو وفائهم، وكانوا يتأثرون على الخصوص من أقوال النساء مدحًا أو طعنًا فيبذلون ما في وسعهم التماسًا لثنائهن، وكثيرًا ما كان ذلك سببًا في ابتعادهم عن الرذائل، وربما تعرض بعضهم للقتل خوفًا من استخفافهن، وفي أخبار الجاهلية شواهد كثيرة على ذلك.

(٨) **الثأر:** وكما ينجدك البدوي إذا استنجدته فهو لا يصبر عن الأخذ بثأره إذا أسأت إليه، وإذا قتل رجل من قبيلة رجلًا من قبيلة أخرى نشأت العداوة بين القبيلتين، فتقوم الموتورة منهما للأخذ بثأرها ولا تنفك حتى تقتل من الأخرى من هو كفء لقتيلها أو يتصالحوا على الدية، ومن أشهر حوادث الثأر في الجاهلية الحرب التي أثارها المهلهل بن

ربيعة للأخذ بثأر أخيه كليب، فأصبح المهلهل مثلًا في ذلك فيقولون: «فلان آخذ للثأر من المهلهل» لأنه حلف منذ طلب الثأر أنه لا ينزع درعه ولا يشرب الخمر ولا يدهن رأسه بالطيب ولا يقرب النساء إلا بعد نيل مرامه.

(٩) **الشيخوخة:** كان للشيخوخة عند العرب مقام رفيع، ولفظ الشيخ يدل عندهم على الشيخوخة والرئاسة معًا، وكانوا إذا تساوت المناقب فيمن يرشحونه للإمارة فضلوا أكبرهم سنًّا، كما فعلت قريش في حرب الفجار الثانية.[٢] ولما جاء الإسلام وأحدث ما أحدثه من المناقب الدينية، كانت هذه المناقب في جملة ما فضلوه على السن، فإذا تساوت كلها في المترشح للإمارة فضلوا أكبرهم سنًّا، عملًا بالحديث النبوي بشأن الإمامة: «يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله تعالى، فإن كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة، فإن كانوا في السنة سواء فأقدمهم هجرة، فإن كانوا في الهجرة سواء فأقدمهم سنًّا».[٣]

(٢) المرأة في الجاهلية

اختلفت الآراء في حال المرأة العربية في العصر الجاهلي، ولا مشاحة أنها كانت على الإجمال عظيمة الشأن عفيفة النفس، وعفتها من ثمار حب الاستقلال والأنفة؛ لأن المرأة التي تشب على استقلال الفكر وإباء الضيم تترفع عن ارتكاب ما يهون على المرأة الناشئة في مهاد الذل المغلولة بأغلال الحجاب، ويقال نحو ذلك في غيرة رجالهم على العرض، فإنه من مستلزمات العفة والأنفة والاستقلال؛ لأن الرجل الأنوف إذا تعود العفة من امرأته يعظم على طباعه احتمال ما يمس عرضها من قول أو فعل، وتزداد غيرته عليها إذا كانت وحيدة لم يحب سواها، كما كان حال العرب في الجاهلية لقلة الجواري يومئذ ومشقة الحصول على النساء، مع حاجة البدوي إلى امرأته في تدبير شئونه وإعانته في أسفاره وأعماله.

(٢-١) الوأد

وبلغ من غيرة بعضهم في الجاهلية أن يقتلوا بناتهم أو يئدوهن، لئلا يرتكبن ما يجر عليهم العار، ولم يكن الوأد عامًّا في قبائل العرب، ولا كان قديمًا عندهم، وإنما حدث قبيل الإسلام، وكان منحصرًا في بعض بني تميم بن مر، ظهر فيهم لسبب طرأ عليهم؛ ذكروا أنهم كانوا يؤدون الإتاوة (الجزية) إلى النعمان ملك الحيرة، فمنعوها سنة من

السنين فجرد عليهم النعمان كتائبه وساق أنعامهم وسبى ذراريهم، فعظم ذلك على التميميين فوفدوا عليه يطلبون أهلهم وأموالهم فأبى، فقالوا: «أعطنا النساء.» فقال: «إننا نخيرهن في الذهاب أو البقاء.» وأعلن «أن كل امرأة اختارت أباها ردت إليه، وإن اختارت صاحبها تركت عليه» فكلهن اختارت أباها إلا ابنة قيس بن عاصم كانت قد أحبت عمرو بن المشمرج فاختارت البقاء عنده، فغضب قيس ونذر لا تُولد له ابنة إلا قتلها،[٤] وربما اقتدى به بعض أهله أو أهل قبيلته، وكان بعض الغيورين من العرب لا يزوج بناته غيرة عليهن، وأشهرهم ذو الإصبع العدواني فكانت له أربع بنات منعهن الزواج وهن يردنه في حديث طويل ذكره المبرد،[٥] ولم يطل زمن الوأد عند العرب؛ لأنه مخالف لأحكام العقل ومباين لعواطف الوالدين، فما لبث أن ظهر صعصعة بن ناجية وأخذ على نفسه فداء البنات الموءودات[٦] حتى بطل الوأد.

(٢-٢) شهيرات الجاهلية

وكان للمرأة في الجاهلية شأن وإرادة، وكانت صاحبة أنفة ورأي وحزم، فنبغ غير واحدة منهن في السياسة والحرب والأدب والشعر والتجارة والصناعة ولا سيما في أوائل الإسلام على أثر ما حصل من النهضة في النفوس والعقول، فاشتهرت جماعة منهن بمناقب رفيعة تضرب بها الأمثال، وأكثرهن في المدينة مقر الخلافة الإسلامية في ذلك العهد.

فاللواتي اشتهرن في الجاهلية بالشجاعة وشدة البطش أو كبر النفس، منهن سلمى بنت عمر إحدى نساء بني عدي بن النجار، فإنها كانت امرأة شريفة لا تتزوج الرجال إلا وأمرها بيدها، إذا رأت من الرجل شيئًا تركته، على أن الغالب في نساء الجاهلية أن يُخيرن قبيل الزواج، فلا يزوج الرجل ابنته إلا بعد أن يشاورها،[٧] واشتهرت التميميات من نساء قريش بحظوتهن عند رجالهن وكبريائهن وقسوتهن عليهم،[٨] ناهيك بمن اشتهرت منهن بالبسالة في أثناء الغزوات، ففي معركة أحد وقع لواء قريش في ساحة القتال، فلم يزل صريعًا حتى أخذته امرأة منهم اسمها عمرة بنت علقمة الحارثية فرفعته لهم فلاذوا بها.[٩] وفعلت هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان في تلك المعركة ما لم تفعله الرجال، فجمعت إليها نسوة أخذن في أيديهن الدفوف يضربن خلف الرجال وهي تنشد في تحريضهم على الثبات، ولما انتهت الواقعة خرجت مع النسوة تنظر جثث القتلى حتى وجدت بينها جثة حمزة عم النبي، فبقرت بطنه وأخرجت كبده فلاكتها من غيظها فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها، ثم علت صخرة وأنشدت أشعارًا تفخر بالفوز على المسلمين.[١٠]

ونساء الجاهلية كن يصحبن الرجال إلى ساحة القتال فيداوين الجرحى ويحملن قرب الماء، وممن اشتهرن بالشجاعة أم عمارة بنت كعب الأنصارية، وأم حكيم بنت الحارث، والخنساء الشاعرة أخت صخر وغيرهن.[11]

ونبغ بالرأي والحزم غير واحدة، أشهرهن أم المؤمنين خديجة بنت خويلد، وكانت عاقلة حازمة لبيبة ذات شرف ومال، تنتقي من اشتهر من الرجال بالأمانة والحزم فتستأجرهم بمالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم، ولما سمعت بشهرة النبي قبل الدعوة بالأمانة وكرم الأخلاق، بعثت إليه أن يخرج في مالها تاجرًا إلى الشام وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من الرجال، فلما أفلح في تجارته عرضت عليه أن يتزوج بها فأجابها، وهي أول من أسلم، وقد نشطته للقيام بالدعوة، فكان لا يسمع شيئًا مما يكرهه من رد عليه أو تكذيب له فيحزنه ويخبرها به إلا ثبتته وخففت عنه وهونت عليه، وما زالت على ذلك حتى ماتت.

هوامش

(١) ألف باء ٨٣ ج٢.

(٢) الجزء الأول.

(٣) مشكاة المصابيح ١٠٠.

(٤) الكامل للمبرد ٢٧٨.

(٥) الكامل ٣١٦.

(٦) ألف باء ٢٠ ج٢.

(٧) الأغاني ١٤٩ ج٩ و٢٠٨ ج١٨.

(٨) الأغاني ٢٠٣ ج١٨.

(٩) الأغاني ١٧ ج١٤.

(١٠) الأغاني ٢٠ ج١٤.

(١١) ألف باء ٢١٠ ج٢.

آداب العرب في صدر الإسلام

الآداب الاجتماعية في العصر الإسلامي العربي

ينقضي هذا العصر بانقضاء دولة الأمويين في الشام سنة ١٣٢هـ، وقد علمت مما ذكرناه عن سياسة هذا العصر في الجزء الرابع أنها كانت عربية النزعة وقوادها عرب وعمالها عرب والسيادة فيها للعنصر العربي، وكذلك الآداب الاجتماعية، فقد كانت لا تزال عربية بدوية، أو هو دور الانتقال من البداوة إلى الحضارة، حاول العرب فيه البقاء على ما ألفوه في جاهليتهم من المناقب التي تقدم ذكرها، كالوفاء والجوار والكرم والنجدة والشجاعة والعفة، وكانت الحضارة وما تقتضيه من الترف والرخاء تغالب تلك المناقب، حتى غلبت على معظمها في أواسط العصر العباسي.

ويقسم العصر الإسلامي العربي إلى: أيام الراشدين، وأيام الأمويين، فنذكر الآداب الاجتماعية في كل منهما على حدة.

(١) الآداب الاجتماعية في عصر الراشدين

قلما أصاب المناقب البدوية تغيير في عصر الراشدين، إلا ما اقتضاه الدين من جمع كلمة العرب تحت لوائه، فضعفت بذلك العصبية بين القبائل والبطون، واجتمع العرب من قحطان وعدنان في ظل الإسلام، وأصاب الكرم في ذلك العصر تغيير اقتضاه عدل الراشدين ولا سيما عمر بن الخطاب، فإنه كان من الصرامة وحب العدل حتى يطالب العامل بالدرهم والدانق، وإذا علم أنه كسب مالًا من غير راتبه شاطره إياه، وكذلك كان

علي بتدقيقه في محاسبة عماله وسائر رجاله، فكانوا لا يبذلون المال إلا لمن استحقه من أهل العطاء، فلم يكن لأصحاب الاستجداء عيش في أيامهم، وكان الصحابة يومئذ يقلدون الخلفاء في هذا التدقيق، وهو مخالف للسخاء والبذل، حتى اتهموهم بالبخل وما هو بخل، ولكنهم كانوا يرون إعطاء كل ذي حق حقه.

أما ما بقي من مناقب العرب فظلت على نحو ما كانت عليه، وبعضها زاد تمكنًا في نفوسهم، كالوفاء والنجدة والعفة والأنفة؛ لأن الإسلام زادها رونقًا وقوة بالعدل والتقوى، فكان الخليفة أو أميرُه إذا وعد وفى، وإذا عاهد أنجز، لا يثنيه عن ذلك طمع أو خوف؛ اعتبر ما كان من وفائهم لأهل الذمة، إذ عاهدوهم على أن يحموهم ما أدوا الجزية، فكانوا إذا شغلهم عن حمايتهم شاغل ردوا الجزية إلى أصحابها واعتذروا[1] ولو لم يردوها ما طالبهم بها أحد، وإنما كانوا يفعلون ذلك من عند أنفسهم، والشجاعة كانت سائدة في ذلك العصر، لما كانوا فيه من الحاجة إليها في الفتح والجهاد، وقس على ذلك سائر المناقب، ولا سيما الاستقلال والحرية فإنهما زادا قوة في صدر الإسلام، لما توخاه الراشدون من التسوية بين المسلمين على اختلاف طبقاتهم، حتى أصبحوا يخاطبون الخليفة أو الأمير بجسارة وأنفة كما يخاطبون بعض أقرانهم، وإذا رأوا فيه اعوجاجًا هددوه أو عنفوه وأصلحوه، فإذا لم يطعهم قتلوه كما فعلوا بالخليفة عثمان، وكثيرًا ما كان المسلمون يحصبون أميرهم وهو يخطب فيهم، إذا أنكروا شيئًا من أقواله أو أعماله.

(١-١) المرأة في عصر الراشدين

أما المرأة فاتجهت قواها في صدر الإسلام إلى سداد الرأي ومزاولة الأدب والشعر مع بقاء العفة والأنفة، فاشتهر منهن غير واحدة جرت بذكرهن الأمثال منهن عائشة أم المؤمنين، فقد كان لها عقل راجح وفيها دهاء وقوة، حتى رأست حزبًا كبيرًا من الصحابة وروت أحاديث كثيرة هامة.

وعائشة بنت طلحة بن عبيد الله الصحابي الشهير، كانت مفرطة الجمال تقيم في المدينة ولها عقل ورأي وعلم واسع بأخبار العرب وأيامها وفي مطالع الكواكب وأحوالها، وكانت مع جمالها لا تستر وجهها عن الرجال لعظم قدرها وكبر نفسها، وكثيرًا ما كانت تجلس في قصرها فيتناضل بين يديها الرماة ويتفاخرون بما ينالون من إعجابها، وكانت إذا حجت يجيئها النساء الشواعر وغيرهن ويدخل الشعراء فتجيزهم الجوائز الكبيرة، وكان لها موكب لم يسمع بمثله في عصرها مؤلف من عدة مواكب، واحد لماشطتها وآخر

لخازنتها وآخر لكل من كبار أتباعها، أما موكبها الخاص فهو كوكبة فيها ٣٠٠ راحلة عليها القباب والهوادج.[٢]

وسكينة بنت الحسين بن علي، وكانت معاصرة لعائشة بنت طلحة في المدينة وتسميان عقيلتي قريش،[٣] وكانت عفيفة برزة تجالس الأجلة من قريش ويجتمع إليها الشعراء، وتأذن للناس إذنًا عامًّا حتى تغص الدار بهم فتأمر لهم بالأطعمة، ثم تطرح على الشعراء الأسئلة في الشعر والأدب وتنتقد أقوالهم وتجيزهم، وخبرها في ذلك مشهور.[٤]

وأسماء بنت أبي بكر، المعروفة بذات النطاقين وهي أم عبد الله بن الزبير، وفي مراجعة قولها لابنها هذا لما يئس من الفوز وهو محصور بمكة وجاء يستفتيها وتحريضها إياه على استقبال الموت بشرف دليل كاف على كبر نفسها وحزمها.[٥]

ونبغ بالشعر في ذلك العصر عدة نساء، كليلى الأخيلية والخنساء المتقدم ذكرها والفارعة المرية، واشتهر في البادية غير واحدة ممن كان يجتمع الرجال عندها للمناشدة أو المذاكرة على غير ريبة، فإذا توسمت في أحدهم انحرافًا منعته واحتجبت عنه، كما اتفق لأبي دهبل الجمحي مع عمرة الجمحية، وكانت امرأة جزلة يجتمع إليها الرجال لإنشاد الشعر، وكان أبو دهبل من أشراف بني جمح وكان لا يفارق مجلسها، وكانت تحبه وتتقدم إليه في كتمان حبها، فجاء نسوة كن يتحدثن إليها فذكرن لها شيئًا عن أبي دهبل وأنه يقول: إنها عاشقة له، فرفعت مجلسها وتركت مجالسة الرجال ظاهرة وضربت حجابًا بينها وبينهم.[٦]

ولما نضج التمدن الإسلامي اشتهر عدة نساء بالسياسة والصلاح والدهاء وغير ذلك مما ذكرناه في الأجزاء الماضية.

(٢) الآداب الاجتماعية في عصر الأمويين

أصاب المناقب العربية في الدولة الأموية تغيير يختلف عما أصابها في عصر الراشدين باختلاف أحوال الدولتين، فالأمويون لما جعلوا همهم الرجوع إلى ما كان لهم من السيادة في الجاهلية أغفلوا كل ما يخافون حيلولته بينهم وبين ذلك المرمى، واستبقوا ما يتوسمون منه نفعًا لغرضهم؛ فالكرم رأوا فيه وسيلة لجمع الأحزاب فنشطوه وتسابقوا إليه، فزادوا الأعطية وفرضوا الجوائز وأقاموا بيوت الضيافة، وأكثروا من السخاء على رؤساء الأحزاب والشعراء ومن يخافون سطوتهم ولا يقوون على قتلهم على ما بيناه في باب السخاء.

والشجاعة لم يكن لهم بد منها فقربوا أصحابها، والعصبية كانت ملجأهم الأكبر في مناوأة أعدائهم من شيعة علي وغيرهم، فبعد أن ضعفت في عصر الراشدين وقامت جامعة الدين مكانها أعادها الأمويون إلى نحو ما كانت عليه قبل الإسلام.

أما الوفاء فكان عثرة في طريق أغراضهم، لما كانوا يعلمونه من حق مناظريهم في الخلافة وقوتهم فلجأوا إلى الغدر والفتك، وكان معاوية زعيمهم ومؤسس دولتهم يفعل ذلك سرًّا ويموه غدره بالحِلم والكرم والدهاء وحسن الأسلوب، فتدرج الخلفاء بعده من بني مروان إلى الغدر جهارًا، وأول من فعل ذلك عبد الملك بن مروان،[٧] وجرى عمالهم على هذه الخطة وأفرطوا فيها، فاشتهر بها منهم زياد بن أبيه وابنه عبيد الله بن زياد والحجاج بن يوسف وغيرهم.

(٢-١) تقييد الأفكار في أيام بني أمية

أما الاستقلال وحرية القول فجاهد الأمويون في مقاومتهما وقيدوا الألسنة بإرادتهم تقييدًا شديدًا، فكان ذلك عظيمًا على الذين عاصروا الراشدين وتعودوا الحق والحرية، فعاقبهم الأمويون جزاء حريتهم واستقلال أفكارهم بالعذاب الشديد، ومن لم يستطيعوا مقاومته جهارًا قتلوه سرًّا؛ بدأوا بذلك من أيام عثمان قبل قبضهم على مقاليد الدولة في الشام، وقد جرأهم عليه ضعف هذا الخليفة ورغبته في إرضاء أهله ونصرتهم، ولولا ذلك ما استطاع معاوية اضطهاد أبي ذر الغفاري ونفيه؛ لأنه جاهر باستبداد أهل الدولة بأموال المسلمين.[٨]

فلما أفضت الخلافة إلى معاوية لم ير بدًّا من الضغط على أفكار أهل الاستقلال والحرية، واستعمل الشدة في ذلك فقتل حجر بن عدي وعمرو بن الحمق وأصحابهما؛ لأنهم قالوا بحرية ضمير أن عليًّا لا يجوز لعنه على المنابر،[٩] فأصبح الناس يخافون على أرواحهم وأخذوا يتعودون السكوت عن الحق، ثم لجأوا إلى التمويه والرياء حتى في المشهور الثابت، كما فعل ذلك الرجل لما نصب معاوية ابنه يزيد لولاية العهد فأطرى عمل معاوية حتى قال: «إنك لو لم تول هذا أمور المسلمين لأضعتها.» ولكن الحرية كانت لا تزال حية في نفوس أهل الرئاسة ممن لم يكن يهمهم التزلف إلى أهل الدولة، وربما كانت الدولة أحوج إلى نصرتهم، كالأحنف بن قيس التميمي فإنه كان يقول الحق ولا يبالي، وكان ممن شهد الاحتفال بتولية يزيد وسمع ما قاله ذلك المنافق فاكتفى بالسكوت

عن المدح، وأدرك معاوية فكره فاستفهمه عن سبب سكوته فلم يبال أن قال: «أخاف الله إذا كذبت وأخافكم إذا صدقت ...»[١٠]

واقتدى بمعاوية من عاصره من الأمراء أو جاء بعده من الخلفاء، فنشأ جيل من العرب يهون عليهم السكوت عن الحق، وكثر أهل الزلفى والرياء وذهبت حرية القول بتوالي الأعوام.

(٢-٢) النجدة والأريحية في أيام بني أمية

أما النجدة والأريحية فظلتا في العصر الإسلامي العربي متأصلتين في العرب، وإن اضطر الأمويون إلى الإغضاء عنهما في بعض الأحيان، أما على العموم فقد كانتا مرعيتين حتى عند أشد بني أمية استبدادًا وظلمًا، وفي أخبارهم كثير من أمثلة ذلك، منها أنه جيء إلى معاوية في يوم صفين بأسير من أهل العراق فقال معاوية: «الحمد لله الذي أمكنني منك.»

فقال الرجل: «لا تقل ذلك يا معاوية.»

قال: «وأي نعمة أعظم من أن يمكنني الله من رجل قتل جماعة من أصحابي في ساعة واحدة؟ اضرب عنقه يا غلام.»

فقال الأسير: «اللهم اشهد أن معاوية لم يقتلني فيك وأنك لا ترضى بقتلي، وإنما يقتلني في الغلبة على حطام الدنيا، فإن فعل فافعل به ما هو أهله وإن لم يفعل فافعل به ما أنت أهله.»

فقال له: «ويحك! لقد سببت فأبلغت ودعوت فأحسنت ... خليا عنه.»

وكان معن بن زائدة قد أمر بقتل جماعة من الأسرى، فقام أصغر القوم فقال له: «يا معن، أتقتل الأسرى عطاشًا؟» فأمر لهم بالماء، فلما سقوا قال: «يا معن، أتقتل ضيفانك؟» فأمر معن بإطلاقهم.

وأتى الحجاج بأسرى من الخوارج فأمر بضرب أعناقهم، فقام فيهم شاب فقال: «والله يا حجاج لئن كنا أسأنا في الذنب فما أحسنت بالعفو.» فقال الحجاج: «أف لهذه الجيف! أما كان فيهم من يقول مثل هذا؟» وأمسك عن القتل، وقس على ذلك.[١١]

وكثيرًا ما كانوا يعرضون أنفسهم للقتل رغبة في حسن الأحدوثة، ولا سيما عند النساء كما فعل عيسي بن مصعب بن الزبير وهو مع أبيه في مقاتلة محمد بن مروان بالعراق سنة ٧١هـ، إذ تحقق مصعب أنه مقتول فأوعز إلى ابنه عيسى أن يطلب النجاة

فقال: «والله لا تتحدث نساء قريش أني خذلتك ورغبت في نفسي عنك.» فقال: «فاذهب أنت ومن معك إلى عمك في مكة فأخبره بما صنع أهل العراق ودعني فإني مقتول.» قال: «لا أخبر عنك قريشًا أبدًا، ولكن يا أبتي، الحق بالبصرة فإنهم على الطاعة أو الحق بأمير المؤمنين.» فقال مصعب: «لا تتحدث قريش أني فررت.» وحاربوا حتى قتلوا.[١٢]

وظلت الأريحية مرعية في أوائل الدولة العباسية، فإن الرشيد رفع القتل عن ربيعة بقصيدة رفعها إليه أحدهم استنهض بها أريحيته في العفو عنهم.[١٣] ولما عزم المأمون على قتل إبراهيم بن المهدي — وكان مصممًا على قتله — شاور فيه أحمد بن أبي خالد الوزير فقال: «يا أمير المؤمنين، إن قتلته فلك نظراء وإن عفوت عنه فما لك نظير.»[١٤] فعفا عنه.

فلما ضعف العنصر العربي في الدولة العباسية بعد تسلط الأجناد الأتراك، وتحولت الأغراض في أهل الدولة إلى كسب الأموال بأية وسيلة كانت، ذهبت الأريحية والنجدة، على أن ذهابهما بدأ من أيام أبي مسلم الخراساني … فكم استنجدوه واستحثوه ولم يفعل إلا ما يوصله إلى غرضه.

والشيخوخة ظلت مرعية ومحترمة إلى عصر العباسيين وما بعده، ولا تزال حتى الآن.

(٢-٣) المرأة في عصر الأمويين

بدأت المرأة بتبديل طباعها من أيام الأمويين؛ لأن العفة والغيرة أصابهما في ذلك العصر صدمة قوية بتكاثر الجواري والغلمان، وانغماس بعض الخلفاء في الترف والقصف وانتشار الغناء والمسكر، فتجرأ الشعراء على التشبيب والتغزل وتكاثر المخنثون في المدن، وتوسطوا بين الرجال والنساء بالباطل، فأخذ الفساد يفشو بين الناس وضعفت غيرة الرجال وقلت عفة الناس.

فقد رأيت أن المرأة كانت في الجاهلية وأوائل الإسلام تجالس الرجال وتخاطبهم وتذاكرهم والعرب لا يرون ذلك منكرًا،[١٥] ولا تخامرهم فيه ريبة، وإذا توسم رجل من رجل نظرة إلى امرأته أو أخته بريبة طلبه للمبارزة أو المجالدة أو المصارعة[١٦] (الدويلو Duello) فيتصارعان حتى يصرع أحدهما صاحبه وربما انتشب القتال بين القبائل غيرةً على نظرة كما حدث يوم الفجار الثاني،[١٧] حتى الشعراء، فقد كانوا لا ينظمون النسيب أو الغزل إلا قليلًا، ويقال: إن امرأ القيس أول من شبب بالنساء[١٨] ومهما يكن

من ضعف هذا القول فهو يدل على بعد العرب الجاهلية عن الغزل لفرط غيرتهم، على أنهم قلما شببوا بعد ذلك إلا بحبيب أو خطيبة، وكانت مغازلة النساء نادرة فيهم، فإذا اتفق لأحدهم شيء من ذلك اشتهر أمره وذاع خبره، كما اشتهر العشاق والمجانين في صدر الإسلام، وربما تعشق بعضهم رغبة في شحذ قرائحهم الشعرية، على أن تشبيبهم في كل حال لم يكن عن ريبة أو فاحشة.[١٩]

وكانوا يتفاخرون بالعفة وإمساك هوى النفس، وقد يجتمع الحبيبان بعد طول البعد واحتدام الشوق فيجلسان ويتعاتبان ويتحادثان ثم ينصرفان، وأشهر الناس في ذلك بنو عذرة، وأكثر عشاق العرب منهم.

(٢-٤) التشبيب

فكان العرب الجاهلية قلما يشببون بغير خطيباتهم، فإذا شبب أحدهم بفتاة قبل أن يخطبها منعوه منها،[٢٠] وكان الخلفاء الراشدون حريصين على آداب القوم، فجعلوا التشبيب ذنبًا يستوجب القصاص، وكان عمر بن الخطاب لا يسمع بشاعر شبب بامرأة إلا جلده،[٢١] ونظرًا لقلة من يجسر على وصف النساء في شعره كان الشاعر إذا شبب بامرأة اشتهرت فتتزوج، ولذلك كان بعض الآباء يطلب من الشاعر أن يشبب ببناته ليتزوجن.

فالعرب على فطرتهم وطبيعة إقليمهم وطرق معايشهم أهل عفة، والنساء يجتمعن بالرجال في المجالس والأندية على غير ريبة، حتى في الكعبة، فكانوا يطوفون معًا لا يرون بذلك بأسًا؛ لأن العفة كانت غالبة على طباعهم، فلما جاءهم الترف وأخذوا بأطراف الحضارة وعمدوا إلى التسري والاستكثار من الجواري تغيرت تلك الطباع، فلما كانت إمارة خالد القسري على مكة في خلافة سليمان بن عبد الملك الأموي بلغه قول بعض الشعراء:

يا حبذا الموسم من موقف وحبذا الكعبة من مسجد
وحبذا اللاتي يزاحمننا عند استلام الحجر الأسود

فأمر بالتفريق بين الرجال والنساء في الطواف.[٢٢]

وفي أيام بني أمية تجرأ الشعراء على التشبيب بالنساء، لا سيما في المدينة بعد انتشار الغناء فيها وإقبال أهلها على القصف واللهو، ومما زاد إنكارهم للتشبيب أن الشاعر

إذا نظم أبياتًا تغنى بها المغنون في مجالس الشراب، وأول من تجرأ على التشبيب من الشعراء القرشيون، وأسبقهم إلى ذلك ابن أبي عتيق حفيد أبي بكر الصديق، وكان من أهل الطهارة والعفاف وإنما كان يتشبب عن غير ريبة، واقتدى به عمر بن أبي ربيعة وهو قرشي أيضًا، وكان كثير النسيب والغزل ومن سمع كلامه ظنه من أجرأ الناس على فاحشة، وهو لم يحل إزاره على حرام،[٢٣] واقتدى به العرجي وهو من قريش أيضًا،[٢٤] ونبغ شعراء آخرون من غير قريش وأخذوا يشببون بالنساء رويدًا رويدًا.

ولم يكن الخلفاء في أول الأمر راضين عن ذلك لتغلب البداوة على أخلاقهم، فأخذوا يقاومون تيار الترف بكل قواهم، ولكنهم كانوا يدارون الشعراء رغبة في اكتساب الأحزاب على أيديهم، فلا يمنعونهم من التشبيب إلا إذا مس عرضهم، ومع ذلك فالدهاة منهم كانوا يتلطفون في دفعهم، ومن لطيف ما يُحكى من هذا القبيل أن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت شبب بابنة معاوية وهو خليفة في إبان مجده، وبلغ ذلك ابنه يزيد فغضب ودخل على أبيه وقال: «يا أمير المؤمنين اقتل عبد الرحمن بن حسان.»

قال: «ولم؟»

قال: «شبب بأختي.»

قال: «وما قال؟»

قال: «قال:

طال ليلي وبت كالمحزون ومللت الثواء في جيرون»[٢٥]

قال معاوية: «يا بني، وما علينا من طول ليله وحزنه؟ أبعده الله!»

قال: «صدق يا أبي.

فلذلك اغتربت بالشام حتى ظن أهلي مرجمات الظنون

قال: «يا بني، وما علينا من أهله؟»

قال: «إنه يقول:

هي زهراء مثل لؤلؤة الغوا ص ميزت من جوهر مكنون»

قال: «صدق يا بني.»

قال: «إنه يقول:

وإذا ما نسبتها لم تجدها في سناء من المكارم دون»

قال: «صدق يا بني، هي هكذا!»
قال: «إنه يقول:

ثم خاصرتها إلى القبة الخضـ ـراء تمشي في مرمر مسنون»

قال: «ولا كل هذا يا بني!»
وما زال يزيد يذكر له ما قاله فيها من التشبيب وهو يدافعه ويظهر أنه لا يرى فيه ما يستحق العقاب عليه، ثم كلمه بعض خاصته بشأنه وأكبروا جسارته وقالوا: «لو جعلته نكالًا.» فقال: «لا، ولكن أداويه بغير ذلك.» واتفق أن عبد الرحمن المذكور وفد على معاوية، وكان يدخل في أخريات الناس، فاستقبله أحسن استقبال وأجلسه على سريره معه وأقبل عليه بوجهه وحديثه ثم قال: «إن ابنتي الأخرى عاتبة عليك.» قال: «في أي شيء؟» قال: «في مدحك أختها وتركك إياها.» قال: «فلها العتبى وكرامة، أنا ذاكرها وممدها.» فلما فعل وبلغ ذلك الناس قالوا: «قد كنا نرى أن تشبيب ابن حسان بابنة معاوية لشيء، فإذا هو على رأي معاوية وأمره.» وعلم من كان يعرف أنه ليس له بنت أخرى، وأنه إنما خدعه ليشبب بها ولا أصل لها، فعلم الناس أنه كذب على الأولى لما ذكر الثانية. وشبب أبو دهبل الجمحي أيضًا بابنة معاوية فعامله باللين وقطع لسانه بالعطاء.[٢٦]

فقس على ذلك سائر خلفاء بني أمية وأمرائهم، مما يدل على غلبة طبائع البدو في الأمويين، مع أخذهم بأطراف المدنية واختلاطهم بالأمم الأخرى وقربهم من أسباب القصف، وكأن تلك الأسباب أخذت بعقول الشعراء فلم يكونوا يقعدون عن التشبيب مع تعرضهم للخطر، وقلما كان يجسر على ذلك غير القرشيين، وأكثرهم جسارة عمر بن أبي ربيعة المتقدم ذكره، فإنه كان يصطحب ابن سريج المغني فيركبان على نجيبين ويلقيان الحاج فيعرضان للنساء وينشدان الأشعار لا يبالون أن تكون فيهن بنت الخليفة أو امرأته.

والظاهر أنهم لم يكونوا يفعلون ذلك إلا لما يرون من ارتياح النساء إليه؛ لأن المرأة تفتخر بأن يثني الشعراء على جمالها وإن لم يرض أهلها، فقد كان لعبد الملك بن مروان

بنت أرادت الحج فخاف أن يشبب بها ابن أبي ربيعة، فاستكتب الحجاج إليه إن هو فعل ذلك أصابه بكل مكروه، فلما قضت حجها خرجت فمر بها رجل فقالت له: «من أنت؟» فقال: «من أهل مكة.» قالت: «عليك وعلى أهل بلدك لعنة الله!» قال: «ولِمَ ذاك؟» قالت: «حججت فدخلت مكة ومعي من الجواري ما لم تر الأعين مثلهن فلم يستطع الفاسق ابن أبي ربيعة أن يزودنا من شعره أبياتًا نلهو بها في الطريق من سفرنا.» قال: «إني لا أراه إلا قد فعل.» قالت: «فأتنا بشيء إن كان قاله، ولك بكل بيت عشرة دنانير.» فمضى إليه فأخبره فقال: «لقد فعلت ولكن أحب أن تكتم عليَّ.» وأنشده قصيدة قالها فيها.[٢٧]

وممن اشتهر بتعرضه للنساء والتشبيب بهن في ذلك العصر الأحوص، كان يشبب بنساء ذوات أخطار من أهل المدينة فشكوه إلى سليمان بن عبد الملك فأمر بالقبض عليه وجلده ثم نفاه.[٢٨] ووضاح اليمن، كان يشبب بأم البنين امرأة الوليد بن عبد الملك، وهم الوليد بقتله فمنعه ابنه عبد العزيز وقال: «إن قتلته فضحتني وحققت قوله وتوهم الناس أن بينه وبين أمي ريبة.» فأمسك عنه على غيظ وحنق، حتى بلغه أنه تعدى أم البنين إلى أخته فاطمة بنت عبد الملك، وكانت زوجة عمر بن عبد العزيز وقال فيها:

بنت الخليفة والخليفة جدها أخت الخليفة والخليفة بعلها
فرحت قوابلها بها وتباشرت وكذاك كانوا في المسرة أهلها

فاحتنق واشتد غيظه وقال: «أما لهذا الكلب مزدجر عن ذكر نسائنا وأخواتنا ولا له عنا مذهب؟» ثم دعا به فأحضر وأمر ببئر فحفرت ودفنه فيها حيًّا.[٢٩]

فكانت أيام بني أمية من حيث العفة والغيرة عصر انتقال من البداوة إلى الحضارة، فلما انقضى عصر الأمويين ذهب ما بقي من سذاجة البداوة في طبائع العرب، واستسلم الناس للترف والرخاء وضعفت الغيرة وأبيح التشبيب وشاع على ألسنة الشعراء، حتى صاروا يصدرون به قصائد المدح والفخر، وكان الخلفاء الأولون من بني العباس لا يزالون على مقربة من البداوة فأنكروا ذلك ونهوا عنه، ومن أشدهم غيرة المهدي بن المنصور فإن بشارًا أنشده مديحًا فيه تشبيب فنهاه عن التشبيب البتة،[٣٠] فظل التشبيب مستقبحًا حتى أباحه الرشيد وألح في نظمه،[٣١] فآل ذلك طبعًا إلى ضعف الغيرة.

(٣) الآداب الاجتماعية في العصر العباسي

قد رأيت ما أصاب المناقب العربية الفطرية من التغير بعد الإسلام، بما طرأ عليها من عوامل الحضارة والانغماس في الرخاء والقصف والاختلاط بأهل المدن، فغلبت عليهم الضعة وركنوا إلى بسطة العيش والتنعم بمطالب الحياة المادية، وزادهم العلم والفلسفة والطب تباعدًا عن البداوة وخشونتها وسذاجتها، وقضت سياسة العباسيين بمراعاة الفرس وغيرهم ممن نصروهم في قيام دولتهم وتشتيت شمل العرب، فذهبت العصبية العربية، واستلزمت رغبتهم في بقاء دولتهم العدول إلى الفتك والغدر على ما فصلناه في الجزء الرابع، فذهبت مناقب العرب ولم يبق من الوفاء والشجاعة والاستقلال والأنفة والعصبية والنجدة إلا آثار ضعيفة.

(٣-١) المرأة في العصر العباسي

وآل تكاثر الجواري وشيوع التسري إلى ذهاب الغيرة من قلوب الرجال، حتى صاروا يتهادون الجواري الروميات والتركيات والفارسيات وهن أجمل صورة وأشرق وجهًا من نساء العرب، فبعد أن كان الرجل لا يعرف غير امرأته والمرأة لا تفكر في غير زوجها وهي واثقة بأمانته، إذا هو قد تشتتت عواطفه بين عدة نساء فقلت غيرته عليها، ولما رأته مشغولًا عنها قلت ثقتها به إلا من عصمها عقلها وشرفها، فلم ينضج التمدن في العصر العباسي حتى تنوسيت المرأة العربية في المدن، وذهبت حريتها وغيرتها وصارت هي نفسها تهدي زوجها الجارية وتحبب إليه القرب منها، لا يهمها ذلك ولا تغار منه،[٣٢] وبعد أن كان العرب في الجاهلية وصدر الإسلام إذا علموا بحب رجل فتاة منعوه من زواجها صاروا يساعدونه في الحصول عليها.[٣٣]

فأفضى ذلك إلى انحطاط المرأة وذهاب عزة نفسها واستقلال فكرها، فاحتقرها الرجل وأساء الظن بها وصار يعدها عدوة له، ويوصي بعدم الإركان إليها، فيعاشرها على غل وسوء رأي، يقفل عليها الأبواب والنوافذ، ويسد في وجهها الطرق والمسالك، ويمنعها من الخروج أو الكلام، وهو صاحب الذنب في انحطاطها، فأصبح الطعن في طباع المرأة وسوء سريرتها شائعًا على ألسنة الناس، حتى ألفوا فيه الروايات والأقاصيص ونظموا الشعر، وتفننوا في وضع الجمل الحكمية والعبارات البليغة في تحذير الناس من المرأة وعدم الوثوق بها، وهذه هي قصة ألف ليلة وليلة تمثل حال المرأة في الأعصر الإسلامية

الوسطى، بعد شيوع التسري وانغماس المسلمين في الترف، وأما الأشعار فإليك ما قاله أبو العلاء المعري:

إذا بلغ الوليد لديك عشرًا فلا يدخل على الحرم الوليد
وإن خالفتني وأضعت نصحي فأنت، وإن رزقت حجي، بليد
ألا إن النساء حبال غي بهن يضيع الشرف التليد[٣٤]

وأصبح الكاتب إذا أراد تعزية صديق على فقد بنت له قال ما قاله أبو بكر الخوارزمي، إذ كتب إلى رئيس بهراه يعزيه في بنته وهو قوله:

ولولا ما ذكرته من سترها ووقفت عليه من غرائب أمرها، لكنت إلى التهنئة أقرب من التعزية، فإن ستر العورات من الحسنات، ودفن البنات من المكرمات، ونحن في زمان إذا قدم أحدنا فيه الحرمة فقد استكمل النعمة، وإذا زف كريمة إلى القبر، فقد بلغ أمنيته من الصهر، قال الشاعر:

ولم أر نعمة شملت كريمًا كنعمة عورة سترت بقبر

وقال آخر:

تهوى حياتي وأهوى موتها شفقًا والموت أكرم نزال على الحرم

وقال آخر:

وددت بنيتي وودت أني وضعت بنيتي في لحد قبر

وقال آخر:

ومن غاية المجد والمكرمات بقاء البنين وموت البنات

وقال آخر:

سميتها إذ ولدت تموت   والقبر صهر ضامن وبيت[35]

هذا مثال من آراء أدباء المسلمين وشعرائهم في المرأة بين القرنين الرابع والخامس للهجرة.

فلم يبق من المناقب العربية في العصر العباسي إلا السخاء؛ لأنه كان لازمًا لقوام الدولة وسلامتها وتأييدها، بل هو كان من أهم قواعد الارتزاق في ذلك العصر.

(٣-٢) الارتزاق بالسخاء

إن الارتزاق في التمدن الحديث مبني على قواعد اقتصادية عمرانية تحفظ توازن القوى ونتائجها، فينال الإنسان من رزقه على مقدار كده وجده مع اعتبار درجة عقله وذكائه، سواء كان ذلك بالتجارة أو الزراعة أو الصناعة أو غيرها، وقد وضعوا لكل من أبواب الرزق قواعد في تقدير الأرباح لا تتعداها إلا في أحوال خاصة ترتفع فيها الأسعار فجأة كما حدث بمصر لهذا العهد (حوالي ١٩١٠)، وعلى أي حال فالصانع تقدر أجرته بمقدار عمله، والتاجر يقدر ربحه بنسبة رأس ماله.

أما في التمدن الإسلامي فقد كان الارتزاق يقرب من ذلك في طبقة العامة من المزارعين والباعة وأهل الصناعات، وأما في الخاصة وأتباعهم فكان على أسلوب آخر لا مثيل له بين المتمدنين في هذا العصر، ومداره «السخاء» المتسلسل من الخلفاء فالوزراء فمن بعدهم ممن يعيشون حول البلاط ويرتزقون من رجال الدولة، ومصدر هذه الأرزاق بيت المال، وهو في قبضة الخليفة أو من يقوم مقامه من الوزراء أو القواد أو الأمراء على حسب أطوار النفوذ، والأموال تأتي بيت المال من جباية الخراج والجزية، وقد رأيت في الجزء الثاني من هذا الكتاب أن متوسط جباية الدولة في العصر العباسي الأول بلغ نحو ٣٦٠ مليون درهم في العام، لا ينفق منها على مصالح الدولة أكثر من ٥٠ مليونًا، فالباقي ٣٠٠٠٠٠٠٠٠ درهم تبقى في بيت المال تحت تصرف الخليفة، وأكثرها من جباية الخراج، وكان الخراج في العصر المذكور ثقيلًا؛ لأنهم كانوا يقاسمون الناس غلاتهم بالنصف أو الثلث، وذلك في نظر أهل هذا الزمان ظلم، ولكن أهل ذلك العصر لم يشعروا بثقله بل كانوا يعدونه رفقًا؛ لأن العباسيين نقلوا الخراج من المساحة إلى المقاسمة، فبعد

أن كان الحكام قبلهم يقتضون خراج الأرض زرعت أم لم تزرع، حصروا الخارج في الأرض المزروعة وجعلوه شطرًا من غلتها.[٣٦]

سنة العرب في الارتزاق

والأموال التي تبقى في خزانة الدولة يُعطى بعضها رواتب لموظفيها، ويفرق سائرها فيمن بقي من الخاصة بين جوائز ورواتب، فتتسع أحوالهم بالجاه أكثر منها بالمال، فيضطرون إلى الإنفاق لحفظ مقامهم، فينفقون على من يتعلق بهم، فينتقل المال على هذه الصورة من الخليفة ووزرائه وعماله إلى حواشيهم وأتباعهم، ومن هؤلاء إلى الباعة وأهل الأسواق فيعود إلى العامة كأنه لم يُؤخذ منهم، وهي سنة في الارتزاق تظهر لأول وهلة أنها من خصائص التمدن الإسلامي، ولكنها كانت على نحو ذلك في التمدن القديم، فأهل أثينا وهم خاصة اليونانيين كانوا لا يعملون عملًا ولا يحترفون حرفة في سبيل الرزق، وإنما كانت أرزاقهم من خزانة الدولة يتناولونها رواتب في أوقات معينة، أو هبات في أوقات غير معينة، على مقتضيات الأحوال أو على ما يلحقهم من الغنائم ونحوها، ولم يكن لهم شغل غير سماع الخطب السياسية أو العلمية والتمشي في حدائق المدينة وحضور الاحتفالات الرسمية ونحوها،[٣٧] ولكن ذلك كان محصورًا في أثينا أو غيرها من العواصم الكبرى، أما المسلمون فتوسعوا فيه حتى شمل كل مدينة وكل طبقة، لتمكن السخاء في نفس العربي، ولأن هذه السنة كانت شائعة عند العرب من أيام الجاهلية، فأمير القبيلة كان يغزو بقبيلته، فما وقع له من مال وماشية فرقه في كبار رجاله، وهؤلاء يفرقونه في أهلهم وأتباعهم، ولذلك ذكروا من سنن العرب في الارتزاق أنهم «نهابون وهابون» وكان العرب يكرهون اختزان الأموال ويعدونه قبيحًا.[٣٨]

والسبب في بقاء هذه السنة مع ذهاب غيرها من المناقب، أنها لازمة لبقاء الدول في تلك العصور، وخصوصًا في الإسلام منذ طمع بنو أمية في الخلافة واستخدموا الأموال في ابتياع الأحزاب واسترضاء كبار الرجال، فعودوا الناس العطاء، فلما قام العباسيون لم يستطيعوا الرجوع عنه، بل تجاوزوه من بعض الوجوه، فصار السخاء ضروريًّا لقيام الدولة وإلا فسد عليها حماتها وتمرد أهلها.

وكان الصحابة في عصر الراشدين لا يرون اختزان المال، جريًا على سنة العرب أو عملًا بحديث رواه قيس بن عاصم بهذا المعنى وهو قول النبي ﷺ: «نعم المال الأربعون، والأكثر الستون، وويل لأصحاب المئين.»[٣٩] ولذلك كان الخلفاء الراشدون لا يبقون في

بيت المال شيئًا، على أن المسلمين في أيامهم كانوا مشتغلين بما بين أيديهم من الغنائم، وكانوا لا يزالون في دهشة النبوة والإخلاص في الجهاد والخراج في أيامهم معتدل، فلم يكن يفيض منه شيء كثير، فلما طمع الأمويون في الملك اتخذوا كل وسيلة لجمع المال والاستكثار منه، وزادوا أعطيات الجند ووهبوا وأجازوا، وضاعفوا رواتب أبناء الصحابة وغيرهم من القرشيين أصحاب النفوذ، فكان هؤلاء يتوسعون في الإنفاق ببناء القصور واقتناء الخدم والجواري، ويهبون الشعراء والندماء والحاشية والأتباع فيذهب ذلك المال كما أتى.

كذلك كان يفعل عبد الله بن عباس وعبد الله بن جعفر وسعيد بن العاص[٤٠] فيفد أحدهم على معاوية أو يزيد فيؤدي له عطاءه، وربما أهداه هدية سنية، فيعود إلى بلده ويفرق المال جميعه في أهله وأعوانه،[٤١] وكان الخلفاء يعرفون ذلك، ويعدون عطاءهم لهؤلاء عطاء لأهل المدينة،[٤٢] وليس ذلك خاصًّا بفئة منهم، بل كان شاملًا الأكثرين، حتى النساء من بنات الصحابة كسكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة وغيرهما، فكانت عائشة هذه تفد على الخليفة وربما كانت في ضيق، فتشكوا إليه فراغ يدها فيأمر لها بمائة ألف درهم مثلًا، فلما تعود إلى الحجاز يأتيها الشاعر أو الفارس فتعطيه الألف بعد الألف حتى تستنفد ما جاءت به،[٤٣] حتى الشعراء كانوا يبذلون بعض جوائزهم فيمن حولهم، ولذلك كانوا مع كثرة ما يصل إلى أيديهم من المال لا يزالون مدينين ويموت أكثرهم فقراء.[٤٤]

ولما أفضى الأمر إلى العباسيين ساروا على هذه السنة في الأعطيات والجوائز، وزادوا مقاديرها لتوفر الثروة في أيامهم، وكان أصحابهم يفرقونها في الناس، فموسى الكاظم كان يقيم في المدينة ويفد على بغداد فيرده المهدي مثقلًا بالأموال، فلما يصل إلى المدينة يجعلها صررًا يفرقها في أهلها،[٤٥] وكانوا يفعلون ذلك مع العمال والكتاب والشعراء والمغنين، وهؤلاء ينفقون المال بالسخاء على تفاوت في درجاته وسائر أحواله، وربما أنفقوا بعضه في حاشية الخليفة أو غلمانه،[٤٦] ليسهلوا لهم الدخول عليه.

استرضاء العامة بالطعام

فكان الخلفاء أو الأمراء يعدون السخاء على العامة والخاصة فرضًا يؤيدون به سلطتهم، أما العامة فكانوا يسترضونهم بأبسط أساليب السخاء وهو الضيافة، فكانوا ينصبون لهم الموائد يدعونهم إلى الطعام، فيجتمع على مائدة الأمير ألوف من العامة يأكلون معًا

صباحًا ومساء، ذلك كان دأبهم من عصر الراشدين، جروا به على سنة العرب ثم احتاجوا إليه بعد الإسلام في استرضاء القبائل المختلفة، فبالغوا فيه حتى نصبوا الموائد على الطرق، وأول من فعل ذلك عبيد الله بن عباس،[٤٧] واشتهر في صدر الإسلام غير واحد من الأجواد ممن كانوا يقبضون الأعطية الكبيرة من خلفاء بني أمية فينفقونها في البذل والسخاء، وقد تقدم ذكر بعضهم.

وجرى الدهاة من عمال الأمويين على هذه السنة، فنصبوا الموائد على الطرق، فكان الحجاج يضع في كل يوم من أيام رمضان ألف خوان، وفي سائر الأيام خمسمائة خوان، على خوان عشرة أنفس وعشرة ألوان وسمكة مشوية طرية وأرزة بسكر، وكان يدور هو بنفسه على الموائد يتفقدها، يحملونه إليها في محفة وينتقلون به من خوان إلى خوان، فإذا رأى أرزة ليس عليها سكر أمر الخباز أن يجيء بسكرها، فإذا أبطأ حتى أُكلت الأرزة بلا سكر أمر به فضُرب ٢٠٠ سوط، وكذلك كان يفعل عمال الحجاج في سائر المدن، فكان بعضهم ينصب الموائد مرتين في اليوم للغداء والعشاء.[٤٨] وكان يوسف بن عمر عامل هشام بن عبد الملك ينصب خمسمائة خوان،[٤٩] وكان يزيد بن هبيرة يضع ألف خوان يطعم الناس[٥٠] وقس على ذلك سائر العمال وغيرهم، كابن طولون بمصر، فقد كانت له موائد يحضرها الخاص والعام،[٥١] وربما فرقوا الطعام بلا موائد كما كان يفعل لؤلؤ الحاجب في أيام الفاطميين بمصر، فإنه كان يفرق ١٢٠٠ رغيف مع قدر الطعام كل يوم، وإذا دخل رمضان أضعف ذلك ويقف هو بنفسه ليفرقه،[٥٢] هذا غير ما كانوا يبذلونه في استرضاء العامة من الأموال على سبيل الصدقة، فكان لكل من الخلفاء والأمراء والوزراء مال ينفقه صدقة كل يوم، على ما قدمناه في الجزء الثاني من الكتاب، وربما فعل بعضهم ذلك لمجرد الرغبة في الأجر أو عملًا بمقتضى الأريحية.

وإطعام العامة على هذه الصورة لم يكن خاصًّا بالمسلمين، وإنما هو أيضًا من سنن الأعصر الغابرة، فقد كان العامة في رومية يعيشون من أطعمة يفرقها فيهم أهل الدولة من الدقيق واللحم، وكان بعض ملوك الفرس ينصب ٥٠٠ مائدة يجعل على كل واحدة نصف شاة وجام حلوى أو عسل وعشرة أرغفة وآنية شراب أو لبن وسمكة مصنوعة،[٥٣] والمسلمون جروا على هذا الترتيب اقتداء بالفرس، مثل اقتدائهم بهم في كثير من آدابهم الاجتماعية.

وأما الخاصة أو من جرى مجراهم من المقربين غير الموظفين، فكان الخلفاء يهبونهم الهبات أو يعينون لهم الرواتب لتقييد إرادتهم[٥٤] كما تقدم، ولذلك كان أهل الأنفة يكرهون صلات الخلفاء ويبعدون عن جوائزهم رغبة في الاستقلال، وأكثر ما يقع ذلك لأهل البادية الذين لم تذلهم الحضارة، ولا سيما بعد نكبة البرامكة، فقد طال حديث الناس يومئذ بأمرهم وغلب على اعتقادهم أن من يثري من هبات الخلفاء تكون حياته في خطر؛ ذكروا بدويًّا عيرته امرأته بفقره لبعده عن جوائز الخلفاء إلى أن قالت: «هذا فلان قد أخذ الأموال فحلى نساءه وبنى داره واشترى ضياعًا، وأنت ههنا كما ترى ...» وكانت امرأته باهلية فأنشأ يقول:

تلوم على ترك الغنى باهلية ... ذوى الفقر عنها كل طرف وتالد
رأت حولها النسوان يرفلن في الثرا ... مقلدة أعناقها بالقلائد
أسرك أني نلت ما نال جعفر ... من العيش أو ما نال يحيى بن خالد؟
وأن أمير المؤمنين أغصني ... بغصهما بالمشرفات النوارد؟
رأيت رفيعات الأمور مشوبة ... بمستودعات في بطون الأساود
دعيني تجيء منيتي مطمئنة ... ولم أتجشم هول تلك الموارد[٥٥]

الهبات والدين

على أن الفقهاء وأهل التقوى كانوا في صدر الإسلام وأوائل دولة بني أمية يعدون صلات الخلفاء رشوة ويترددون في قبولها، فما لبثوا أن ذاقوا حلاوتها حتى صاروا يتفاخرون بنيلها، قال ذو الرمة:

وما كان مالي من تراث ورثته ... ولا دية كانت ولا كسب مأتم
ولكن عطاء الله من كل رحلة ... إلى كل محجوب السرادق خضرم[٥٦]

ثم صاروا يتزلفون إلى أصحاب الأموال ويستنجدونهم رغبة في الارتزاق، فبعضهم ينال رزقه صلة أو جائزة، وآخرون يقبضونه راتبًا معينًا، وهؤلاء على الغالب من أهل البأساء وأيتامهم وأراملهم،[٥٧] أو زعماء القبائل ورؤساء الأحزاب على ما يوافق مصلحة الخليفة والأمير أو يتوسم فيه الأجر والثواب، فكان بعضهم يفرض الفروض لأولاد

الأنصار والمهاجرين، وغيره يعطي العلويين أو الطالبيين، وغيره يعطي قريشًا أو اليمن، وقس عليه، فكان ابن عيسى وزير المقتدر يعطي الطالبيين والعباسيين وأبناء الأنصار،[٥٨] وكان ابن الفرات يعطي الفقهاء والعلماء والفقراء وأهل البيوتات، أكثرهم مائة دينار في الشهر وأقلهم خمسة دراهم وما بين ذلك،[٥٩] وكان لكافور الإخشيدي بمصر مال خاص يجري منه الأرزاق على من يأتيه ناقمًا على الخليفة ببغداد أو غيره.[٦٠]

ولهذه الأسباب كان الخلفاء يستحلون إجازة الشعراء وغيرهم من بيت المال؛ لأنهم يعدون ذلك في سبيل مصلحة الدولة وإن لم يصرحوا به دفاعًا عن أنفسهم، بل كانوا إذا سمعوا الانتقاد عليهم من أهل النفوذ الديني سكتوا واسترضوهم ودافعوا عن أنفسهم، كما فعل الرشيد والمهدي بسفيان الثوري.[٦١]

ارتزاق الكبير من الصغير

ذلك ما يقال في ارتزاق الصغير من الكبير في التمدن الإسلامي، أما ارتزاق الكبير من الصغير فقد كان بعضه بالسخاء أيضًا، ولكن على سبيل الهدية، فيعدون عطية الأمير إلى الصغير جائزة أو صلة، ويسمونه ما يقدمه الأصاغر إلى الأمير والوزير هدية، وكانت الهدايا شائعة على الخصوص في العصر العباسي، فإذا تولى الأمير على بلد فأول ما يدخلها يبعث أهلها إليه بالهدايا من الأموال والجواري والدواب والثياب،[٦٢] وهو يبعث إلى الوزير الذي ولاه أو الخليفة بالأموال بسبيل الهدية أيضًا، وإذا طال مقامه أصبحت تلك الهدايا فرضًا واجبًا يبعث بها كل سنة، فإذا أمسكها سنة عدوا إمساكه تمردًا.[٦٣]

فالسخاء كان سنة عامة في عهد ذلك التمدن، لا يستثنى عنه عصر أو طائفة، وإن تفاوتت مقاديره واختلفت صوره وأشكاله باختلاف العصور، فكانت العطايا في أول عهد الأمويين الإبل والخيل والماشية، فيأمر الخليفة أو الأمير لمن يستجديه بلقحة وفحلها وراعيها، أو جارية وفرس، غير ما فرضوه من الأعطيات فإنها كانت تعطى عينًا أو ورقًا، ثم صارت في أواسط الدولة تخوت الثياب من الوشي ونحوه والوصائف فضلًا عن النقود، وصارت في بني العباس البدر من الدنانير وعقود الجوهر وتخوت الديبقي والقصور والضياع وغيرها.

(٣-٣) المجاملة في المعاملة

المجاملة من الطباع الراسخة في نفوس العرب، وذهب بعض الباحثين إلى أنها فطرية في أصل أرومتهم، وما هي كذلك وإنما تولدت فيهم بتوالي الأجيال وتقلب الأحوال؛ لأن العرب كانوا مفطورين على استقلال الفكر وحرية الرأي كما رأيت، وظلوا على ذلك إلى انقضاء عصر الراشدين، ثم أخذت أفكارهم في الانحباس وعقولهم في التقيد من عصر الأمويين، لما اقتضاه طمع بني أمية في الملك من الشدة والحيلة، فاضطر الناس للمداجاة والتمويه، وكان الخلفاء من الجهة الأخرى يداجون الناس ويجاملونهم، رغبة في نصرتهم أو قطع ألسنتهم ويعدون ذلك «حلمًا».

وأشهر الحلماء وأقدمهم معاوية بن أبي سفيان، فقد ذكرنا في الجزء الرابع أنه كان يسمع طعن أهل البيت وغيرهم من رؤساء الأحزاب فيه وفي دولته ويغضي، وربما أحسن إلى الطاعنين أو تظاهر بالاستخفاف، كما فعل بشعبة بن غريض، وكان في الكعبة ومعاوية هناك، فبعث يدعوه فأتاه رسوله فقال: «أجب أمير المؤمنين.»

قال: «أوليس قد مات أمير المؤمنين؟» (يعني عليًّا) فقال له: «أجب معاوية.» فأتاه ولم يسلم عليه بالخلافة، فقال له معاوية: «ما فعلت أرضك التي بتيماء؟» قال: «يكسى منها العاري ويرد فضلها على الجار.» قال: «أتبيعها؟» قال: «نعم.» قال: «بكم؟» قال: «بستين ألف دينار، ولولا خلة أصابت الحي لم أبعها.» قال: «لقد أغليت.» قال: «أما لو كانت لبعض أصحابك لأخذتها بستمائة ألف دينار ثم لم تبال.» قال: «أجل وإذ بخلت بأرضك فأنشدني شعر أبيك يرثي نفسه.»

فأنشده تلك الأبيات فأعجب بها معاوية وقال: «أنا كنت بهذا الشعر أولى من أبيك.» قال: «كذبت ولؤمت!» قال: «أما كذبت فنعم، وأما لؤمت فلِمَ؟» قال: «لأنك كنت ميت الحق في الجاهلية وميته في الإسلام، أما في الجاهلية فقاتلت النبي ﷺ والوحي حتى جعل الله كيدك المردود، وأما في الإسلام فمنعت ولد رسول الله الخلافة، وما أنت وهي أنت طليق ابن طليق؟» فقال معاوية: «قد خرف الشيخ فأقيموه.» فأُخذ بيده فأقيم.

وكان معاوية إذا أعجزه اصطناع الأحزاب بالعطاء أو بالحلم أو بالسيف جهارًا عمد إلى قتلهم غيلة، وكان أنصاره يعرفون ذلك فيه وأنه يصانعهم ليغلب بهم، فكانوا يصانعونه طمعًا في مال أو منصب، فكانت المصانعة والمداجاة أساس سياسة معاوية، وقد قواهما واستثمرهما بدهائه وحزمه ففاز، وتحدث المسلمون بحلمه وسعة صدره

وجعلوه قدوتهم، والناس على دين ملوكهم، فكثر الميل إلى المصانعة في ذلك العصر، وهي على الغالب بين الدولة ورجالها، على أن الأريحية كانت تحول دون تمكنها.

فلما قام الفرس لمناهضة الأمويين ونصرة العباسيين أغضى أبو مسلم عن الوفاء والأريحية وقتل على التهمة، فأصبح الناس يخافون على حياتهم وإن لم يقترفوا ذنبًا، فزادت حاجتهم إلى المصانعة، ولما فاز أبو مسلم بحزبه وسلم مقاليد الدولة إلى العباسيين، كانت فوضى بينهم وبين العلويين، فلما تقلدها المنصور وطمع في استخلاصها للعباسيين فتك بأبي مسلم ثم قتل من قتله من العلويين، وهم لا يستغنون عن الفرس لنظام حكومتهم وحماية دولتهم، فاستخدموهم على غل ولجئوا في الاحتراس منهم واتقاء أذاهم إلى الجاسوسية، فبثوا الأرصاد على وزرائهم وعمالهم، يستطلعون أخبارهم ويبعثون بها إليهم سرًّا، والأرصاد نوعان؛ الأول: أصحاب البريد في الأطراف والعمال يعلمون أنهم رقباء على أعمالهم، والثاني: العيون الخفية يتخذونهم من الجواري والغلمان مما يقدمه الخليفة هدية إلى وزيره أو عامله، فيوليهم الوزير بعض شئون منزله فيدخلون في جملة الندماء أو المغنين أو القيان أو أصحاب الشراب، ويكونون رقباء عليه ينقلون أخباره سرًّا إلى الخليفة، وكان الوزراء يفعلون نحو ذلك بالخلفاء.

فشيوع الجاسوسية على هذه الصورة مع المضاغنة والتحاسد بعث على المصانعة والمجاملة، وازداد ذلك على الخصوص بعد ذهاب الأريحية وزوال الأنفة وعزة النفس من العرب، على أثر تضعضع العنصر العربي وتغلب العناصر الأعجمية مع تنافس أصحاب المطامع من هؤلاء في أواسط الدولة العباسية بابتزاز الأموال، واعتبر ما عقب ذلك من الاستبداد والظلم بعد أن فسدت الأحكام في الدولة الإسلامية واستبد السلاطين والأمراء غير العرب بمن أقام في ممالكهم من أهل اللسان العربي، ويسمونهم عربًا وهم أخلاط من مولدي الأمم الأخرى، فلجأ هؤلاء بطبيعة العمران إلى المجاملة والمصانعة على نحو ما هو حالهم اليوم، إلا الذين أوتوا السيادة وتوفرت لهم السطوة ونفوذ الكلمة أجيالًا متوالية.

(٣-٤) العائلة في التمدن الإسلامي

كانت العائلة في أواسط التمدن الإسلامي نحو ما هي عليه اليوم، وقوامها المرأة وقد تقدم الكلام عليها، فلا نطيل القول في ذلك الآن، وإنما نقول كلمة في بعض خصائص العائلة الإسلامية، كالحجاب وتعدد الزوجات والطلاق.

الحجاب

إذا كان المراد بالحجاب ستر العورة كالخمار ونحوه، فهو ليس من محدثات الإسلام، بل هو قديم كان شائعًا قبل النصرانية، ولم تغير النصرانية شيئًا منه، وظل معروفًا في أوربا إلى العصور الوسطى وما بعدها، ولا تزال آثاره باقية في أوربا إلى الآن.

وإذا أريد به حبس المرأة في بيتها ومنعها من مخالطة الناس، فهو من ثمار التمدن الإسلامي؛ لأنه لم يكن شائعًا قبله، على أنه لم يبلغ الحد الذي بلغ إليه من الشدة والدقة، إلا بعد نضج المدنية وتمكن الحضارة من نفوس المسلمين وإركانهم إلى الترف والرخاء، وقد رأيت في كلامنا عن المرأة البدوية أنها كانت مساوية للرجل حتى نبغ من مضارب البادية نساء اشتهرن بالشجاعة والإقدام والحزم والرأي والتجارة والأدب والشعر وغيرها، فلما انتشر الإسلام وكثرت الجواري وشاع التسري في المسلمين اختلفت الظنون بين الرجل والمرأة، فقلت غيرته عليها وأساء كل منهما الظن في صاحبه، والرجل صاحب العصمة ورب العائلة، فضيق على المرأة الدروب وأقام عليها الأرصاد والعيون من أوائل الدولة الأموية، إذ اتخذوا الخصيان من العبيد ثم استقدموا الصقالبة البيض.

فالحجاب الضيق على نحو ما شاع بين العائلات الإسلامية في الشرق سببه سوء ظن الرجل واستبداده بأهل بيته واستئثاره بالملذات لنفسه، وليس هو من مقتضيات الإسلام كما يتبادر إلى الأذهان، ولو راجعت ما جاء في القرآن الكريم من هذا القبيل لرأيت تفسير أقرب إلى ما يراد من رفع الحجاب، ولكن الناس تعودوا أن يفسروا الآيات القرآنية بما يوافق عاداتهم أو أغراضهم أو أميالهم، اعتبر ذلك في كل دين تمدن أهله وعمدوا إلى تفسير كتبه، فكتب النصارى مثلًا ليس فيها نص صريح يمنع عامتهم من التزوج بامرأتين فأكثر، ولكن الكنيسة رأت أن الاقتصار على امرأة أقرب إلى سعادة العائلة ونظام الاجتماع، فاستخرج رؤساء الدين ذلك من بعض القرائن بالتفسير والتأويل، والمسلمون لما استكثروا من الجواري وساءت الظنون بينهم وبين نسائهم أرادوا الحجر عليهن، ولم يعدموا تفسيرًا يساعدهم على ما أرادوا فحبسوهن وضيقوا عليهن، واعتقدت المرأة بتوالي الأجيال أنه يحل للرجل ما لا يحل لها، فصبرت عليه وخافته ولكنها لم تحبه، فخافها وحبسها وجعل بينه وبينها حاجزًا، وغادرها تجالس الخدم والعبيد، وأصبح لا يؤاكلها ولا يجالسها ولا يحادثها إلا نادرًا، وأعلن ارتيابه في أمانتها وأصبح يفتخر بأنها لا تخرج من منزلها إلا إلى القبر.

على أن ظلم المرأة على هذه الصورة واحتقارها مخالف لتعاليم القرآن؛ لأنه يأمر بالمودة والرحمة بين الزوجين، وهذا نص الآية ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ

أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾، وقوله: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾، وقوله: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾، ولكن الرجل أبى إلا الاستبداد والاستئثار ولا سيما بعد انقضاء عصر العلم، إذ اقتصر الفقهاء على النظر في الأبحاث الدينية الجديدة، وخيم الجهل على العقول كما أصاب النصرانية في الأجيال المظلمة، فأخذوا يفسرون الآيات والأحاديث على ما يوافق ميولهم وأهواءهم، وكانت الأحكام قد فسدت واستبد الحكام في الناس فعادت عاقبة ذلك على المرأة المسكينة.

لأن الرجل في طور الظلم يتحمل بطش الحاكم وعسفه ويكظم ما في نفسه، حتى إذا جاء منزله عامل أهله مثل معاملة الحاكم له انتقامًا لنفسه ... تلك سنة من سنن العمران على اختلاف أطوار التمدن، فالبلاد التي يتولاها حاكم ظالم يقتدي به أرباب العائلات بظلم نسائهم وأولادهم، وأما في الحكم العادل فالمرأة تنال حقوقها والرجل يعدل في حكومته، فالبيت دولة صغيرة تمثل دولة الأمة.

وما زالت المرأة المسلمة في نحو ما تقدم إلى أوائل هذه النهضة والمسلمون سكوت، حتى تصدى بعض أرباب الأقلام من المسلمين في أواسط القرن الماضي ونددوا بالحجاب وعواقبه وحرضوا إخوانهم على تركه، وأقدم من فعل ذلك على ما نعلم المرحوم الشيخ أحمد فارس الشدياق فكتب الفصول الضافية في «الجوائب» بالأستانة، ثم كتب غيره فصولًا لا تشفي غليلًا، حتى ظهر كتاب تحرير المرأة في آخر القرن المذكور لصاحبه قاسم بك أمين فوفى الموضوع حقه، ولم يترك مجالًا لسائل.

تعدد الزوجات

ومن آفات العائلة الإسلامية تعدد الزوجات، وهي أن يتخذ الرجل زوجتين إلى أربع، والشرع الإسلامي يجيز له ذلك بشرط إذا روعي حق مراعاته لم يتخذ الرجل إلا زوجة واحدة؛ لأن الآية التي تجيز تعدد الزوجات تشترط أن يعدل الرجل بينهن، فإذا خاف ألا يعدل فيقتصر على واحدة، وهذا نص الآية: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾، وفي محل آخر: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾، فإذا جمعت بين الآيتين رأيت فحواهما أقرب إلى النهي عن تعدد الزوجات منه إلى الأمر به، ولذلك رأيت الغالب في العقلاء وأهل المروءة أن يكتفوا بزوجة واحدة، وكان ذلك سهلًا في عصر التسري، إذ قد يأتي النسل من بعض الجواري فلا يجد الرجل ضرورة إلى الزواج ثانية أو ثالثة

اكتفاء بجواريه، ومن يأتينه بما يشتهيه من النسل، على أن تعدد الزوجات ظل متبعًا حتى في أهل الفضيلة والعقل إلى اليوم، ولكن على قلة، وإذا أُحصي المتزوجون بأكثر من امرأة لا نظنهم يزيدون على خمسة في المائة أو عشرة من مجموع المتزوجين، وهم في الغالب من العامة، وإذا كانوا من الخاصة فإنما فعلوا ذلك لأسباب قهرية.

ومن أجاز تعدد الزوجات ذهب إلى تفسير «العدل» بالعدل في النفقة لا في المحبة، على أن كثيرين من أهل الوجاهة والشرف في العصور الإسلامية الوسطى كانوا يجمعون بين التسري وتعدد الأزواج، والغالب أن تكون السيادة للمرأة الأولى وإن اختلف ذلك باختلاف الأحوال، ولكن المرأة العاقلة التقية كانت تعد إهداء زوجها ما يرضاه من الجواري الحسان فضيلة، كما فعلت أم جعفر بالرشيد لتشغله عن الجارية دنانير.

وقد تساعد المرأة التقية زوجها على الزواج بامرأة أخرى تتوقع من مسعاها في ذلك ثوابًا؛ روى الشيخ الجبرتي المؤرخ المصري عن إحدى أزواج أبيه قال: إنها كانت من الصالحات المصونات وكانت بارة بزوجها ومطيعة له، ومن جملة برها له أنها كانت تشتري له من السراري الحسان من مالها وتنظمهن بالحلي والملابس وتقدمهن إليه، وتعتقد حصول الأجر والثواب لها بذلك، وكان يتزوج عليها كثيرًا من الحرائر فلا يسوءها فعله، ولا يحصل عندها ما يحصل عند النساء من الغيرة.[٦٤]

الطلاق

ويقال عن الطلاق ما يقال عن تعدد الزوجات، فالعقلاء يذهبون إلى كره الطلاق بناء على بعض الآيات الواردة في هذا الشأن كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا﴾، وقوله: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾، وفي الحديث «أبغض الحلال عند الله الطلاق»، ومع ذلك كان بعض كبار الصحابة يكثرون منه إكثارًا مدهشًا، كما فعل الحسن بن علي بن أبي طالب فإنه تزوج ٢٥٠ امرأة وقيل: ٣٠٠، وكان أبوه يضجر من ذلك ويكرهه حياء من أهليهن، وكان يقول في خطبه: «إن حسنًا مطلاق فلا تزوجوه.» ويليه المغيرة بن شعبة فقد تزوج نحو هذا العدد.[٦٥] على أن الطلاق ما زال مكروهًا كما رأيت من كلام الإمام علي، وأهل الأنفة والفضل لا يطلقون إلا لعلة كبيرة أو عذر شرعي، ولو أحصيت حوادث الطلاق لرأيت أكثرها في طبقات العامة.

ومما ساعد على تكاثر حوادث الطلاق المبالغة في الحجاب، فيتزوج الشاب الفتاة وهو لم ير وجهها، فإذا لم توافقه هان عليه طلاقها؛ لأنه لم يرض الزواج على هذا الشرط إلا لعلمه بسهولة التخلص من زوجته إذا لم تعجبه، وهذا التضييق ليس من الدين في شيء، لورود عدة أحاديث تجيز للرجل أن يرى خطيبته قبل الزواج، وأحاديث تأمر برؤيتها صريحًا،[٦٦] فلو عملوا بذلك لقلت البواعث على الطلاق، على أن للطلاق في بعض الأحوال فوائد اجتماعية حرمت منها الطوائف التي لا طلاق عندها.

(٣-٥) المعيشة العائلية

الطعام:

كان طعام العرب قبل الإسلام قاصرًا على الألبان، وما يستخرج منها كالسمن والزبد والجبن، ومن التمر والحبوب واللحوم يأكلونها على أبسط ما يكون من أحوالها، كما يفعل أهل البادية اليوم، وأكثر ألبانهم ولحومهم من الإبل، وقد يصنعون منها أطعمة تتركب على نسب معينة، كالثريد فإنه يصنع من اللحم واللبن والخبز، ومنها ما يصنع من اللبن والدقيق فقط، كالرغيدة والرهيدة والعصيدة، أو يصنع من السمن والدقيق كالبكالة أو من الدقيق والعسل والسمن كالوضيعة، ولهم من أمثال هذه الأطعمة نحو أربعين لونًا.

ذلك هو طعام أهل اليسار منهم وأصحاب الضيافة، وأما الفقراء فقلما يأكلون لحم الإبل أو الضأن، وإنما كانوا يقتاتون بلحم الضب أو بالجراد، وإذا جاعوا أكلوا العلهز وهو وبر الإبل يمهونه بالحجارة في الدم فيطحنونه، وكان حال القرشيين قريبًا من ذلك،[٦٧] وربما أكلوا القرامة ونحاتة القرون والأظلاف والمناسب من برادتها، أو القرة وهي الدقيق المختلط بالشعر، وكانوا إذا عطشوا ولم يجدوا ماء، شربوا الفظ وهو عصارة الفرث أو المجدوح وهو مصل دم الإبل.[٦٨]

فلما جاء الإسلام وافتتحوا العراق وفارس ومصر دهشوا لما شاهدوه من حضارة الروم والفرس، ووقعوا على ألوان من الأطعمة لم يعرفوها، فأشكل عليهم أمرها وظفر بعضهم بجراب فيه كافور فأحضره إلى أصحابه فظنوه ملحًا، فطبخوا طعامًا ووضعوه فيه فلم يجدوا له طعمًا ولم يعلموا ما هو، فرآه رجل عرف ما فيه فاشتراه منهم بقميص

خلق يساوي درهمين،[٦٩] ورأى بعضهم الخبز الرقاق فظنه رقاعًا يكتب عليها،[٧٠] وشاهدوا الأرز فظنوه طعامًا مسمومًا،[٧١] ثم ما لبثوا أن أقاموا بين أولئك الأقوام حتى عرفوا مآكلهم ولا سيما الفرس، فأخذوها عنهم كما أخذوا أكثر مبادئ الحضارة وكثيرًا من العادات والآداب، وليس في الشرع الإسلامي ما يمنع تمتعهم بالطيبات من الأطعمة إلا ما جاء النص بتحريمه.

فأخذوا بأطراف الحضارة من أيام بني أمية، وأول من قلد الأعاجم بأسباب الترف معاوية، فتنعم بمأكله ومشربه،[٧٢] واقتدى به خلفاؤه وسائر الناس، ولا سيما بعد أن كثرت الأموال بين أيديهم فأكلوا السكباج، وهو نوع من المرق كانوا يصنعونه من مرق اللحم والخل، ويضعون فيه اللحوم المطبوخة كالدراج ونحوه، وكانوا يسمونه سيد المرق، والفالوذج وهو نوع من الحلوى، وكذلك اللوزينج يحشى باللوز والسكر، والجوزاب والخشاف والجلاب وغيرها، وتفننوا في معالجة اللحوم بالألبان والخضار والتوابل على أساليب شتى.

اللباس:

لباس العرب الجاهلية

ولباس العرب كان بسيطًا مثل طعامهم وسائر طرق معايشهم، ولا يزال حتى الآن في عرب البادية نحو ما كان عليه قبل الإسلام، وهو عبارة عن القميص والحلة والإزار والشملة والعباءة والعمامة، ولم يكن العرب في جاهليتهم يعرفون السراويل ولا الأقبية،[٧٣] وإنما هي فارسية، وكذلك النعال والخفاف، ولكن بعض الخاصة كان يلبسها، وكانوا يعلقون سيوفهم على عواتقهم، وثيابهم على الإجمال قصيرة إلى أسفل الركب.[٧٤]

وأفضل مثال للباس العرب لباس النبي ﷺ فقد ذكروا أن أحب اللباس إليه البرود والبياض والحبرة، وهي ضرب من البرود فيه حمرة، وكان كمه قصيرًا إلى الرسغ، يلبس أحيانًا حلة حمراء وإزارًا ورداء، والإزار قصير إلى أسفل الركبة، ولبس الخف والنعل،[٧٥] وقد نهى عن الثوب الطويل الذي يجر على الأرض من الخيلاء، ومن أقواله: «فضل الإزار في النار.»[٧٦] ولم يكن العرب يعرفون من الأنسجة غير القطن والصوف.

على أن الذين كانوا يفدون على الشام والعراق من أغنيائهم لتجارة أو زيارة كانوا يقلدون أهلها بملابسهم الفاخرة، فمن فعل ذلك اشتهر ذكره بين القبائل ولا سيما في أوائل الإسلام، ومن المأثور عندهم أن أول من لبس الخز الأدكن من العرب عبد الله بن عامر، وأول من لبس الدراريع السود المختار بن أبي عبيد، وأول من لبس الطيلسان في المدينة جبير بن مطعم،[٧٧] وقس عليه سائر ما اتخذوه من لباس الأعاجم بعد الإسلام، والعادة أن يبدأ الأمراء بذلك ثم يقلدهم سائر الناس، وأول من أقدم على تقليد الأعاجم بأسباب البذخ معاوية وعماله، فزياد بن أبيه أمير العراق أول من قلد الفرس بلبس القباء الديباج،[٧٨] وهو أول من لبس الخفاف الساذجة بالبصرة.

ولما أترف بنو أمية لبسوا الحرير على أنواعه، وتفننوا بأنواع الأنسجة، وأحبوا الوشي وأكثروا من لبسه، فقلدهم الناس في ذلك فراجت المنسوجات الموشاة في أيامهم، واتخذوا كثيرًا من ألبسة الروم، ولكنهم لرغبتهم في المحافظة على البداوة ظلوا يلبسون العمائم ويعلقون السيوف على العواتق، وكان الأحنف يقول: «لا تزال العرب عربًا ما لبست العمائم وتقلدت السيوف.»[٧٩]

اللباس في عصر الحضارة

فلما أفضت الخلافة إلى العباسيين، واستسلموا للفرس وأخذوا نظامهم وآدابهم، قلدوهم بالألبسة وجعلوا ذلك بأمر رسمي من أوائل دولتهم، فأمر المنصور رجاله سنة ١٥٣هـ أن يلبسوا القلانس الفارسية الطويلة تدعم بعيدان من داخلها، بدل العمائم، أو يعتموا فوقها بعمامة صغيرة، وأن يعلقوا السيوف في أوساطهم، وأن يكون اللباس الأسود عامًّا فيهم، وهو شعار العباسيين كما كان البياض شعار الأمويين، فلا بد للداخل على الخليفة العباسي من لباس جبة سوداء يسمونها «السواد» تغطي سائر الثياب، وألبسهم المنصور دراريع كتب على ظهورها ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾،[٨٠] وبعث إلى عماله في سائر الأقطار أن يأمروا رجالهم بمثل ذلك.[٨١]

فأقبل العرب من ذلك الحين على تقليد الفرس في الملابس، ولا سيما أهل الدولة ورجال الحكومة، فلبسوا الأقبية والسراويلات والطيالسة والخفاف والجوارب وغيرها، مع بقاء ألبسة العرب عند عامتهم، ثم اختصت كل طائفة أو طبقة بلبس خاص يميزها عن سواها، فالفقهاء والعلماء كانوا يلبسون عمامة سوداء بشكل خاص ومبطنة وطيلسان أسود،[٨٢] وأول من غير لباس العلماء على هذه الصورة أبو يوسف قاضي الرشيد،[٨٣] وأما

لبس القضاة فهو القلانس الطوال والطيالسة الرقاق، ويختلف ذلك باختلاف الدول والأعصر مما لا محل لاستيفائه.

أما عامة الناس فتختلف أشكال ألبستهم باختلاف صناعاتهم وأحوالهم وطبقاتهم، وباختلاف الأصقاع والأطوار مما لا يمكن حصره، وإنما يقال بالإجمال أن لباس الرجال العمامة والدراعة والسراويل والقميص والقباء والجبة والجوارب والنعال، على نحو لباس المصريين والسوريين في أوائل القرن الماضي وهو ما يلبسه جماعة المشايخ الآن.

ثياب المنادمة والتطيب والخضاب

على أن رجال الدولة ومن جرى مجراهم من الخاصة كانت لهم ألبسة لمجالس الأنس والشراب يسمونها «ثياب المنادمة»، وهي أثواب مصبغة بالألوان الزاهية: الأحمر أو الأصفر أو الأخضر، يصقلونها حتى تلمع وتشرق، ويتضمخون بالخلوق ويتطيبون، ولهم ألبسة يتخففون بها في منازلهم وأخرى يلبسونها في الأسفار وغير ذلك.

أما التطيب فقد كان من دلائل الغنى والنبل عندهم، ومن أمثالهم: «ثلاثة يحكم لهم بالنبل حتى يُدرى من هم: رجل رأيته راكبًا، أو سمعته يعرب كلامه، أو شممت منه طيبًا.»

والخضاب كان مستحسنًا عندهم، وأصله هندي أخذه الفرس عن الهنود،[٨٤] ومنه انتقل إلى بلاد العرب قبل الإسلام، ويقال: إن أول من خضب بالسواد من أهل مكة عبد المطلب،[٨٥] وقالوا: بل المغيرة بن شعبة، ولما ظهر الإسلام وانتشر العرب في الأرض تعلموا فنون الخضاب، فصاروا يخضبون بالحناء للحمرة وبالزعفران للصفرة فضلًا عن الخضاب الأسود، وكانوا يبيضون شعورهم بالكبريت،[٨٦] وأول من خضب لحيته بالزعفران جرير الشاعر،[٨٧] وكان حسان بن ثابت يخضب لحيته على أسلوب خاص، فيلون شاربيه وعنفقته بالحناء دون سائر لحيته، فيبدو لأول وهلة كأنه أسد والغ في الدم،[٨٨] وقس على ذلك تفننهم في الخضاب للرجال والنساء، ولا يزال ذلك شائعًا في الشرق إلى الآن، والأكثرون يخضبون بالسواد وبعضهم بالحناء، ويندر الخضاب بالزعفران، ولا نعرف أحدًا يبيض شعره بالكبريت.

المأوى:

مساكن العرب

كان العرب قبل الإسلام أهل خيام وأنعام، يحملون منازلهم على ظهورهم، إلا من أقام منهم في مكة أو المدينة أو الطائف أو غيرها من مدن الجاهلية، ولما نهضوا للفتح كانت البداوة من جملة أسباب تغلبهم، فلما فتحوا الأمصار تحاشوا سكنى المدن، ونصبوا مضاربهم في ضواحيها أو بنوا بيوتًا من القصب معسكرًا لهم، لا يفصل بينها وبين مقر الخلافة (المدينة) ماء، كأنهم محتلون إلى أجل، وكانوا إذا فسد ما بنوه من القصب أو احترق، استأذنوا الخليفة عمر في بنائها بالحجارة، مثل المدن التي فتحوها بمصر والشام والعراق، ولكنه لم يكن يرى تحضرهم خوفًا عليهم من الترف والرخاء، ولهذا السبب أيضًا منعهم من الزرع، ثم أذن لهم بالبناء، ولكنه اشترط الاقتصاد فيه، فلما استشاروه في بناء الكوفة بالحجارة قال لهم: «افعلوا، ولا يزيدن أحد على ثلاثة أبيات، ولا تطاولوا في البنيان، والزموا السنة تلزمكم الدولة.»[٨٩]

على أن ناموس العمران غلب على ما أراده عمر من بقاء المسلمين يقيمون في المعسكرات، فما لبثوا أن تحضروا وتحولت تلك المعسكرات إلى مدن عامرة، ونزلوا المدن القديمة التي فتحوها، وبنوا المنازل والقصور يقلدون بها أبنية الدول السالفة.

أساليب البناء في الإسلام

وكانت أساليب البناء يومئذ تختلف باختلاف الأمم، ولكل منها نمط تولد عندها بتوالي الأجيال، إما رأسًا أو اقتباسًا، وأهمها النمط البيزنطي في الشام ومصر، والفارسي في فارس وخراسان، والقوطي في الأندلس وما يليها، فلما تحضر العرب وعمدوا إلى تشييد المباني؛ استخدموا في بنائها مهندسين من الروم والفرس، فكانوا يخططونها على ما عرفوه من الأساليب التي ذكرناها، ثم أخذ العرب تلك الصناعة وأدخلوا فيها تغييرًا يوافق الذوق الشرقي ويلائم الإسلام، فتولد نمط إسلامي خاص يعرف بالنمط العربي أو الشرقي يختلف باختلاف الأصقاع واختلاف العصور والدول، وترجع تنوعاته إلى ثلاثة أعصر كبرى:

أولًا: العصر العربي الرومي: هو أقدم أعصر البناء في الإسلام، وأساسه النمط البيزنطي، وتنوع في أثناء التمدن الإسلامي وتفرع إلى خمسة أشكال:

(١) النمط السوري ومثاله الجامع الأقصى في القدس، والجامع الأموي في الشام.
(٢) النمط المصري ومثاله جامع عمرو بالفسطاط.
(٣) النمط الإفريقي ومنه جامع القيروان.
(٤) النمط الصقلي في صقلية بإيطاليا ومن أمثلته قلاع سرقوسة وغيرها.
(٥) النمط الأندلسي ومنه جامع قرطبة وبعض الآثار العربية في طليطلة مما بني قبل انقضاء القرن العاشر للميلاد.

ثانيًا: العصر العربي البحت: وهو يشمل الأشكال التي تكيفت بين يدي العرب حتى بعدت عن الأصول التي نقلت عنها وهي قسمان:

(١) النمط المصري ومنه الأبنية التي أقيمت في مصر بين القرن العاشر والخامس عشر وفي جملتها الجوامع التي بناها السلاطين المماليك، كجامع الظاهر وجامع السلطان حسن.
(٢) النمط الأندلسي وهو ما بني في الأندلس بعد القرن العاشر ومن أمثلته أبنية إشبيلية وغرناطة ولا تزال آثارها باقية إلى الآن.

ثالثًا: العصر المختلط: ويدخل فيها:

(١) النمط الإسباني العربي ويراد به ما بناه المسيحيون بعد استيلائهم على الأندلس وخروج المسلمين منها.
(٢) النمط الإسرائيلي العربي ومن أمثلته الآثار الباقية لليهود في طليطلة من أنقاض الكنائس.
(٣) النمط الفارسي العربي كالجوامع التي بناها الفرس بعد الإسلام ولا سيما في أصبهان.
(٤) النمط الهندي العربي وهو خليط من النمطين الهندي والعربي كبرج كتاب وهيكل بندرابند وباب علاء الدين.
(٥) النمط المغولي العربي كالأبنية التي أقيمت في الهند أثناء سلطة المغول وأشهرها تاج محل وقصر الشاه وكثير من المساجد ونحوها.[٩٠]

فمساكن الناس في عهد التمدن الإسلامي كانت تختلف شكلًا باختلاف البلاد والعصور، وتتفاوت سعة وقدرًا بتفاوت طبقات الناس: من الأكواخ الحقيرة إلى القصور الفخيمة، وسنأتي بأمثلة من القصور وسائر الأبنية الإسلامية عند الكلام على الحضارة.

هوامش

(١) الجزء الأول.
(٢) الأغاني ٦٠ ج١٠.
(٣) العقد الفريد ٢٥٤ ج٢.
(٤) الأغاني ١٧٣ ج١٤.
(٥) ابن الأثير ١٩١ ج٤.
(٦) الأغاني ١٦٥ ج٦.
(٧) الجزء الرابع.
(٨) الجزء الثاني.
(٩) ابن الأثير ٢٣٧ ج٣.
(١٠) ابن خلكان ٢٣٠ ج١.
(١١) العقد الفريد ١٤٠ ج١، وابن خلكان ١١٠ ج٢.
(١٢) الأغاني ١٦٣ ج١٧، وابن الأثير ١٥٩ ج٤.
(١٣) الأغاني ٢٣ ج١٢.
(١٤) ابن خلكان ٩ ج١.
(١٥) الأغاني ١٨٣ ج١، و١٨٤ ج٧.
(١٦) الأغاني ٢٦ ج١٩، و٥٤ ج٦.
(١٧) الأغاني ٧٤ ج١٩.
(١٨) الأغاني ٦٧ ج٢.
(١٩) المسعودي ١٢٢ ج٢.
(٢٠) الأغاني ١٨١ ج٢٠.
(٢١) الأغاني ٩٨ ج٤.
(٢٢) المسعودي ١١٦ ج٢.
(٢٣) كتاب الحيوان للجاحظ ٢٨ ج١.

(٢٤) الأغاني ١٥٤ ج١.
(٢٥) الأغاني ١٤٩ ج١٣.
(٢٦) الأغاني ٣٩، و١٥٩ ج٦.
(٢٧) الأغاني ١٢٨ ج٢.
(٢٨) الأغاني ٤٨ ج٤.
(٢٩) الأغاني ٤٠ ج٦.
(٣٠) الأغاني ٤١، و٥٨ ج٢.
(٣١) الأغاني١٦٠ ج٣.
(٣٢) الفرج بعد الشدة ١٨٣ ج٢.
(٣٣) تزيين الأسواق ١٢٢.
(٣٤) ألف باء ٧٧ ج٢.
(٣٥) رسائل الخوارزمي ٢٠.
(٣٦) الجزء الثاني.
(٣٧) Library of Univ. Fist, 11, 750.
(٣٨) ابن خلكان ١١٧ ج٢.
(٣٩) الأغاني ١٥٦ ج١٢.
(٤٠) العقد الفريد ٨٥ ج١.
(٤١) المسعودي ١١١ ج٢.
(٤٢) العقد الفريد ١١٠ ج١.
(٤٣) الأغاني ٦١ ج١٠.
(٤٤) الأغاني ١٧٠ ج٥، و١٥٦ ج١٧.
(٤٥) ابن خلكان ١٣١ ج٢.
(٤٦) الأغاني ٨٤ ج٥، و٤٦ ج٣، و١١ ج١٢.
(٤٧) العقد الفريد ٨٣ ج١.
(٤٨) العقد الفريد ٦ ج٣، وابن خلكان ٨٢ ج١.
(٤٩) العقد الفريد ٦ ج٣.
(٥٠) ابن خلكان ٢٧١ ج٢.
(٥١) ابن خلكان ٥٥ ج١.

(٥٢) المقريزي ٨٥ ج١.
(٥٣) ترتيب الدول ١٢٠.
(٥٤) الأغاني ١٥٤ ج١٧.
(٥٥) الأغاني ٩ ج١٢.
(٥٦) العقد الفريد ٨٧ ج١.
(٥٧) ابن الأثير ١٥٤ ج٦.
(٥٨) تاريخ الوزراء ٣٢٣.
(٥٩) ابن خلكان ٣٧٢ ج١.
(٦٠) الفرج بعد الشدة ١٤٢ ج٢.
(٦١) سراج الملوك ٥٦ وراجع الجزء الثاني من هذا الكتاب.
(٦٢) ابن الأثير ٥١ ج٦.
(٦٣) ابن الأثير ١٢١ ج٧.
(٦٤) الجبرتي ١٨٢ ج٣.
(٦٥) ألف باء ٣٤٨، ٣٤٩ ج٢.
(٦٦) مشكاة المصابيح ٢٦٩.
(٦٧) ابن خلدون ١٧٠ ج١.
(٦٨) كتاب البخلاء ١٨٣.
(٦٩) الفخري ٧٤.
(٧٠) ابن خلدون ١٤٤ ج١.
(٧١) الهمداني ١٨٨.
(٧٢) الدميري ٥٥ ج١.
(٧٣) البيان والتبيين ٥٣ ج٢.
(٧٤) سراج الملوك.
(٧٥) تهذيب الأسماء ٦٠.
(٧٦) الكامل للمبرد ٢٦.
(٧٧) المعارف لابن قتيبة ١٨٧.
(٧٨) الأغاني ١٠٤ ج١٤.
(٧٩) الكامل للمبرد ١٠٠.

(٨٠) الأغاني ١٢١ ج٩، وابن الأثير ٢٨٩ ج٥، والعقد الفريد ٧٤ ج١.

(٨١) ابن تغري بردي ٤٣٧، والمقريزي ٣٠٧ ج١.

(٨٢) الأغاني ١٠٩ ج٥، و٦٩ ج٦، وطبقات الأطباء ٤ ج٢.

(٨٣) ابن خلكان ٣٠٣ ج٢.

(٨٤) المسعودي ١١٥ ج١.

(٨٥) لطائف المعارف ٨.

(٨٦) ألف باء ٢٤٤ ج٢.

(٨٧) المعارف لابن قتيبة ٩٩.

(٨٨) الأغاني ٣ ج٤.

(٨٩) ابن خلدون ٢٩٩ ج١.

(٩٠) La Civilisation des Arabes, 597.

حضارة الدولة الإسلامية

نريد بالحضارة ما تبلغ إليه الدولة من الثروة وبسطة العيش والتوسع في أسباب الترف والرغد في أرقى درجات عمرانها، والدولة الإسلامية أدركت تلك الدرجات أولًا في العصر العباسي ببغداد من أواسط القرن الثاني للهجرة (الثامن الميلادي) إلى أواسط الرابع (العاشر الميلادي)، وفي العصر الأموي بالأندلس في القرن الرابع، وفي العصر الفاطمي بمصر من أواسط الرابع إلى أواسط السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي).

وأسباب الحضارة فيما نحن فيه تقسم إلى قسمين كبيرين؛ الأول: العمارة أي إنشاء المدن وبناء المصانع والقصور، والثاني: الثروة وبها يتم ما يقتضيه الترف من الانغماس في النعيم والرخاء وبسطة العيش، فنتكلم أولًا عن المدن، فالمباني، ثم نبين ما بلغت إليه الأمة من الثروة وأسباب الترف والرفاهية.

عمارة المدن والقصور

إن المدن التي سكنها المسلمون وحواها التمدن الإسلامي تعد بالمئات، وهي منتشرة في آسيا وإفريقيا وأوربا، ومنها ما كان عامرًا قبل الإسلام، ومنها ما بناه المسلمون لأنفسهم، وقد نشرنا في الجزء الثاني من هذا الكتاب فصلًا في المدن الإسلامية، وما بلغت إليه من الحضارة والثروة في عهد التمدن الإسلامي واقتصرنا على أعظم تلك المدن: البصرة، والكوفة، والفسطاط، وبغداد، وأجلنا الكلام فيما بقي إلى هذا الجزء فنقول:

(١) القطر المصري

(١-١) مساحة الأرض الزراعية فيه

القطر المصري اليوم (حوالي سنة ١٩١٠) في نهضة مالية تضاعفت فيها الثروة إلى حد استغربه الناس وخافوا رد الفعل؛[١] لأنهم رأوا غلاء في الأسعار، مفاجئًا لم يعهدوا مثله، وزادت مساحة الأرض الزراعية ستة أضعافها في قرن واحد، فبعد أن كانت مساحتها في أيام المماليك نحو مليون فدان وبعض المليون صارت ثمانية ملايين فدان، وبعد أن كان الفدان يباع ببضعة عشر جنيهًا بيع بمائة جنيه، أو مائة وخمسين جنيهًا أو أكثر، فكيف لو علموا أن مساحة الأرض الزراعية في إبان التمدن الإسلامي زادت على ٢٥٠٠٠٠٠٠ فدان؟ وقد ذكرنا ذلك في الجزء الأول من هذا الكتاب نقلًا عن ثقات مؤرخي العرب، فاستغربه بعض الفضلاء وعدوه من قبيل الخرافة أو الأكذوبة على عادتهم في الاستخفاف بأقوال مؤرخي المسلمين، ولا نرى باعثًا على هذا الاستخلاف، والمسلمون أو العرب من أكثر الأمم تحقيقًا في حوادث التاريخ، لما تعودوه من التحقيق في المسائل الدينية بالإسناد ونحوه.

على أننا لا نلومهم إذا استغربوا تلك الرواية؛ لأن الناس يقيسون الأشياء بما علموه من أشباهها، فثروة القطر المصري إذا قيست بما ألفناه من أحوال عمرانه في القرنين الماضيين لا نرى ما يسهل علينا تصديق قول العرب بمساحته الزراعية إلى ثلاثة أضعاف ما بلغت إليه اليوم، ولكن لو قيل لأهل هذا الجيل إن مساحة الأرض الزراعية بمصر ستبلغ بعد عشر سنين عشرة ملايين أو ١٢ مليون فدان لهان عليهم التصديق؛ لأنهم شاهدوا تزايد هذه المساحة من مليون فدان إلى ثمانية ملايين، أما لو قيل ذلك لأهل أواسط القرن الماضي لعدوه مستحيلًا؛ لأن مساحة أرض مصر التي تقبل الزراعة لم تكن تقدر يومئذ بأكثر من ٧٠٠٠٠٠٠ فدان، وهاك تقدير الدكتور كلوت بك لسنة ١٨٤٠[٢] باعتبار الفدان:

	أرض مزروعة	غير مزروعة	الجملة
مصر السفلي	٢٢٤٩٠٠٠	١٥٥١٠٠٠	٣٨٠٠٠٠٠
مصر الوسطى	٨٥٦٨٢٦	٧٦٣١٧٤	١٦٢٠٠٠٠
مصر العليا	٧٥٠٤٠٠	٨٤٣٦٠٠	١٥٩٤٠٠٠
	٣٨٥٦٢٢٦	٣١٥٧٧٧٤	٧٠١٤٠٠٠

فتكون مساحة الأرض التي يمكن زرعها بمصر ٧٠١٤٠٠٠ فدان، فمن كان هذا اعتقاده في أطيان مصر لا يصدق إذا قيل له: إن مساحة هذه الأطيان ستزيد على عشرة ملايين فدان، أو ١٢ مليونًا بعد بضع عشرة سنة.

(١-٢) عدد السكان

ويقال نحو ذلك في عدد السكان، فلو قيل في أواسط القرن الماضي: إن القطر المصري سيبلغ عدد سكانه إلى عشرة ملايين أو ١٢ مليونًا لعدوا قولنا من الخرافات، أو كما قال الدكتور كلوت بك: «من عادات الشرقيين في المبالغة.» لأن عددهم في أيامه لم يكن يزيد على ٣٠٠٠٠٠٠ نفس، فكيف يصدق زيادته إلى أربعة أضعافه؟ لا نقول ذلك تحكمًا أو افتراضًا، ولكننا ننقل للقارئ قول الدكتور كلوت بك مؤرخ ذلك العصر في هذا الشأن؛ فقد بحث في كتابه عن سكان القطر المصري سنة ١٨٤٠ فبلغ عددهم ثلاثة ملايين

نفس، فصدر بحثه بمقدمة عن إحصائهم في الزمن القديم قال فيها ما معناه: «يؤخذ من إحصاء مؤرخي اليونان أن سكان هذا القطر بلغ عددهم في زمن سيزوستريس والبطالسة نحو سبعة ملايين نفس إلى ثمانية، وأما مؤرخو العرب فزعموا أن عددهم في زمن عمرو بن العاص بلغ عشرين مليونًا، وهو قول يدل على عادة الشرقيين في المبالغة في كتاباتهم ... لأننا لو قسنا مصر بما نعلمه في سواها من نسبة عدد الناس إلى مساحة ما يتوطنونه من الأرض لوصلنا إلى نتيجة تنفي كل شك، فمصر مساحتها سدس مساحة فرنسا، ومهما قلنا في خصب وادي النيل وما يمكن الوصول إليه من امتداد الزراعة وزيادة العمارة، ولو سلمنا بإمكان استثمار البقاع الرملية، فمع كل هذه الوسائل لا يرجى زيادة عدد السكان على ثلث الإحصاء الذي ذكره العرب.» (أي: نحو ٦٣٣٣٠٠٠ نفس) هذا هو رأيه، وأنت ترى أن سكان مصر زاد عددهم اليوم على عشرة ملايين.

ولن تمضي بضع سنين حتى يناهز ١٥ مليونًا، أو ضعفي ما ظنه الدكتور كلوت بك غاية ما يمكن الوصول إليه.

وقياسًا على ما تقدم لا نرى مانعًا من بلوغ سكان القطر المصري إلى ٢٠٠٠٠٠٠٠ نفس، فلا غرابة إذا بلغوا هذا العدد في إبان التمدن الإسلامي، وإنما أنكر أبناء هذا الجيل ذلك استخفافًا برواية العرب، مع أنها مبنية على إحصاءات رسمية واقعية في أزمنة معينة لأجل تعديل الجزية أو الخراج، وليست من قبيل الحدس أو الرجم بالغيب، الإحصاء الأول وقع في زمن الفتح على أيام عمر، ذكر المقريزي أنهم أحصوا الرجال الذين تؤخذ عليهم الجزية فبلغ عددهم ٨٠٠٠٠٠٠ نفس، فإذا اعتبرناهم ثلث الأمة كان مجموعها ٢٤٠٠٠٠٠٠ نفس، والإحصاء الثاني في ولاية الوليد بن رفاعة سنة ١١٠هـ، ذكروا أنه خرج ليحصي أهلها وينظر في تعديل الخراج، فأقام في ذلك ستة أشهر بالصعيد حتى بلغ أسوان، ومعه جماعة من الكتاب والأعوان يكفونه ذلك بجد وتشمير، وثلاثة أشهر في الوجه البحري، فأحصوا من القرى عشرة آلاف قرية، في أصغر قرية منها ٥٠٠ جمجمة من الرجال الذين تفرض عليهم الجزية، فتكون جملة ذلك على الأقل ٥٠٠٠٠٠٠ رجل، وعلى متوسط ما يلحق ذلك من النساء والأطفال والشيوخ يكون المجموع نحو ٢٠٠٠٠٠٠٠ نفس.

(١-٣) مساحة الأرض الزراعية

ويقال نحو ذلك في الأرض الزراعية، فإنهم استخرجوا مساحتها بالإحصاءات الرسمية لأجل تعديل الخراج، منها إحصاء لعبيد الله بن الحبحاب سنة ١٠٧هـ فبلغت مساحة الأرض الزراعية مما يركبه النيل ٣٠٠٠٠٠٠٠ فدان، أي نحو أربعة أضعاف ما بلغت إليه مساحتها اليوم، مع اجتهاد حكومتنا في تعميم وسائل الري ببناء الجسور والخزانات، وما لدينا من آلات الحرث والزرع، فإذا سبق إلى أذهاننا الاستخفاف برواية العرب حكمنا لأول وهلة وبلا تردد أنها مكذوبة، أما إذا نظرنا فيها نظر الناقد المحقق فلا نعدم الوصول إلى الحقيقة.

فالمقريزي وغيره من رواة الإحصاء لم يقولوه عرضًا ولا تركوا في قولهم التباسًا، وذكروا في أمكنة أخرى أن الأرض الزراعية نقصت في أيام ابن المدبر، أي بعد قرن ونصف قرن، إلى ٢٤٠٠٠٠٠٠ فدان، ولم يكتفوا بذكر المساحة ولكنهم ذكروا عدد العمال الذين كانوا يشتغلون بالحرث والزرع، واشترطوا عددًا معلومًا منهم، فإذا نقص نقصت غلة الأرض.[٣]

ولا يتجلى لنا وجه الصواب إلا بعد معرفة البقاع التي كانت عامرة في ذلك العصر، فلو كانت حدود مصر الزراعية يومئذ مثل حدودها الآن، أي يحدها من الشرق والغرب الجبلان والصحراء الشرقية والغربية، لحكمنا باستحالة زعمهم؛ لأن مساحة مصر الجغرافية اليوم، وفيها الواحات والبادية الواقعة بين النيل والبحر الأحمر والعريش، نحو ٤٠٠٠٠٠ ميل مربع، معظمها صحراء قاحلة، أما الأرض الزراعية فمساحتها ١٧٨٢٦ ميلًا مربعًا، يخرج منها ٤٨٥٠ ميلًا مسطحات النيل والترع والمستنقعات والبحيرات ونحوها، فالباقي ١٢٩٧٦ ميلًا مربعًا، أي نحو ٨٠٠٠٠٠٠ فدان، وهي الأرض المزروعة الآن فلا سبيل إلى المزيد.

ولكن يؤخذ مما نقله العرب عن أحوال مصر في إبان تمدنهم، ومما جاء من أخبارها القديمة، أن حدودها الزراعية كانت أوسع من ذلك كثيرًا، ذكروا أنها كانت تمتد من الغرب وراء صحراء الإسكندرية إلى برقة،[٤] وتتصل من الشرق بحدود السويس إلى العريش، ومعظم المسافة هناك اليوم رمال قاحلة ولكنها كانت تزرع قديمًا الزعفران والعصفر وقصب السكر وكان ماؤها غزيرًا، ولا تزال آثار العمارة باقية في تلك البقاع، فإن تحت الرمال تربة سوداء زراعية يعرفها من اختبر الأرض بالمسبار.

وكان الصعيد عامرًا ويمتد من جهته الشرقية إلى البحر الأحمر وأراضي البجة،[٥] وكانت أطيان الفيوم ممتدة إلى ما وراء العمارة المعروفة مسافة بعيدة، فإذا اعتبرنا ما ذكروه من هذا القبيل، وأن النيل كان أكثر فروعًا وأغزر ماء وأوسع فيضانًا مما هو عليه اليوم، هان علينا قبول أقوالهم وإن كنا لا نزال نستغربها لبعدها عن مألوفنا، ولعلنا متى رأينا الشركات تعمل على إحياء الصحاري المحيطة بوادي النيل شرقًا وغربًا، بنزع ما يغطيها من الرمال وأروائها بالترع المتصلة إليها من النيل أو الآبار الأرتوازية، نرى أقوالهم معقولة، ولا نظن ذلك بعيدًا، ورجال الأعمال يدرسون أمثال هذه المشروعات.

(١-٤) مدينة القاهرة

وأشهر مدن القطر المصري في الإسلام الفسطاط والقاهرة، وقد ذكرنا عمارة الفسطاط في الجزء الثاني، وأما القاهرة فقد بناها القائد جوهر في أواسط القرن الرابع للهجرة معقلًا لمولاه المعز لدين الله الفاطمي وجنده، فظلت في أثناء دولة الفاطميين لم تتسع عمارتها وإنما كانت العمارة للفسطاط والقطائع، وذكر المقريزي أنه كان في هاتين المدينتين — غير القاهرة — ١٠٠٠٠٠ بيت، في بعضها مائة إنسان ومئتان، إذ يكون البيت مؤلفًا من خمس طبقات أو ست أو سبع،[٦] ومع ذلك فهي في تقديره لا تزيد على ثلث بغداد، فكم تكون عمارة هذه؟ ولما أفضت الدولة إلى السلطان صلاح الدين أذن للناس بسكنى القاهرة، فاتصلت بمدينة الفسطاط، وكانت الفسطاط تسمى «مصر»، فلما صارتا مدينة واحدة أطلقوا عليها اسم «مصر والقاهرة»، ثم قالوا «مصر القاهرة»، ولما خربت الفسطاط ظل الاسم للقاهرة وحدها كما هو مشهور.

(٢) الأندلس

لما فتح المسلمون الأندلس كانت عامرة آهلة، فأقاموا في مدنها وزادوها عمرانًا، وأشهر تلك المدن قرطبة وقد زادها المسلمون عظمة بما بنوه في ضواحيها من القصور الكبيرة أشباه المدن الضخمة مما سنذكره.

(٢-١) قرطبة

هي من أعمال الأندلس، واقعة على الوادي الكبير تستقي ماءها منه، وكانت عامرة قبل الإسلام ويظن أنها من بناء القرطجنيين ودخلت في حوزة الرومانيين سنة ١٥٢ قبل الميلاد، وتوالت عليها أحوال شتى حتى فتح المسلمون الأندلس واستولوا على طليطلة، ثم جعلوا مقر الإمارة في قرطبة، وزاد الأمويون عمارتها بما أنشأوا من القصور والمساجد والجسور وغيرها، فاتسعت مساحتها، وكان محيط المدينة الأصلية ٣٣٠٠٠ ذراع عليها سبعة أبواب، فنشأ حولها ٢١ ربضًا في كل ربض من المساجد والأسواق والحمامات ما يقوم بأهله، فصار طولها ٢٤ ميلًا وعرضها ستة أميال أو ١٤٤ ميلًا مربعًا (ومساحة لندن ١١٧ ميلًا)، وكل ذلك ديار وقصور ومساجد وبساتين على طول ضفة الوادي المذكور.

وقد أحصوا مباني هذه المدينة وأرباضها في إبان عمرانها إحصاءات مختلفة خلاصتها أن عدد الأبنية فيها كما يأتي:

عدد	
١١٣٠٠٠	دور الرعايا
٤٣٠	دور القصر الكبير
٦٣٠٠	دور أهل الدولة
٣٨٧٣	المساجد
٩٠٠	الحمامات
١٢٤٥٠٣	

وذكروا أن عدد الأبنية بلغ في أيام ابن أبي عامر ٢٠٠٠٠٠ دار للرعية، و٦٠٣٠٠ دار لأهل الدولة، و٨٠٤٥٥ حانوتًا غير الحمامات والخانات،[٧] ولا يخلو هذا التقدير من مبالغة، والأول أقرب إلى الصواب، وإذا اعتبرنا ما يلحقه من الحوانيت والخانات زاد المجموع على ضعفي عدد أبنية القاهرة اليوم.

على أنك ترى في هذا التقسيم تمييزًا بين الخاصة والعامة في المساكن، وأن دور الخاصة نحو ٦ في المائة من دور العامة، على حين أن دور الأشراف في رومية لم يزد عددها في إبان عمرانها على ٢٠٠٠ دار،[٨] فعمارة قرطبة بهذا الاعتبار فائقة الحد، وأما سكانها فكانوا يناهزون المليونين، وسيأتي الكلام على قصورها.

(٢-٢) غرناطة

وأما غرناطة فكانوا يسمونها دمشق الأندلس، لكثرة أثمارها وأعنابها وفاكهتها، وتمتاز عن سائر مدائن الأندلس بنهر يتوزع على دورها وأسواقها وحماماتها وأرجائها الداخلة والخارجة وبساتينها، كما يتوزع نهر بردى في دمشق، وبلغت غرناطة قمة مجدها في الدولة النصرية، وأشهر ملوكها ابن الأحمر، في أواسط القرن الثامن للهجرة، وهو الذي بنى قصر الحمراء فيها كما بنى عبد الرحمن الناصر قصر الزهراء في قرطبة، ونتقدم إلى ذكر القصور والمباني.

(٣) القصور والمباني

قال ابن خلدون: «إن المباني والمصانع في الملة الإسلامية قليلة، بالنسبة إلى قدرتها وبالقياس على من كان من الدول قبلها.» ولكننا إذا اعتبرنا ما انتاب المدائن الإسلامية من أسباب الخراب بما توالى عليها من الإحن والفتن، ونظرنا إلى ما بقي من أبنيتها في مصر والشام والعراق وفارس والهند والأندلس، رأيناها أكثر مما خيل لمؤرخنا الفيلسوف، ولعل الذي بعثه على هذا القول أن كثيرًا من هذه المباني شيد بعد عصره على عهد السلاطين المماليك في مصر، وبعضها لم يتصل علمه به مما في بلاد فارس والهند وغيرها، فقد كان للخلفاء والأمراء، على اختلاف الدول والممالك، عناية في بناء المساجد والمصانع والقصور يتأنقون في هندامها وإتقانها، فضلًا عن المتنزهات والحدائق مما ينفقون فيه الأموال الطائلة، فيجلبون إليه الأغراس من أطراف المعمور، ويتفننون في تزيين مجالسهم بالأشعار والتصاوير المموهة بالذهب، وبينها رسوم الحيوانات والآدميين والأزهار وغيرها مما ستراه.

(٣-١) مباني الأمويين في الشام

لم يصلنا من أخبار مباني الأمويين في الشام ما يستحق الذكر إلا «الجامع الأموي»، الذي جدد بناءه الوليد بن عبد الملك بدمشق، وكان قبل الإسلام كنيسة على اسم القديس يوحنا، فلما فتح المسلمون دمشق صالحوا أهلها على أن تقسم الكنيسة مناصفة: المسيحيون يصلون في نصفها الغربي، والمسلمون في النصف الشرقي، فلما أفضت الخلافة إلى الوليد بن عبد الملك أخذ النصفين جميعًا وجدد بناء الجامع، فاستقدم نحو ١٢٠٠٠ صانع من بلاد الروم، تأنقوا في بنائه فغطوا جدرانه كلها بفصوص من الفسيفساء صبغت بأنواع الأصبغة الغريبة فمثلت أشجارًا، وفرعت أغصانًا منظومة بالفصوص ببدائع الصنعة الأنيقة، فأنفق في ذلك نحو ١١٢٠٠٠٠٠ دينار، وكان طول الجامع من الشرق إلى الغرب ٣٠٠ ذراع، وعرضه ٢٠٠ ذراع، قائم على ٦٨ عمودًا، وأعظم ما فيه قبة مصنوعة من الرصاص متصلة بالمحراب عظيمة الاستدارة والارتفاع، وقد زاره ابن جبير الرحالة الأندلسي في القرن السادس للهجرة، ووصفه وصفًا مطولًا وذكر تاريخه إلى أيامه مما يضيق عنه المقام،[٩] ولا يزال هذا الجامع قائمًا إلى الآن، ويعد من أفخر أبنية المسلمين.

وبنى الحجاج بن يوسف قبة الإسلام في واسط، وكانت من أفخم الأبنية وفيها يقول الشاعر:

بنى قبة الإسلام حتى كأنما أتى الناس من بعد الضلال رسول[١٠]

(٣-٢) مباني العباسيين بالعراق

أول من شاد الأبنية منهم المنصور، فبنى القبة الخضراء ليحول أذهان الناس عن الكعبة إليها، وبنى الجامع والحصون والقصور في بغداد، كقصر الخلد وقصر باب الذهب وغيرهما، وأخذ الخلفاء بعده في تشييد المصانع، واقتدى بهم وزراؤهم وأمراؤهم، فأقاموا قصورًا فخيمة تعرف غالبًا بأسماء بانيها، كقصور البرامكة في الشماسية، وقصر ابن الخصيب، وقصر أم حبيب بالجانب الشرقي من بغداد، وقصر بني خلف بالبصرة، وقصر عيسي بن علي وهو أول قصر بناه الهاشميون في أيام المنصور، وقصر وضاح بناه رجل اسمه وضاح للمهدي العباسي، وقصر الرشيد، وقصر الأمين، وقصر ابن الفرات، وقصر ابن مقلة، غير ما أطلقوا عليه لفظ الدار كدار الشجرة الآتي ذكرها، ودار القرار

وهي قصر زبيدة زوج الرشيد وغير ذلك، وأخذت رغبتهم في بناء القصور تتزايد كلما تقدموا في المدنية وأغرقوا في الترف والرخاء، على أن بعض خلفائهم كانوا يحبون العمارة وينشطونها وأولهم المعتصم بالله، فقد كان كلفًا بالبناء فبنى سامرا لأتراكه وأقطعهم فيها القطائع، والمتوكل على الله كان مغرمًا بالعمارة، فبذل فيها الأموال الطائلة، فأحدث أساليب من الأبنية لم تكن معروفة قبله، منها النمط الحيري والكمين ذات الأروقة، وبنى ثلاثة أبنية تُعرف بالهاروني والجوسق والجعفري، بذل في بنائها جميعًا أكثر من ١٠٠٠٠٠٠٠٠ درهم،[١١] أنفق منها على القصر الجعفري أكثر من ٢٠٠٠٠٠٠ دينار،[١٢] أو نحو ٤٠٠٠٠٠٠٠ درهم، ثم صار تشييد المباني عادة جرى عليها الخلفاء والأغنياء، فضلًا عن المتنزهات، فبنى إسماعيل بن علي متنزهًا أنفق فيه ٥٠٠٠٠٠٠٠ درهم.[١٣]

قصر التاج وقصر الثريا

وكان المعتضد بالله محبًّا للعمارة أيضًا، فبنى قصرًا في الجانب الشرقي من بغداد سماه «قصر التاج» لم يتم في أيامه فأتمه ابنه المكتفي، وكان في مكانه قصر بناه جعفر البرمكي ثم سكنه الحسن بن سهل فسمي القصر الحسني، فلما تولى المعتضد سنة ٢٨٩هـ أضاف إليه ما جاوره، فوسعه وكبره وأدار عليه سورًا واتخذ حوله منازل كثيرة ودورًا، واقتطع من البرية قطعة عملها ميدانًا، وأخذ في بناء قصر التاج، فاتفق خروجه إلى آمد، فلما عاد رأى الدخان يرتفع إلى الدار، فكرهه وابتنى على ميلين منه قصرًا سماه «قصر الثريا»، طوله ثلاثة فراسخ أنفق فيه ٤٠٠٠٠٠٠ دينار،[١٤] وصله بالقصر الحسني وابتنى بين القصرين على مسافة ميلين سردابًا تمشي فيه جواريه وحرمه وسراريه، وما زال باقيًا إلى الغرق الأول الذي صار ببغداد، وفي قصر الثريا يقول ابن المعتز:

سلمت أمير المؤمنين على الدهر	فلا زلت فينا باقيًا واسع العمر
حللت الثريا خير دار ومنزل	فلا زال معمورًا وبورك من قصر
جنان وأشجار تلاقت غصونها	وأورقن بالأثمار والورق الخضر
ترى الطير في أغصانهن هواتفا	تنقل من وكر لهن إلى وكر
وبنيان قصر قد علت شرفاته	كمثل نساء قد تربعن في أزر
وأنهار ماء كالسلاسل فجرت	لترضع أولاد الرياحين والزهر

عطايا إله منعم كان عالمًا بأنك أوفى الناس فيهن بالشكر

ولما توفي المعتضد قام ابنه المكتفي سنة ٢٨٩هـ، فأتم بناء قصر التاج، وكان وجهه مبنيًّا على خمسة عقود كل عقد على عشرة أساطين في خمسة أذرع.[١٥]

دار الشجرة

وبنى المقتدر بالله في أول القرن الرابع دارًا فسيحة ذات بساتين مونقة عرفت بدار الشجرة، لشجرة كانت فيها مصنوعة من الذهب والفضة في وسط بركة كبيرة أمام إيوانها وبين شجر بساتينها، لها ثمانية عشر غصنًا من الذهب والفضة لكل غصن منها فروع كثيرة مكللة بأنواع الجوهر على شكل الثمار، وعلى أغصانها أنواع الطيور من الذهب والفضة، إذا مر الهواء عليها أبانت عن عجائب من ضروب الصفير والهدير، وفي جانب الدار من يمين البركة قد ألبسوا أنواع الحرير المدبج، مقلدين بالسيوف وفي أيديهم المطارد، يتحركون على خط واحد فيظن الناظر إليهم أن كل واحد منهم يقصد صاحبه.[١٦]

وفي دولة آل بويه بنى معز الدولة قصره المعروف بالدار المعزية، أنفق في بنائه ١٠٠٠٠٠٠ دينار وموه سقفه بالذهب، ذكروا أنهم لما أرادوا هدمه بذلوا في حك الذهب من سقفه ٨٠٠٠ دينار ولم يبق لهذه القصور أو الدور أثر الآن.

(٣-٣) مباني الأمويين بالأندلس

أما الأندلس فقد بنى بها آل مروان قصورًا سارت بذكرها الركبان، ولا يزال بعض آثارها باقيًا إلى اليوم، وأكثرها في قرطبة وغرناطة؛ فمنها في قرطبة:

القصر الكبير

وهو آية من آيات الزمان، شرع في بنائه عبد الرحمن الداخل في أواسط القرن الثاني للهجرة، وأتمه من جاء بعده وبنوا القصور في داخله، وقد رأيت عند ذكر أبنية قرطبة أن القصر المذكور مؤلف من ٤٣٠ دارًا، بينها قصور فخيمة لكل منها اسم خاص، كالكامل والمجدد والحائر والروضة والمعشوق والمبارك والرشيق وقصر السرور والبديع،

وقد غالوا في زخرفها وإتقانها، وأنشأوا فيها البرك والبحيرات والصهاريج والأحواض، جلبوا إليها الماء في قنوات الرصاص على المسافات البعيدة من الجبال، حتى أوصلوه إليها ووزعوه فيها، وفي ساحاتها ونواحيها بواسطة تلك القنوات التي تؤديها إلى المصانع (أي: المنشآت)، هذا إلى صور مختلفة الأشكال من الذهب الإبريز والفضة الخالصة والنحاس المموه، إلى البحيرات الهائلة والبرك البديعة والصهاريج الغريبة في أحواض الرخام الرومية المنقوشة، ينصب فيها الماء من أنابيب من الذهب أو الفضة بصور الحيوانات الكاسرة أو الصور الجميلة على أشكال بديعة.[١٧]

مسجد قرطبة

ومن عجائب قرطبة مسجدها الشهير، ذكروا أنه لم يكن في بلاد الإسلام أعظم منه ولا أعجب بناء، وكان في مكانه كنيسة للنصارى شاطرهم عليها المسلمون عند الفتح كما فعلوا بالجامع الأموي في دمشق، ثم أخذوا في توسيعه والزيادة فيه بأنقاض الكنائس على توالي الأجيال، وأعجب ما فيه صومعته أو المئذنة، قالوا: لم يكن في مساجد المسلمين صومعة تعدلها، بنيت بضخام الحجارة فبلغ طولها إلى مكان موقف المؤذن ٥٤ ذراعًا، وإلى أعلى الرمانة الأخيرة ٧٣ ذراعًا، وعرضها في كل تربيع ١٨ ذراعًا.

وتدرج الجامع في الاتساع بتوالي التجديد فيه، حتى بلغت مساحته في أيام الخليفة الناصر ٢٢٥ ذراعًا في ٢٠٥ أذرع، وزاد الحكم في طوله مائة ذراع وخمسة أذرع فصار طوله ٣٣٠ ذراعًا، وزاد ابن أبي عامر في عرضه ثمانين ذراعًا فصار ٢٨٥، وأرضه مرصفة بإحدى عشرة بلاطة، الوسطى عرضها ١٦ ذراعًا، وعرض كل واحدة من الست الباقية ١١ ذراعًا، وزاد ابن أبي عامر ثماني بلاطات عرض كل واحدة عشرة أذرع، وكان سقفه قائمًا على ١٢٩٣ سارية من الرخام، وعدد ثرياته ٢٨٠ ثريا، منها ثريات المقصورة من الفضة الخالصة، وكان في وسط الجامع تنور نحاس يحمل ألف مصباح.

وكان للجامع تسعة أبواب مصفحة بالنحاس الأصفر، إلا باب المقصورة فإنه من الذهب، وكذلك جدار المحراب وما يليه وقد أجرى فيه الذهب على الفسيفساء، وفي رأس الصومعة ثلاثة تفافيح، دور كل تفاحة ثلاثة أشبار ونصف، اثنتان من الذهب الإبريز وواحدة من الفضة، وتحت كل تفاحة وفوقها سوسنة قد هندست بأبدع صنعة، ورمانة ذهب صغيرة على رأس الزج، وكان في بيت المنبر مصحف الخليفة عثمان، وعليه حلية الذهب مكللة بالدر والياقوت، وفوقه أغشية الديباج، وهو موضوع على كرسي من العود

الرطب بمسامير الذهب، وقد أفاض صاحب نفح الطيب في وصف هذا الجامع وما كان ينفق فيه من الزيت والشمع فليراجع هناك،[١٨] وتحول الجامع المذكور بعد دخول قرطبة في حوزة الإفرنج إلى كنيسة، ولا يزال على بنائه الإسلامي وعليه النقوش الشرقية والكتابة العربية.

قصر الزهراء

ومن قصورهم في قرطبة «الزهراء»، بدأ بإنشائها الخليفة الناصر سنة ٣٢٥هـ على أربعة أميال من المدينة، وأتمها ابنه الحكم فاستغرق البناء أربعين سنة، وهي عبارة عن بلد كبير طوله من الشرق إلى الغرب ٢٧٠٠ ذراع وعرضه ١٥٠٠، وعدد أعمدته أو سوارية ٤٣٠٠ سارية، بعضها حمل إلى قرطبة من روما وإفريقية وتونس، وبعضها أهداه صاحب القسطنطينية، وفيها الرخام الأبيض والأخضر والوردي والمجزع، وكان في الزهراء مسجد فخيم وعدة قصور وحدائق، على نحو ما تقدم في وصف القصر الكبير، وفيها البحيرات تسبح فيها الأسماك بألوانها وأنواعها، وأحواض الرخام المنقوش على أشكال شتى بين مذهب وغير مذهب، في جملتها حوض منقوش بتماثيل الإنسان، جيء به من القسطنطينية ونصبه الناصر في بيت المنام بالمجلس الشرقي المعروف بالمؤنس، وجعل عليه ١٢ تمثالًا من الذهب الأحمر، مرصعة بالدر النفيس الغالي مما صنع بدار الصناعة في قرطبة، بصورة أسد بجانبه غزال إلى جانبه تمساح يقابله ثعبان وعقاب وفيل، وفي المجنبتين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحداة ونسر، وكلها من ذهب مرصع بالجوهر يجري الماء من أفواهها.[١٩]

ووكل الناصر النظر في بناء هذه القصور إلى ابنه الحكم بعده، وذكروا أن الناصر كان ينفق عليها ثلث جباية الدولة، وكانت ٦٠٠٠٠٠٠ دينار فينفق منها ٢٠٠٠٠٠٠ دينار كل سنة على ذلك البناء، وقد تقدم أنهم واصلوا العمل فيه ٤٠ سنة، فلو فرضنا أنهم كانوا ينفقون هذا القدر في نصف هذه المدة فقط لبلغ مجموع ما أنفق على الزهراء أكثر من ٥٠٠٠٠٠٠٠ دينار، ولكن يظهر أن الإنفاق السنوي لم يكن يبلغ ثلث جباية المملكة إلا في بضع سنين، وأما في سائر مدة البناء فكانت النفقة أقل من ذلك كثيرًا.

وقد ورد في مكان آخر أن الناصر كان ينفق على بنائها في أيامه ٣٠٠٠٠٠ دينار في السنة، فإذا حسبنا ما أنفقه ابنه الحكم فيما بقي من الأربعين سنة على هذه النسبة مع ما أنفقه هو بالإضافة إلى المقدار السنوي المذكور؛ كان مجموع ما دخل في بناء هذه

المدينة نحو ٢٠٠٠٠٠٠٠ دينار على الأقل، ولا غرابة في ذلك؛ لأننا إذا أعدنا النظر في تفاصيلها رأينا فيها ما يفوق الحصر من المرصعات والمذهبات، وقد أدخلوا فيها شيئًا كثيرًا من الذهب حتى جعلوا بعض قرميدها منه، وقد كان يتصرف في بنائها من الخدم والفعلة عشرة آلاف رجل و١٥٠٠ دابة، وأغرب من كل ذلك أن الناصر إنما عمد إلى بناء الزهراء مرضاة لمحظية له كان اسمها «زهراء» طلبت إليه أن يبني مدينة باسمها وتكون خاصة بها.[٢٠]

الزاهرة

واقتدى بالخليفة الناصر المنصور بن أبي عامر، فابتنى سنة ٣٦٨هـ قصرًا، لإقامته سماه «الزاهرة» ليكون معقلًا له يحميه من أعدائه، فأقامه في طرف البلد على نهر قرطبة الأعظم، وحشد له الصناع والفعلة وبالغ في رفع أسواره وجعل فيه أبنية كثيرة من جملتها أهراء ودواوين، وأقطع ما حولها لوزرائه وكتابه وقواده، فابتنوا الدور والقصور وغرسوا الحدائق، فقامت الأسواق وتنافس الناس في النزول في أكنافها تقربًا من صاحب الدولة، حتى اتصلت أرباضها بأرباض قرطبة، واتصلت بهما الزهراء من الجهة الأخرى، فأصبح الناس يمشون بين هذه المدن عشرة أميال على ضوء السرج.

قنطرة قرطبة

ويجدر بنا في هذا المقام الإشارة إلى القنطرة الفخيمة التي أقامها المسلمون على نهر قرطبة، وكانت مبنية قبل الإسلام ثم سقطت فأعاد المسلمون بناءها على يد عبد الرحمن الغافقي، وطولها ٨٠٠ ذراع، وعرضها عشرون ذراعًا، وارتفاعها ٦٠ ذراعًا، وعدد حناياها ١٨ حنية، وأبراجها ١٩ برجًا.[٢١]

قصر الحمراء وأمثاله

الحمراء قصر شهير في غرناطة لا يزال شكله محفوظًا إلى الآن يقصده السياح من كل مكان، بناه ابن الأحمر في أواسط القرن الثامن للهجرة كما تقدم في أرض مساحتها ٣٥ فدانًا على مرتفع فسيح، ويقال إنها سميت «الحمراء» نسبة إلى لون قرميدها، وفي هذا

القصر كانت بركة السباع، وفي وسطها تماثيل أسود تقذف المياه من أفواهها على شكل جميل.

وبنى المنصور بن الأعلى قصرًا فخيمًا في بجاية، أنشأ فيه بركة على حافاتها أسود يجري الماء من أفواهها، وعلى البركة أشجار من ذهب وفضة ترمي فروعها في الماء، وعلى أغصانها أطيار من أشكال شتى بألوان بديعة وصنع عجيب، على مثال الشجرة التي ذكرنا أنها نصبت في قصر المقتدر العباسي عند كلامنا عن أبنية العباسيين، وقد نظم محمد بن حمديس الشاعر الأندلسي قصيدة يصف بها بركة هذا القصر وخروج الماء من أفواه الأسود قال منها:

وضراغم سكنت عرين رياسة	تركت خرير الماء فيه زئيرًا
فكأنما غشي النضار جسومها	وأذاب في أفواهها البلورا
أسد كأن سكونها متحرك	في النفس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكرت فتكاتها فكأنما	أقعت على أدبارها لتثورا
وتخالها والشمس تجلو لونها	نارًا وألسنها اللواحس نورا
فكأنما سلت سيوف جداول	ذابت بلا نار فعدن غديرا
وكأنما نسج النسيم لمائه	درعًا فقدر سردها تقديرا[٢٢]

وقس على ذلك قصر المأمون بن ذي النون الأندلسي، فإنه أنفق في بنائه بيوت الأموال، وكان من عجائبه أنه صنع فيه بركة ماء كأنها بحيرة، وبنى في وسطها قبة من زجاج وساق الماء من تحت الأرض حتى علا فوق رأس القبة بتدبير أحكمه المهندسون، فكان الماء ينزل من أعلى القبة وحواليها محيطًا بها متصلًا بعضه ببعض، فكانت القبة في غلالة من ماء سكبًا لا يفتر والمأمون قاعد فيها.[٢٣]

(٣-٤) مباني مصر

مباني آل طولون

أنشأ بنو طولون في مصر أبنية أشهرها الجامع الذي بناه أحمد بن طولون، لا تزال آثاره إلى الآن بالقاهرة، والقصر الذي بناه في القطائع وجعل له ميدانًا كبيرًا، ولما توفي أحمد زاد فيه ابنه خمارويه وجعل الميدان كله بستانًا زرع فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر،

ونقل إليه الشجر اللطيف الذي ينال ثمره القائم (أي الرجل الواقف) ومنه ما يتناوله الجالس من أصناف خيار النخل، وحمل إليه كل صنف من الشجر المطعم العجيب وأنواع الورد، وزرع فيه الزعفران وكسا أجسام النخل نحاسًا مذهبًا حسن الصنعة، وجعل بين النحاس وأجساد النخل مزاريب الرصاص وأجرى فيها الماء المدبر، فكان يخرج من تضاعيف قائم النخل عيون الماء فتنحدر إلى فساق معمولة، ويفيض منها الماء إلى مجار تسقي سائر البستان، وغرس فيه من الريحان المزروع على نقوش معمولة وكتابات مكتوبة يتعهدها البستاني بالمقراض حتى لا تزيد ورقة على ورقة، وزرع فيه النيلوفر الأحمر والأزرق والأصفر الجنوي العجيب، وأهدى إليه من خراسان وغيرها كل أصل عجيب، وطعموا له شجر المشمش باللوز وأشباه ذلك من كل ما يستظرف ويستحسن، وبنى فيه برجًا من خشب الساج المنقوش بالنقر النافذ ليقوم مقام الأقفاص، وزوقه بأصناف الإصباغ وبلط أرضه وجعل في تضاعيفه أنهارًا لطافًا جدًّا ولها يجري الماء مدبرًا من السواقي التي تدور على الآبار العذبة ويسقي منها الأشجار وغيرها، وسرح في هذا البرج من أصناف القماري والدباسي والنونيات وكل طائر جميل الشكل حسن الصوت، فكانت الطير تشرب وتغتسل من تلك الأنهار الجارية في البرج، وجعل فيه أوكارًا في قواديس لطيفة ممكنة في جوف الحيطان لتفرخ الطيور فيها، وعارض لها فيه عيدانًا ممكنة في جوانبه لتقف عليها إذا تطايرت حتى يجاوب بعضها بعضًا بالصياح، وسرح في البستان من الطير العجيب كالطواويس ودجاج الحبش ونحوها شيئًا كثيرًا.

وعمل في داره مجلسًا برواقه سماه بيت الذهب، طلى حيطانه كلها بالذهب المحلى باللازورد المعمول في أحسن نقش وأظرف تفصيل، وجعل فيه على مقدار قامة ونصف صورًا في حيطانه بارزة من خشب معمول على صورته وصور حظاياه والمغنيات اللاتي تغنينه بأحسن تصوير وأبهج تزويق، وجعل على رءوسهن الأكاليل من الذهب الخالص الإبريز الرزين، والكوادن المرصعة بأصناف الجواهر وفي آذانها الأجراس الثقال الوزن المحكمة الصنعة، وهي مسمرة في الحيطان ولونت أجسامها أشباه الثياب من الأصباغ العجيبة، فكان هذا البيت من أعجب مباني الدنيا.

وجعل بين يدي هذا البناء فسقية ملأها زئبقًا، وذلك أنه شكا طبيبه كثرة السهر فأشار عليه بالتدليك فأنف من ذلك وقال: «لا أقدر على وضع يد أحد عليَّ.» فقال له: «تأمر بعمل بركة من زئبق.» فعمل بركة يقال إنها خمسون ذراعًا طولًا في خمسين ذراعًا عرضًا وملأها من الزئبق فأنفق في ذلك أموالًا عظيمة، وجعل في أركان البركة سككًا من

الفضة الخالصة، وجعل في السكك زنانير من حرير محكمة الصنعة في حلق من الفضة، وعمل فرشًا من أدم (أي: جلد) يحشى بالريح حتى ينتفخ فيحكم حينئذ شده ويُلقى على تلك البركة وتشد زنانير الحرير التي في حلقة الفضة بسكك الفضة، وينام على هذا الفرش فلا يزال الفرش يرتج ويتحرك بحركة الزئبق ما دام عليه، وكانت هذه البركة من أعظم ما سمع به من الهمم الملوكية يُرى لها في الليالي المقمرة منظر بهيج إذا تألف نور القمر بنور الزئبق.[٢٤]

مباني الفاطميين

ولما أفضى الأمر إلى الفاطميين بنوا في القاهرة الجامع الأزهر، وهو عامر إلى اليوم، وقصورًا أشهرها القصران الشرقي والغربي، وأنفقوا على الأخير منهما ٢٠٠٠٠٠٠ دينار،[٢٥] فقس على ذلك ما أنفقوه في سائر القصور والدور، كدار الفطرة ودار الديباج وغيرهما، ولما استبحر عمرانهم تفننوا في بناء المقاصير والمناظر على ضفة الخليج وشاطئ النيل، كمنظرة الجامع الأزهر، ومنظرة اللؤلؤة على الخليج، ومنظرة الغزالة بجانبها، ومنظرة السكرة، ومنظرة الدكة، ومنظرة المقس، ومنظرة التاج، ومنظرة باب الفتوح، ومنظرة البعل، ومنظرة دار الملك، غير المتنزهات العظيمة والقصور الفخيمة في الجزيرة والروضة، كالقصر الذي بناه الآمر بأحكام الله لمحبوبته البدوية وسماه الهودج.

وكانوا يتأنقون في زخرفة تلك المناظر والقصور تأنقًا عظيمًا يدل على مبلغ حضارتهم وتفننهم، فمنظرة بركة الحبش كانت مصنوعة من خشب مدهون صور فيها الشعراء، كل شاعر وبلده وعند رأس الشاعر أبيات نظمها في ذكر المنظرة، وبجانب كل صورة رف لطيف مذهب، فإذا دخل الخليفة وقرأ الأشعار أمر أن يحط على كل رف صرة مختومة فيها خمسون دينارًا، فيدخل الشاعر ويأخذ صرته.[٢٦]

مباني الأيوبيين والمماليك

ولما انتقلت الدولة إلى الأكراد كان أعظم آثارهم البنائية قلعة القاهرة، بناها السلطان صلاح الدين ليعتصم بها من الشيعة، ولا تزال قائمة إلى اليوم.

ومعظم ما في مصر الآن من الآثار البنائية إنما هو من أعمال السلاطين المماليك ولا سيما المساجد، كجامع السلطان حسن وجامع المؤيد وقايتباي وقلاوون وغيرها، ومن

آثارهم قبور الخلفاء خارج القاهرة فإنها لهم، وإن نسبت إلى الخلفاء بالاسم، غير ما اندثر من قصورهم، وكانوا يقلدون الفاطميين في زخرفها كالرفرف الذي بناه الأشرف خليل بن قلاوون عاليًا يشرف على الجيزة كلها، وصور فيه أمراء الدولة وخواصها وعقد عليه قبة على عمد وزخرفها وكان السلطان يجلس فيه، وقصر يلبغا، بناه الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٣٨هـ، لسكنى الأمير يلبغا حيث مدرسة السلطان حسن تجاه القلعة، وغيرها.

هوامش

(١) فصلنا ذلك بمقالات في «النهضة المالية المصرية» في السنتين ١٣ و١٤ من الهلال.

(٢) Aperçu sur l'Egypte. 1, 265.

(٣) المقريزي ١٠٠ ج١.

(٤) المقريزي ١٨٢ ج١.

(٥) المقريزي ١٨٩ ج١.

(٦) المقريزي ٢٤١ ج١.

(٧) نفح الطيب ٢٥٦ ج١.

(٨) Gibbon, 1829.

(٩) رحلة ابن جبير ٢٦٣٠

(١٠) الكامل للمبرد ٢٨٧.

(١١) المسعودي ٢٧٩ ج٢.

(١٢) ابن الأثير ٣٣ ج٧.

(١٣) ابن الأثير ٢٨ ج٦.

(١٤) المسعودي ٣٢٨ ج٢.

(١٥) معجم ياقوت ٨٠٦ و٩٢٤ ج١.

(١٦) معجم ياقوت ٥٢٠ ج٣.

(١٧) نفح الطيب ٢١٩ ج١.

(١٨) نفح الطيب ٢٦٠ ج١.

(١٩) نفح الطيب ٢٤٨ و٢٦٧ ج١، وابن خلكان ٢٩ ج٢.

(٢٠) نفح الطيب ٢٤٨ ج١.
(٢١) نفح الطيب ٢٢٦ ج١.
(٢٢) نفح الطيب ٢٣٣ ج١.
(٢٣) سراج الملوك ٥٠.
(٢٤) المقريزي ٣١٦ ج١.
(٢٥) المقريزي ٤٥٧ ج١.
(٢٦) المقريزي ٤٨٦ ج١.

الثروة والرخاء ونتائجهما

واشتغال الخلفاء والأمراء بإنشاء المدن وبناء القصور والمتنزهات إنما هو من ثمار الثروة وتكاثر النقود في بيوت الأموال، فتنتقل إلى رجال الدولة وغيرهم على ما بيناه في نظام الاجتماع، ولذلك كان الخليفة أكثر الناس مالًا؛ لأنه قابض على بيت المال، يليه الوزراء والكتاب والعمال فبنو هاشم فالأتباع والتجار وغيرهم، وإليك أمثلة من ذلك.

(١) ثروة الخلفاء وأهليهم

لما كان الخلفاء يتولون شئون الدولة بأيديهم كانوا أكثر الناس ثروة، فلما عهدوا بها إلى الوزراء تحولت الثروة إليهم، وأصبح الخلفاء أحيانًا مثل سائر الفقراء،[١] والأصل في ثروة بيت المال أن تكون للدولة تُنفق في مصالحها، وللخليفة بيت مال خاص به، ولكن الخلفاء تصرفوا في أموال الدولة أولًا لاعتبارهم إنفاقها مساعدًا على تأييدها، ثم أنفقوها في الجوائز والهدايا لمثل هذه الغاية، وتدرجوا إلى بذلها في ملذاتهم وسائر أسباب تنعمهم، وكان يبقى مع ذلك في بيوت الأموال شيء كثير، وقد بينا في الجزء الثاني من هذا الكتاب مقدار ما بقي منها في خزائن الخلفاء الأولين من بني العباس: المنصور والمهدي والمعتصم والمستعين والمكتفي وغيرهم، وما صار إليهم من الضياع الكثيرة، وذكرنا ما بلغت إليه ثروة أمهات الخلفاء ولا سيما الخيزران أم الرشيد وقبيحة أم المعتز وغيرهما، فلا حاجة إلى التكرار، وإنما نأتي ببعض التفاصيل على سبيل المثال، ذكروا أن المكتفي خلف ١٠٠٠٠٠٠٠ دينار هذا تفصيلها:[٢]

دينار	
٢٠٠٠٠٠٠٠	من العين والورق (أي: الفضة) والأواني المعمولة.
٢٠٠٠٠٠٠٠	من الفرش.
٢٠٠٠٠٠٠٠	من الكراع والسلاح والغلمان.
٢٠٠٠٠٠٠٠	من الضياع والعقار والأملاك.
٢٠٠٠٠٠٠٠	من الجوهر والطيب وما يجري مجراهما.

(٢) ثروة رجال الدولة وغيرهم

وذكرنا في الجزء الثاني أيضًا سبب ثروة الوزراء ومقادير الأموال التي حصلها الحسن بن الفرات والمادرائي وابن كلس والأفضل وابن شهيد الأندلسي وإليك أمثلة أخرى:

أول من أثرى من الوزراء البرامكة في عهد الرشيد، فكثرت ضياعهم (الأبعديات والجفالك)، حتى بلغت غلة يحيى وابنه جعفر فقط ٢٠٠٠٠٠٠٠ دينار في السنة، ولما نكبوا وقبضت أموالهم بلغ مقدار ما قبض منها ٣٠٦٧٦٠٠٠ دينار غير الضياع والدور والرياش،[٣] ويشبه الوزراء ببغداد الكتاب بمصر، وقد أثرى منهم جماعة كبيرة كآل المادرائي، في أواسط القرن الثالث للهجرة، فملك أحدهم محمد بن علي المادرائي ما قيمته ٣٠٠٠٠٠٠ دينار من الضياع بالشام ومصر والأمتعة مع كثرة ما كانوا ينفقونه على الناس من الرواتب، وكانت غلته ٤٠٠٠٠٠ دينار في السنة،[٤] وهو مع ذلك لا يعد شيئًا بالنظر إلى البرامكة، ومثلهم آل المغربي وآل الكتامي بمصر أيضًا.

أما العمال والأمراء فقد كانوا يحشدون الأموال الكثيرة، ولا سيما المفوضين منهم، ويسهل ذلك عليهم لإطلاق أيديهم في مصادر الجباية فيجمعون ما شاءوا وكيف شاءوا، وقد أثروا وكثرت أموالهم من أيام بني أمية قبل زمن الوزراء، فخلف عمرو بن العاص سبعين بهارًا من الدنانير — والبهار أردبان بالمصري — ذهبًا،[٥] وبلغت غلة خالد القسري ١٣٠٠٠٠٠٠ درهم،[٦] وصاروا في عهد بني العباس أوفر ثروة، ولا سيما بعد أن طمعوا في الاستقلال، فخلف يعقوب بن الليث الصفار في بيت ماله ٥٠٠٠٠٠٠٠ درهم و٤٠٠٠٠٠ دينار،[٧] وقس على ذلك أموال السلاطين المماليك بمصر ورجالهم، وكانت مخلفاتهم من الجواهر والحلي تقدر بالأرطال والقناطير والصناديق، مثال ذلك ما خلفه الأمير

سيف الدين تنكز التستري منها ١٩ رطلًا من الزمرد والياقوت، وستة صناديق جواهر، وفصوص الماس، و١٢٥٠ حبة لؤلؤ كبار مدورة مما زنته درهم إلى مثقال، و٢٤٠٠٠٠ مثقال ذهب، و١٠٠٠٠٠٠٠ درهم فضة، وأربعة قناطير مصرية من المصاغ والعقود ونحوها كالحلق والأساور، وستة قناطير فضيات، و١٢٠٠٠٠٠ دينار، فقس عليه ثروة الخلفاء الفاطميين والسلاطين والمماليك وغيرهم من سلاطين المسلمين وملوكهم.

غير ثروة الحواشي والأتباع، ممن أُثري بالصناعة والأدب أو التجارة، فقد ذكرنا ثروة بعض التجار فيما تقدم، فاعتبر ذلك في سواهم من الأطباء والمغنين والشعراء، فإن إبراهيم الموصلي مغني الرشيد توفي عن ٢٤٠٠٠٠٠٠ درهم،[٨] وذكرنا في باب الرواتب من الجزء الثاني ما كان يقبضه جبرائيل بن بختيشوع طبيبه.

(٣) نتائج الثروة

من قواعد العمران إذا تكاثرت الأموال في أيدي الناس أن يتوسعوا في الإنفاق ويتنعموا بمعيشتهم، فيتأنقوا في الطعام والشراب والسماع وغيرها من الملذات الجسدية، ويتنعموا بالألبسة الثمينة والرياش الفاخر، ثم يطلبوا الملذات المعنوية من التفاخر باقتناء المجوهرات والعقارات، ويلتمسوا سعة الشهرة فيقربوا من يضمن لهم ذلك كالشعراء ورواة الأخبار في ذلك العهد، كما يفعل بعض أغنياء زماننا بالتقرب من أرباب الصحافة، ونقسم الكلام في هذا الباب إلى فصول:

(٣-١) التأنق في الطعام

قد رأيت في كلامنا عن أطعمة العرب أنها كانت ساذجة قليلة، ثم تعددت بعد الاختلاط بالأعاجم ولا سيما الفرس، والعرب قلدوا الفرس في أكثر أسباب الحضارة، فضلًا عن نظام الحكومة، فكانوا إذا أحوجهم الاحتفال بعيد أو عرس أو ختان سألوا عما يفعله الفرس في مثله وقلدوهم فيه، هموا بذلك من عهد الأمويين، وكان الصحابة قبلهم يتحاشون التنعم اقتداء بخلفائهم الراشدين مع غلبة البداوة على طباعهم، فأبو موسى الأشعري كان يتجافى عن آكل الدجاج؛ لأن العرب لم يعهدوا ذلك، وكانوا يتجنبون الإكثار من أكل اللحوم ويعتقدون أضرارها، نحو ما يعتقده النباتيون اليوم تمثلًا بما قاله عمر بن الخطاب: «مدمن اللحم كمدمن الخمر.» فلما حكم الأمويون ومالوا إلى

التنعم كان الفرس أحسن مثال لهم، وأراد غير واحد من أمراء العراق تقليدهم في ذلك، ولكن البداوة كانت تتغلب عليهم فيرجعون، ذكروا أن الحجاج بن يوسف أولم لختان أحد أولاده، فاستحضر بعض الدهاقين ليسأله عن ولائم الفرس وقال: «أخبرني بأعظم صنيع شهدته.» فقال: «شهدت أيها الأمير بعض مرازبة كسرى وقد صنع لأهل فارس صنيعًا أحضر فيه صحائف الذهب على أخونة الفضة أربعًا على كل واحد، وتحمله أربع وصائف ويجلس عليه أربعة من الناس، فإذا أطعموا أتبعوا أربعتهم المائدة بصحافها ووصائفها.» فلما سمع الحجاج ذلك أكبره وغلبت عليه البداوة فقال: «يا غلام انحر الجزر وأطعم الناس[٩] …»

على أنهم ما لبثوا أن رضخوا لتيار الترف وتكيفوا لموافقة البيئة التي تحف بهم، فبعد أن كانوا يحسبون الكافور ملحًا والأرز طعامًا مسمومًا والخبز المرقق كاغدًا، وبعد أن أكلوا العلهز والخنافس والعقارب وعجنوا الحنطة بنخالتها،[١٠] فاقوا الفرس والروم في التأنق والتنعم، فتفننوا في معالجة اللحوم واصطناع التوابل المنبهة لشهوة الطعام التماسًا للمزيد من اللذة، فكان الخلفاء والملوك من بني هاشم إذا جلسوا إلى الطعام يقف الأطباء بين أيديهم ومعهم البراني بالجوارشنات الهاضمة المسخنة الطابخة المقوية للحرارة الغريزية في الشتاء على اصطلاحهم في ذلك العصر، ويقفون في الصيف ومعهم الأشربة الباردة والجوارشنات الموافقة لذلك الفصل،[١١] واقتدى بهم سائر الأمراء وأهل الدولة فكانوا يستشيرون الأطباء ويستعينون بهم في حفظ صحتهم، حتى في أثناء الطعام وهم على المائدة، وكان سيف الدولة إذا حضر الطعام جلس معه على المائدة ٢٤ طبيبًا أرزاقهم جارية.

وغالى الخلفاء في استحضار ما اشتهر بطيبه من ألوان اللحوم والطيور والفاكهة ولو بعد مكانه، فيحملونه على البريد ينفقون في ذلك الأموال الكثيرة،[١٢] وكانوا يربون الطيور الداجنة على أطعمة مغذية يتوهمون أنها تزيد في لذة طعمها أو نفعها أو تسهل هضمها، فكانوا يعلفون الفراريج الجوز المقشر ويسقونها اللبن الحليب،[١٣] وتفنن الطهاة في اصطناع الأطعمة التي يظنون فيها الغذاء الكثير أو النفع الصحي، وربما فعل بعضهم ذلك مغالاة في الاحتفاء، كما فعل إبراهيم بن المهدي في زيارة زاره فيها الرشيد فاصطنع له أطعمة بينها جام سمك مقطع فاستصغر قطعه، فسأله الرشيد عن ذلك فقال: «يا أمير المؤمنين هذه ألسنة السمك.» وقدرت نفقة ما في ذلك الجام بألف درهم،[١٤] وقس عليه تفننهم في اصطناع الفالوذج بدهن الفستق والمخ المعقود بالسكر والطبرز والعسل.

فاتسعت مطابخ الخلفاء والأمراء لتعدد ألوان الأطعمة والتوسع في النفقة عليها، حتى صار لكل صنف منها خدم عليهم رئيس، فكان عندهم لتربية الطيور إدارة قائمة بذاتها عليها رئيس، وبلغت علوفة البط وحدها على أيام المقتدر العباسي ٣٠ قفيزًا من الشعير كل شهر[١٥] فاعتبر كم يحتاج إليه أحدهم إذا أراد نقل مطبخه من الدواب لحمله، ذكروا أن عمرو بن الليث الصفار كان مطبخه يحمل على ٦٠٠ جمل،[١٦] وكان للخليفة المقتفي العباسي ثمانون جملًا تحمل الماء من دجلة لشرب عياله،[١٧] وأما مقدار المطبوخ من كل طعام فلا قياس له، على أنهم كانوا يجعلونه أضعاف ما يحتاجون إليه مخافة أن يطرقهم أضياف، فكانت الأطعمة تفيض بمقادير كبيرة يحملها الخدم ويبيعونها ويرتفقون بأثمانها.[١٨]

فنتج من الانغماس في الأكل والتفنن في التشويق إليه كثير من علل القناة الهضمية، توالت على أهل الترف في ذلك العهد كالقولنج وتلبك المعدة والدوزنطاريا، وغيرها من عواقب النهم في اللحوم كالنقرس والروماتزم ونحوهما، وتسلطت السويداء على أمزجتهم، وتولتهم حدة المزاج فجرهم الغضب إلى سرعة الفتك والقتل من تغلب السويداء، كما يتضح من مراجعة أخبارهم، وعلة ذلك في الغالب فساد الهضم، واشتهر من الخلفاء والأمراء غير واحد من الأكلة، منهم في أيام بني أمية معاوية بن أبي سفيان وعبيد الله بن زياد والحجاج بن يوسف وسليمان بن عبد الملك، واشتهر من بني العباس محمد الأمين.[١٩]

(٣-٢) البذخ في الألبسة

كان المسلمون في صدر الإسلام يتوخون الخشونة في العيش والتعفف في المطعم والملبس، فكان الخليفة من الراشدين يمشي في الأسواق وعليه القميص الخلق المرقوع إلى نصف ساقه، أو ثوب من كرباس غليظ وفي رجله نعلان من ليف وحمائل سيفه من ليف وفي يده درة يستوفي الحد بها،[٢٠] وكان عمالهم في مثل حالهم، إذا وفد أحدهم على الخليفة لبس جبة صوف وتعمم بعمامة دكناء واحتذى خفين ودخل عليه،[٢١] وأول من اتخذ زي الملوك من أمراء المسلمين معاوية منذ كان أميرًا في الشام، وقدم عليه عمر بن الخطاب في أثناء ذلك، فلما رآه في أبهة الملك أنكرها عليه، وقال له: «أكسروية يا معاوية؟»[٢٢]

ثم تحضروا وكثرت الأموال بين أيديهم وخالطوا أهل الترف من الأعاجم، فاضطروا بطبيعة المدنية إلى التبسط في العيش والتنعم باللباس، وأحب الأمويون الوشي كما تقدم، وأكثرهم رغبة في لبسه هشام بن عبد الملك، فاجتمع عنده ١٢٠٠٠ قميص وشي، و١٠٠٠٠ تكة حرير، وكانت كسوته إذا حج تُحمل على ٧٠٠ جمل،[٢٣] وفي أيامهم تسابق الصناع إلى إجادة الوشي، وزاد المسلمون بذخًا في أيام بني العباس، ورغب أهل التجارة في حمل أصناف المنسوجات الحريرية والصوفية بين موشى ومطرز ومحوك بالذهب أو الفضة ومرصع بالحجارة الكريمة على اختلاف البلاد التي يصنع فيها، على نحو ما بيناه في كلامنا عما يحمل من أصناف التجارة إلى بغداد.

ومن أهم المنسوجات الثمينة الخز، وهو نسيج ناعم يصنع من الحرير ومن وبر الخرز وهو ذكر الأرانب،[٢٤] والأبريسم حرير خالص، والديباج نسيج حرير موشى بالقصب بأشكال الحيوانات ونحوها، والبز نسيج قطني ثمين وغير ذلك من أصناف الحرير والكتان والأوداري، والملحم والمعلم والمنير ومنسوجات الشعر أو الوبر أو الصوف، وما يلحق ذلك من أنواع السمور والقاقم وغيره؛ يصنعون منها الأقبية والدراريع والطيالسة والجبب والعمائم والأبراد والغلائل والملاحف والمآزر والسراويلات والشاشيات والتكك وغيرها.

وكان الصناع يتبارون في إتقان هذه الصناعات ويغالون في ترفيعها، لما يلاقونه من البذل في ابتياعها لتوفر الثروة بين أيدي الناس ولا سيما الخليفة وأهل دولته، فكان هؤلاء يتهافتون على اقتناء الألبسة، لا يبالون كم يكون ثمنها حتى بلغت قيمة العمامة من الديبقي خمسمائة دينار، وهم مع ذلك يكثرون من اقتنائها، وربما لبس الواحد ٩ أقبية كل قباء بلون خاص للمفاخرة في البذخ، وقد تزيد على أضعاف حاجتهم إليها فيجتمع عند أحدهم عشرات أو مئات أو ألوف من القطعة الواحدة ولا سيما الخلفاء، مثاله ما خلفه المكتفي بالله من الألبسة وهو:

عدد	
٤٠٠٠٠٠٠	من الثياب المقصورة سوى الخامات.
٦٣٠٠٠	من الأثواب الخراسانية المروية.
٨٠٠٠	من الملاءات.

عدد	
١٣٠٠٠	من العمائم المروية.
١٨٠٠	من الحلل الموشاة اليمانية وغيرها منسوجة بالذهب.
١٨٠٠٠	من البطائن التي تحمل من كرمان في أنابيب القصب.
١٨٠٠٠	من الأبسطة الأرمنية.

وتوفي ذو اليمينين وفي خزانته ١٣٠٠ سروال لم يستعملها، ووجدوا في كسوة بختيشوع الطبيب ٤٠٠ سروال ديبقي، ولما قتل برجوان خادم الوزير بمصر وجدوا في تركته ألف سروال ديبقي بألف تكة حرير.

وغالوا في البذخ حتى كسوا دوابهم المنسوجات الحريرية الموشاة، وكان الفاطميون يلبسون الفيلة أجلة في الخسرواني الأحمر المذهب، وكان في القاهرة دار يصنع فيها الديباج ونحوه، وكان عند الفاطميين خزانة للثياب يسمونها دار الكسوة يصطنعون فيها جميع أنواع الثياب والبز، ويكسون بها الناس على اختلاف أصنافهم كسوة الشتاء وكسوة الصيف، وقد فصل المقريزي ما تحويه تلك الدار من الألوان والأشكال،[٢٥] ولما جهز خمارويه ابنته قطر الندى إلى الخليفة المعتضد العباسي كان من جملة الجهاز ألف تكة ثمن الواحدة عشرة دنانير،[٢٦] وقس عليه سائر الملابس.

(٣-٣) الأثاث والرياش والمجوهرات

كان الخلفاء الراشدون يجلسون على الأرض مثل سائر الناس وكذلك عمالهم، فكان عمرو بن العاص بمصر يجلس في قصره على الأرض مع العرب، ويأتيه المقوقس ومعه سرير الذهب محمول على الأيدي لجلوسه شأن الملوك يومئذ، فيجلس عليه وهو على ما تقدم، وفاء له بما اعتقد معهم من الذمة واطراحًا لأبهة الملك، فما لبث المسلمون أن تحضروا وأثروا حتى اتخذوا الأسرة من الذهب والعاج وفاقوا الأكاسرة والقياصرة قبلهم، وأول من اتخذ السرير في الإسلام معاوية بن أبي سفيان، ويريدون بالسرير المقعد أو الكرسي الكبير، ولم يقعد معاوية على ذلك إلا بعد استئذان المسلمين، واعتذر بثقل جسمه فزعم أنه بدين، فأذنوا له فاتخذه واقتدى به من جاء بعده من الخلفاء.[٢٧]

الأثاث والرياش عند الفرس

لما خرج المسلمون للفتح في زمن الراشدين كان أكثر ما لقوه من الفرش الفاخر والمجوهرات الثمينة في فارس وعند فتح المدائن، فدهشوا منه ولم يعرفوا قيمته، ذكروا بدويًّا ظفر يوم المدائن بحجر من الياقوت كبير يساوي مبلغًا عظيمًا فلم يدر قيمته، فاشتراه منه بعضهم بألف درهم، ثم علم أنه كان يساوي أضعاف ذلك المبلغ فلامه أصحابه على تفريطه به فقال: «لو عرفت عددًا أكثر من الألف لطلبته.»[٢٨]

وكان في جملة ما عثروا عليه في المدائن كثير من الآنية والحلية الذهب المرصعة بالجوهر، وفيها تاج كسرى نفسه وألبسة من الديباج المنسوج بالذهب المنظوم بالجوهر، وظفر آخرون بسفطين في أحدهما فرس من ذهب بسرج من فضة وعلى ثغره ولباته الياقوت والزمرد المنظوم على الفضة وفارس من فضة مكلل بالجوهر، وفي الآخر ناقة من فضة عليها شليل من ذهب مكلل بالجوهر، ووقع لهم بساط يسمونه القطيف طوله ٦٠ ذراعًا في ٦٠ مطرز بالصور وعليه فصوص كالأنهار أرضها مذهبة، وخلال ذلك فصوص كالدر، وفي حافته كالأرض المزروعة والأرض المبقلة بالنبات في الربيع، والورق من الحرير على قضبان الذهب والفضة وثمره الجوهر، وحمل هذا البساط إلى عمر في المدينة فقطعه وفرقه في أصحابه مثل سائر الغنائم.[٢٩]

وكان عمر إذا جاءته الغنائم من العراق وفيها الجوهر بكى لما كان يخافه من مصير المسلمين إلى الترف المؤذن بالانحدار، وكذلك أبو بكر الصديق، وله السبق في نصرة الإسلام والفضل في تأييده، فلما حضرته الوفاة وبخ المهاجرين وخوفهم وقال: «والله لتتخذن نضائد الديباج وستور الحرير.» والنبي ﷺ قبلهما نهى عن لبس الحرير واتخاذ آنية الذهب،[٣٠] فلم ينفعهم ذلك كله، فما كادوا يأخذون بأطراف الحضارة حتى انغمسوا في أسباب التنعم بالفرش الوثير والرياش الفاخر.

بدأ بذلك الأمويون لما تقدم من رغبتهم في الدنيا وتحويلهم الخلافة إلى الملك، فأكثر خلفاؤهم المسرفون ولا سيما الوليد بن يزيد من عقود الجوهر يغيرها في كل يوم كما تغير الثياب، وكان يجمعه من كل وجه ويغالي فيه حتى أغلاه،[٣١] على أنهم اقتصروا من أسباب الحضارة على مثل ذلك لرغبتهم في البقاء على البداوة، إلا ما اتخذوه من الستائر المطرزة التي كانت تُصنع لهم في مصر كما تُصنع للروم من قبل، عليها طراز باليونانية مفاده البسملة عند النصارى،[٣٢] فأبدلها عبد الملك بالطراز العربي بسورة التوحيد، غير ما استعملوه من الوسائد المزركشة.

الأثاث والرياش عند العباسيين

لما انتقلت الخلافة إلى العباسيين اشتغل السفاح والمنصور بتأسيس الدولة وتأييدها، فلما تأيد سلطانهم مالوا إلى الترف فأخذوا بتقليد الدول السابقة لهم عملًا بناموس العمران، فاقتنوا الأسرة الذهب المرصعة بالجوهر أو الأبنوس المطعم بالعاج، واتخذوا المقاعد والنمارق والكراسي، ونصبوا منائر الذهب أوقدوا فيها الشموع من العنبر، وعلقوا الستور المطرزة والموشاة، وافترشوا البسط والطنافس المزركشة والحصر المنسوجة بالذهب المكللة بالدر والياقوت،[٣٣] وغالوا في اقتناء آنية الذهب والفضة يأتون من كل بلد بأحسن مصنوعاته وأثمنها فحملوا الستور المعلمة من فسا، والبسط والمصليات من تستر وبخارا، والحصر من عبادان، والمقاعد من دشت، على أن أحسن أصناف الفرش المذهبة بطراز الذهب كانت تأتيهم من أرمينية، والطاقم الأرمني — وهو عشر مصليات بمخادها ومساندها ومطارحها وبساطها — يساوي خمسة آلاف دينار،[٣٤] وكانت أطباق الخشب لآنية الطعام تأتيهم من طبرستان، والزجاج والخزف من البصرة وأكثره وارد في الأصل من بلاد الصين على ما فصلناه في كلامنا عن التجارة من هذا الجزء، ولكن الزجاج الرقيق كان يُحمل إليهم من الشام وكان يضرب به المثل بالرقة والصفاء فيقال: أرق من زجاج الشام، وأصفى من زجاج الشام[٣٥] اتخذوا ما تقدم من الآنية والمفروشات تقليدًا للفرس والروم على ما كانت عليه عندهم، ثم عربوها فجعلوا ما ينقش عليها من الكتابة باللغة العربية بين أمثال وأشعار وحكم ينقشونها على الستور ويعلقونها بمسامير الذهب والفضة،[٣٦] ويزركشون البسط والطنافس فيرسمون في أواسطها أشكالًا وصورًا مما في البر والبحر ويطرزون حواشيها بالذهب أو القصب أبياتًا من الشعر، وربما طرزوا دور البساط (أي: حافته) بقصيدة،[٣٧] وغالوا في الزخرفة حتى نقشوا الأشعار على آنية البلور وأطباق الطعام وعلى جدران القاعات وفوق أبوابها — يتفاوت ذلك شكلًا ومقدارًا بتفاوت طبقات الناس من المطرز بالحرير إلى المزركش بالقصب فالمحلى بالذهب فالمرصع بالجوهر — كالبساط الذي كان لأم المستعين، وعليه صورة كل حيوان من جميع الأجناس وصورة كل طائر من ذهب وأعينها يواقيت وجواهر أنفقت في صنعه ١٣٠٠٠٠٠٠ درهم.[٣٨]

وأحدث العباسيون في عهد الرشيد أشكالًا من الفرش وفنونه لم يسبقهم إليها أحد، منها ما ينسبون اختراعه إلى زوجته زبيدة، فقد ذكروا أنها أول من اتخذ القباب من الفضة والأبنوس والصندل وكلاليبها من الذهب والفضة ملبسة بالوشي والسمور والديباج وأنواع الحرير الأحمر والأصفر والأخضر والأزرق.[٣٩]

واخترع العباسيون المذاب وهي نوع من المراوح لم تكن معروفة قبلهم،[٤٠] وتفننوا في تزيينها وكتابة الأشعار عليها مما يناسب المراد بها أو يشار به إلى غرض، كما فعل أبو العتاهية في طلب الجارية عتبة من الرشيد، وكان يخاف أن يرده، فأهدى إليه ثلاث مراوح كتب على كل منها بيتًا هذا مجموعها:

ولقد تنسمت الرياح لحاجتي فإذا لها من راحتيه شميم
أعلقت نفسي من رجائك ما له عنق يحث إليك بي ورسيم
ولربما استأسيت ثم أقول لا إن الذي ضمن النجاح كريم[٤١]

على أن كتابة الأشعار على المراوح كانت معروفة في أيام بني أمية.[٤٢]

المجوهرات عند العباسيين

غالى الخلفاء العباسيون في اقتناء المجوهرات، ولا سيما الدر، وهو اللؤلؤ الكبير والياقوت الأحمر القاني ويسمى البهرماني، ويتلوه الأحمر المشرقي الرماني ثم الأزرق الغميق وتشوبه زرقته حمرة ويسمى الاسمانجوني، وبعده الأصفر وهو الفاقع اللون وبعده الذهبي، ولكل من هذه الأشكال قيمة تختلف باختلاف الصفاء والحجم، ومنها الزمرد وأحسنه يعرف بالذبابي لقرب لونه من لون الذباب الكبير المائل إلى الخضرة، والماس كانوا يفضلون منه ما يشوب لونه حمرة يسيرة؛ هذا أهم ما كانوا يتفاخرون باقتنائه من الحجارة الكريمة، وأما الفيروز والمرجان والعقيق والجزع فقلما كان الملوك يقتنونه لكثرته.

وأكثر ما تناقله المسلمون من الحجارة الكريمة في أوائل دولتهم مأخوذ من غنائم الفرس؛ لأنهم غنموا ما يفوق الحصر من الجواهر التي قضى الفرس الأجيال وهم يجمعونها ويتوارثونها، فقبضها العرب صفقة واحدة ولم يعرفوا قيمتها كما بيناه آنفًا، وأصابوا نحو ذلك لما حاربوا الأكراد فإنهم غنموا سفطًا فيه جوهر حملوه إلى عمر في جملة الغنائم، فأمر ببيعه وقسمة ثمنه في المسلمين، فباعه وقسمه وكان الفص يُباع بخمسة دراهم وقيمته عشرون ألفًا.[٤٣]

ولما تحضروا صاروا يشترون الجواهر بالأثمان الغالية، فاشترى الرشيد فص ياقوت أحمر بأربعين ألف دينار، وكان قديمًا ويعرف بالجبل والملوك تصونه، فنقش

عليه الرشيد اسمه،[٤٤] واشترى فصًّا آخر بمائة وعشرين ألف درهم،[٤٥] وعرض أحد تجار المصوغات ببغداد على يحيى بن خالد سفط جوهر فساومه على ثمنه بسبعة ملايين درهم.[٤٦]

وكثيرًا ما كانوا يستخدمون الجواهر بدلًا من المبالغ الكبيرة، فإذا عزم أحدهم على سفر طويل يستغرق نفقة عشرة آلاف دينار مثلًا، فبدلًا من أن يحمل ذلك المال ذهبًا أو فضة استبدله بجوهرة أو عدة جواهر يسهل حملها في الجيب، فإذا وصل إلى البلد المقصود باع الجواهر وأنفق من ثمنها كما يفعل الناس اليوم بتحاويل المصارف المالية أو البنكنوت (العملة الورقية).

وكان الأمويون يرغبون في المجوهرات أيضًا، وقد رصعوا بها الحلي وبعض الآنية واصطنعوا منها العقود للبسهم ولبس نسائهم وجواريهم، أما العباسيون، فبالغوا في ذلك حتى نظموها في عصائب نسائهم كما فعلت أخت الرشيد،[٤٧] ورصعوا بها خفافهن كما فعلت أم جعفر زوجته.[٤٨]

فكان الخلفاء العباسيون يقتنون من الآنية والفرش والمجوهرات والثياب ما لا يعلم مقداره إلا الله، يدلك على ذلك ما قدمناه مما خلفه المكتفي وغيره وما أخرجوه من خزائنهم في فتنة البساسيري في أواسط القرن الخامس من جملته ٧٥٠٠٠ قطعة ديباج و١١٠٠٠ كزاغند و٣٠٠٠٠ سيف، وهو بعض ما كان في دار الخليفة، ومع ذلك فهو لا يقاس بما كان عند الفاطميين كما سترى.

وقد أنكر ابن خلدون ما ذكره المؤرخون عن ترف بني العباس في ملابسهم وزينتهم وسائر متناولاتهم، لما كانوا عليه من خشونة البداوة،[٤٩] واستشهد بالمسعودي والطبري، ولا ينطبق رأيه في ذلك على ما ذكره هذان ولا على ما قاله هو نفسه؛ لأن المسعودي هو الذي أخبرنا بنظم الجوهر في خفاف أم جعفر وهي من أقرب الناس للتقوى، والطبري أورد أخبارًا كثيرة، تدل على ترف العباسيين في عصر الرشيد، غير ما ذكره غيرهما من ثقات التاريخ والأدب المتقدمين كأصحاب الأغاني والعقد الفريد والكامل والمعارف وغيرهم، ونقل المؤرخون عنهم ذلك ولم يكبروه ولا اعترضوا عليه، حتى ابن خلدون نفسه فقد ذكر في مقدمة تاريخه «أن المأمون أعطى بوران في مهرها ليلة زفافها ألف حصاة من الياقوت، وقد أوقد شموع العنبر في كل واحدة مائة مَنّ وهو رطل وثلثان، وبسط لها فرشًا كان الحصير منها منسوجًا بالذهب مكللًا بالدر والياقوت.»[٥٠] ويلوح لنا أن ما كانوا يتجافون عنه في صدر الدولة العباسية إنما هو الركوب بحلية الذهب، وأول

من ركب فيها منهم المعتز بالله،[٥١] فمؤرخنا الفيلسوف شديد الرغبة في تنزيه العباسيين عن الترف وهم من أعرق الخلفاء فيه.

بذخ الفاطميين

كان العباسيون قدوة لمن قام بعدهم من الدول الإسلامية في مصر والشام والمغرب والأندلس، فالفاطميون بمصر كانوا يناظرون العباسيين في كل شيء حتى في أسباب الحضارة، وكان التمدن الإسلامي قد نضج والدولة العباسية أخذت في التقهقر، ففاقوهم في كثير من أسباب البذخ والترف، ولا سيما من حيث الأثاث والرياش والثياب، فقد رأيت أن العباسيين رصعوا عصائب نسائهم وخفافهن بالجواهر، ولكن الفاطميين رصعوا بها آنية المطبخ واتخذوا كوز الزير من البلور مرصعًا بالجوهر، وكللوا المزيرة بحب اللؤلؤ النفيس، وتأنقوا في المصوغات حتى اتخذوا منها التماثيل المرصعة للزينة في مجالسهم، فإذا جلس الخليفة في إحدى المناظر للراحة أو تبديل الثياب وضعوا بين يديه الصواني الذهب، عليها أشكال الصور الآدمية والوحشية من الفيلة والزرافات ونحوها، معمولة من الذهب والفضة والعنبر والمرسين المشدود والمظفور عليها، المكلل باللؤلؤ والياقوت والزبرجد، ومن الصور الوحشية ما يشبه الفيلة بينها عنبر معجمون كخلقة الفيل وناباه فضة وعيناه جوهرتان كبيرتان، في كل منهما مسمار ذهب مجري سواده، وعلى الفيل سرير منجور من عود بمتكات فضة وذهب، وعليه عدة من الرجال ركبان عليهم اللبوس تشبه الزرديات، وعلى رءوسهم الخوذ وبأيديهم السيوف المجردة والدرق وجميع ذلك فضة، ثم صور السباع منحورة من عود وعينا السبع ياقوتتان حمراوان وهو على فريسته وأشكال من سائر الوحوش، وأصناف تشد من المرسين المكلل باللؤلؤ شبه الفاكهة.[٥٢]

وكان للفاطميين في القاهرة دور يختزنون بها أدوات الترف والبذخ يسمونها خزائن، بعضها للفرش والبعض الآخر للجوهر وآخر للطيب وآخر للبنود وآخر للسلاح وآخر للسرج أو الدرق أو الكسوات أو الأدم أو الشراب أو التوابل أو الخيم، وكان الخليفة يذهب إلى مجالس خاصة له في تلك الخزائن، والمجلس عبارة عن دكة عليها طراحة ولها فراش يخدمها وينظفها ليجلس الخليفة عليها إذا زار تلك الخزانة، وقد توسع المقريزي في وصف هذه الدور وما حوته من الآلة والرياش والثياب والجواهر والأطياب مما يضيق عنه هذا المقام فليراجع في مكانه،[٥٣] ونأتي بشيء من ذلك على سبيل المثال:

الحلي والجواهر عند الفاطميين

فمما أخرجوه من خزانة الجوهر في أيام الشدة على عهد المستنصر بالله (توفي سنة ٤٨٧هـ) صندوق فيه سبعة أمداد زمرد سألوا الصياغ عن قيمتها فقالوا: إنما نعرف قيمة الشيء إذا كان مثله موجودًا، واستخرجوا خريطة فيها ويبة جوهر قال الصياغ: إن قيمته لا تقدر وأصل ثمنه ٧٠٠٠٠٠ دينار بيع يومئذ بعشرين ألف دينار، ووجدوا ما لا يُحصى من أقداح البلور المنقوش والمجرود وصحونًا من الميناء منها ما يساوي مئات من الدنانير، وفي مكان آخر ١٨٠٠٠ قطعة من بلور تتراوح أثمانها بين عشرة دنانير وألف دينار كل قطعة، وصوان من الذهب المجراة بالميناء وغير المجراة المنقوشة بأنواع النقوش، و١٧٠٠٠ غلاف خيار مبطن بالحرير محلاة بالذهب، ونحو مائة كأس بادزهر وأشباهها على أكثر اسم هارون الرشيد.

غير ما وجدوه هناك من الصناديق المملوءة بالسكاكين المذهبة والمفضضة وأنصابها من الجواهر المختلفة، وصناديق مملوءة دوي (جمع دواة) على اختلاف الأشكال من الذهب والفضة والصندل والعود والأبنوس والعاج، محلاة بالجواهر مما يساوي ألف دينار إلى بضعة آلاف كل دواة، وعدة أزيار مملوءة كافورًا وعدة جماجم عنبر ونوافج المسك التيبتي وشجرة العود وغيره.

ومما خلفته رشيدة بنت المعز وحفظ هناك ما قيمته ١٧٠٠٠٠٠ دينار من جملتها ١٢٠٠٠ من الثياب المصمت ألوانًا و١٠٠ قاطرميز مملوءة كافورًا قيصوريًا ومعممات بجواهر من أيام المعز، وبيت هارون الرشيد الخز الأسود الذي مات فيه بطوس، ومثل ذلك مما تركته عبدة بنت المعز أيضًا ويطول شرحه، وخزائن مملوءة بأنواع الصيني تساوي القطعة منها ألف دينار، وحصير من الذهب وزنه عشرة أرطال يظن أنه الحصير الذي حملت عليه بوران بنت الحسن بن سهل لما زُفت إلى المأمون كما تقدم، وصوان من الذهب كان ملك الروم أهداها إلى العزيز بالله.

ووجدوا أنواعًا من الشطرنج والنرد مصنوعة من الجوهر والذهب والفضة أو العاج أو الأبنوس، وعددًا كبيرًا من الزهريات ونحوها، ومن تماثيل العنبر ٢٢٠٠٠ قطعة أقل تمثال منها وزنه ١٢ مَنًّا، ومن تماثيل الخليفة ما لا يحد، والكلوتة (أي: الطاقية للرأس) المرصعة بالجوهر قيمتها ١٣٠٠٠٠ دينار فيها من الجوهر ١٧ رطلًا، وطاووس من ذهب مرصع بنفيس الجوهر عيناه من ياقوت أحمر وريشه من الزجاج المينا المجرى بالذهب على ألوان ريش الطاووس، وغزال مرصع بنفيس الدر والجوهر بطنه أبيض قد

نظم من در رائق، ومائدة من الجزع يقعد عليها جماعة قوائمها مخروطة، ونخلة ذهب مكللة بالجوهر وبديع الدر في أجانة من ذهب تجمع الطلع والبلح والرطب بشكله ولونه وعلى صفته وهيئته من الجواهر قيمتها لا تقدر، وكوز زير بلور مرصع يحمل عشرة أرطال ومزيرة مكللة بحب لؤلؤ نفيس وقس على ذلك عشرات من أمثاله.

الفرش والأثاث عند الفاطميين

ووجدوا في خزائن الفرش من أصناف الأثاث والرياش ما يعد بالألوف، من ذلك ١٠٠٠٠٠ قطعة خسرواني أكثرها مذهب، ومراتب خسرواني وقلموني ثمن الواحدة ٣٥٠٠ دينار، وأجلة معمولة للفيلة من الخسرواني الأحمر المذهب، و٣٠٠٠ قطعة خسرواني أحمر مطرز بأبيض من هدبها لم يفصل من كساء البيوت كاملة بجميع آلاتها ومقاطعها، وكل بيت يشتمل على مسانده ومخاده ومساوره ومراتبه وبسطه ومقاطعه وستوره وكل ما يحتاج إليه، ومثل ذلك من المخمل والديباج وسائر أنواع الحرير وعليها أشكال الصور من كل شيء، ونحو ألف من الستور الحرير المنسوجة بالذهب على اختلاف ألوانها وأطوالها، فيها صور الدول وملوكها ومشاهيرها وعلى صورة كل واحد اسمه ومدة أيامه وشرح حاله، و٤٠٠٠ رزمة خسرواني مذهب في كل رزمة فرش مجلس ببسطه وتعاليقه وسائر آلاته منسوجة في خيط واحد، ومن جملتها مقطع من الحرير الأزرق التستري غريب الصنعة منسوج بالذهب وسائر ألوان الحرير كان المعز لدين الله أمر بعمله، وفيه صورة أقاليم الأرض وجبالها وبحارها ومدنها وأنهارها ومساكنها شبه الخارطة الجغرافية، وفيه صورة مكة والمدينة ومكتوب على كل مدينة وجبل وبلد ونهر وبحر وطريق اسمه بالذهب والفضة أو الحرير، وقد كتب في آخره «مما أمر بعمله المعز لدين الله شوقًا إلى حرم الله وإشهارًا لمعالم رسول الله في سنة ٣٥٣هـ.»

فاعتبر ما تدل عليه هذه الآثار من رقي المدنية والحضارة، وكم تكون قيمتها لو وجدت الآن وكم يدفع المتمولون من المبالغ في الحصول عليها.

وقس عليه ما كان في سائر الخزائن من التحف، ففي خزانة السلاح سيف الحسين بن علي، ودرقة حمزة بن عبد المطلب، وسيف جعفر الصادق، ومئات الألوف من الدروع والسيوف والقسي والرماح وغيرها، وفي خزانة السروج ألوف من السروج الثمينة ومنها ما يساوي ألف دينار، وفي خزانة الخيم أنواع الفساطيط والمضارب والمسطحات والحصون والقصور، والشراعات والمشارع العمومية من الديبقي والمخمل والخسرواني والديباج

المكي والأرمني والبهنساوي والكردواني، وغير ذلك على اختلاف الألوان والنقوش من المفيل والمسبع والمخيل والمطوس والمطير غيرها من أشكال السباع والطيور والآدميين مما ينصب على أعمدة ملبسة بالفضة، ومن هذه الفساطيط ما يبلغ طوله ٦٥ ذراعًا كبيرًا يحمله مع ملحقاته مائة جمل، وفي خزانة البنود كثير من الرايات والأعلام الساذجة والمطرزة وغيرها.

ومن أدلة الترف والإسراف في هذه الدولة أن السيدة الشريفة ست الملك أخت الحاكم بأمر الله أهدت أخاها هذا هدايا من جملتها ثلاثون فرسًا بمراكبها ذهبًا، منها مركب واحد مرصع ومركب من حجر البلور وتاج مرصع بنفيس الجوهر وبستان من الفضة مزروع من أنواع الشجر.

وقد يتبادر إلى الذهن أن ما تقدم ذكره لا يخلو من مبالغة أو هو من قبيل الأحاديث الخرافية، ولكن مصر اشتهرت في العصور الإسلامية الوسطى بالثروة مثل شهرة بغداد في إبان حضارتها، واشتهر المصريون بالترف والغنى حين كان الناس يشكون الضيق،[٥٤] ولذلك قالوا: «من دخل مصر ولم يستغن فلا أغناه الله.» وقد تواتر ذكر هذه التحف وأمثالها في كتب الثقات وبعضهم شهد الأمر بنفسه، ورأى هذه التحف رأي العين ومنهم ابن الأثير المؤرخ الشهير، فقد ذكر في حوادث سنة ٥٦٧هـ التي أقام فيها السلطان صلاح الدين الخطبة بمصر للدولة العباسية واستولى على ما كان باقيًا في قصور الخلافة من التحف والجواهر بعد ما أصابها من النهب في فتنة المستنصر وغيره؛ قال: «وحمل الجميع إلى صلاح الدين، وكان من كثرته يخرج عن الإحصاء، وفيه من الأعلاق النفيسة والأشياء الغريبة ما تخلو الدنيا من مثله، ومن الجواهر التي لم توجد عند غيرهم، فمنه الحبل الياقوت وزنه سبعة عشر درهمًا أو ١٧ مثقالًا أنا لا أشك؛ لأني رأيته ووزنته، واللؤلؤ الذي لم يوجد مثله ومنه النصاب الزمرد الذي طوله أربع أصابع في عرض عقد كبير.»[٥٥]

بذخ الأندلسيين

واقتدى بالعباسيين في الترف والبذخ الأندلسيون، ولكنهم لم يبلغوا مبلغ المصريين فيهما، على أن بعضهم تفنن بذلك على شكل لم يسبقه أحد إلى مثله، فالمنصور بن أبي عامر في أواخر القرن الرابع قدم عليه رسول ملك الروم، وهو أعظم ملوك النصارى في ذلك الزمان، ليطلع على أحوال المسلمين وقوتهم، فأراد المنصور أن يبغته بما يطلعه عليه من

عز الدولة وثروة المملكة، فأمر أن يغرس في بركة عظيمة ذات أميال نيلوفر، ثم أمر بأربعة قناطير من الذهب وأربعة قناطير من الفضة فسبكت قطعًا صغارًا قدر ما تسع النيلوفرة، وملأ بها جميع النيلوفر وبعث إلى الرسول فحضر عنده قبل الفجر في مجلسه بالزاهرة فأجلسه بحيث يشرف على موضع البركة، فلما قرب طلوع الشمس جاء ألف من الصقالبة عليهم الأقبية والمناطق من الذهب والفضة، وبيد ٥٠٠ منهم أطباق من ذهب وبيد ٥٠٠ أطباق من فضة، فتعجب الرسول من جمالهم ولم يدر الغرض من مجيئهم، فحين أشرقت الشمس ظهر النيلوفر في البركة وبادروا لأخذ الذهب والفضة منه، وكانوا يجعلون الذهب في أطباق الفضة والفضة في أطباق الذهب، حتى التقطوا جميع ما فيها وجاءوا به فعرضوه بين يدي المنصور حتى صار كومًا، فتعجب الرسول من ذلك وطلب المهادنة. واصطنع المنصور هذا نموذج قصر من فضة لصبح أم هشام، وحمله إليها على رءوس الرجال استجلابًا لحبها.[٥٦]

وأغرب منه ما فعله المعتمد الأندلسي لأم أولاده الرميكية الملقبة اعتماد، وقد رأت ذات يوم نساء البادية بإشبيلية يبعن اللبن في القرب وهن رافعات عن سوقهن في الطين فقالت: «يا سيدي أشتهي أن أفعل أنا وجواري مثل هؤلاء النساء.» فأمر المعتمد بالعنبر والمسك والكافور وماء الورد وصير الجميع طينًا في القصر، وجعل لها قربًا وحبالًا من الأبريسم وخرجت هي وجواريها تخوض في ذلك الطين.[٥٧]

وقس على ذلك سائر ملوك الإسلام في عصر الترف، فقد كان عند سنجر بن ملكشاه ١٠٣٠ رطلًا من الجوهر ولم يسمع بمثله عند الملوك، وكانوا يقيسون الإسراف أحيانًا بما ينفقونه من الشمع في الأضواء، فذكروا أن وظيفة كل من ابن بقية وعز الدولة ألف رطل من شمع في الشهر،[٥٨] واشتهر محمد الأمين بكبر شمعه، ولم يكن ذلك الترف قاصرًا على الخلفاء والملوك والأمراء، ولكنه كان يتناول سائر رجال الدولة، ومن يرتزق منهم، وأما العامة فربما كانوا في أشد الضيق، راجع الجزء الثاني من هذا الكتاب.

(٣-٤) التسري

هو اقتناء الجواري للتمتع بهن أو استيلادهن، وقد علمت ما كان من تكاثرهن والاتجار بهن وتربيتهن وتهاديهن في ذلك العصر، ونتكلم هنا عما بعث عليه الترف من تسريهن، وكثيرًا ما يعقب التسري التزوج، فإذا ولدت الجارية لأحدهم تزوجها، وكان العرب يكرهون التزوج بالجواري، فمع كثرتهن في صدر الإسلام لم يتزوج الراشدون جارية،[٥٩]

ولكن المسلمين كانوا يتسرونهن للفراش، فتوفي الإمام علي عن ٤ نسوة و١٧ سرية،[٦٠] وكانت تلد الجارية لأحدهم فيبيعها كما يبيع سائر الجواري، فنهى عمر عن بيع أمهات الأولاد،[٦١] وكانت العرب على كل حال تحتقر أبناء الجواري، حتى نبغ منهم ثلاثة من كرام الرجال أمهاتهم من بنات يزدجرد،[٦٢] فرغب الناس في التسري.

وليس المسلمون أول من اقتنى السراري، فالتسري كان شائعًا عند الرومانيين، والسرية عندهم أحط منزلة من الزوجة، ولكن علاقتها مع الرجل كانت شرعية، وكانوا في أول أمرهم كالعرب يكرهون التسري، حتى تقدمهم فيه اثنان من كبار أمرائهم فعكفوا عليه.[٦٣]

وزادت رغبة المسلمين في التسري في إبان الحضارة، حتى أصبح أكثر أبناء الخلفاء من أولاد الجواري،[٦٤] وأكثر نساء أهل الدولة منهن، واقتدى بهم سائر الوجهاء والأغنياء، فعمدوا إلى اقتناء السراري، ومن ولدت له تزوجها أو أعتقها، فبلغ عددهن عند بعض الخلفاء عدة آلاف، ذكروا أنه كان للمتوكل العباسي ٤٠٠٠ جارية وطئهن جميعًا،[٦٥] وعلم الأمراء برغبته فيهن فتقربوا إليه بالهدايا منهن، فأهداه عبد الله بن طاهر ٤٠٠ وصيفة،[٦٦] وكان لنصر الدولة صاحب ميافارقين ٣٦٠ سرية على عداد أيام السنة،[٦٧] غير ما كانوا يقتنونه من الجواري للغناء، فقد كان عند الرشيد ٢٠٠٠ جارية،[٦٨] منهن ٣٠٠ قينة للغناء والضرب على آلات الطرب.[٦٩]

وأصبح الاستكثار من الجواري عادة مألوفة، حتى صار النساء يقتنينهن للزينة، فكان عند أم جعفر البرمكي ٤٠٠ وصيفة يخدمنها،[٧٠] وقد رأيت ما اتخذته زبيدة من الجواري المقدودات وكيف ألبستهن ملابس الغلمان فقلدتها الوجيهات من أهل اليسار، فاتخذت الجواري المطمومات أو الغلاميات، ثم تبارى الخلفاء وسائر الكبراء في ذلك، حتى ألف القاهر بالله العباسي جوقًا من الجواري بقد واحد ألبسهن القراطق والأقبية والطرر والأقفية والمناطق من الذهب أو الفضة كأنهن الغلمان.[٧١]

وقس على ذلك سائر دول المسلمين في المشرق والمغرب، وقد فاق الفاطميون سواهم في الإكثار من الجواري أيضًا، فكان في قصر الحاكم بأمر الله ١٠٠٠٠ جارية وخادم،[٧٢] وكان عند أخته السيدة الشريفة ست الملك ٨٠٠٠ جارية منها ١٥٠٠ من البنات الأبكار،[٧٣] ولما قبض صلاح الدين على قصورهم وجد في القصر الكبير ١٢٠٠٠ نسمة ليس فيها فحل إلا الخليفة وأهله وأولاده، غير الخدم والغلمان والأمتعة والتحف، وأطلق صلاح الدين البيع فيهم فاستمروا يبيعون عشر سنين،[٧٤] ويقال نحو ذلك في السلاطين المماليك

بمصر وبني أمية في الأندلس مما يطول شرحه، ولا يزال مثاله عند بعض أمراء الشرق وملوكه إلى اليوم (قبل الحرب العالمية الأولى).

أثمان الجواري

والاستكثار من الجواري في أوائل الإسلام لم يكن يحتاج إلى نفقة كبيرة لكثرة السبايا، فلما نضج التمدن صاروا يبتاعونهن ويغالون في رفع أثمانهن، وكانت أسعارهن تتضاعف إذا جمعن بين الجمال ورخامة الصوت وصناعة الغناء، ويختلف ثمن الجارية من بضع مئات إلى بضعة آلاف أو مائة ألف دينار، وأول من بذل في هذا السبيل إلى هذا المقدار سعيد أخو سليمان بن عبد الملك، فابتاع «الذلفاء» الجارية الشهيرة بمليون درهم،[٧٥] (نحو ٧٠٠٠٠ دينار).

وابتاع الرشيد جارية بمائة ألف دينار،[٧٦] وجارية أخرى اشتراها من إبراهيم الموصلي بمبلغ ٣٦٠٠٠ دينار فباتت عنده ليلة ثم أرسلها إلى الفضل وطلب محمد الأمين إلى جعفر بن الهادي أن يبيعه جارية له اسمها «بذل» فأبى، فأمر فأوقروا قاربه ذهبًا فبلغت قيمة ذلك ٢٠٠٠٠٠٠٠ درهم،[٧٧] أي أكثر من مليون دينار، وهذا إذا صح كان أعظم ما بلغ إليه بذلهم في أثمان الجواري.

وأما ما خلا ذلك فقد اشترى يزيد بن عبد الملك الأموي «سلامة» المغنية بعشرين ألف دينار، وبيعت الجارية «ضياء» بخمسين ألف دينار، واشترى جعفر البرمكي جارية بأربعين ألف دينار، وابتاع الواثق بالله جارية مولدة للغناء اسمها «الصالحية» بعشرة آلاف دينار، وقس عليه ما دون ذلك وما فوقه، واعتبر مقدار ما كانوا ينفقونه من الأموال في اقتنائهن.

(٣-٥) السخاء

علمت مما تقدم انطباع العرب على السخاء من أيام جاهليتهم، وأنهم اضطروا للمحافظة عليه بعد الإسلام حتى أصبح من قواعد الارتزاق فيمن يحومون حول الخليفة وأهل الدولة، فلما توفرت الأموال في أيدي هؤلاء وتمتعوا بالحاجات والكماليات من الملاذِّ الجسدية تطلبوا الملاذَّ المعنوية بحسن الأحدوثة، وهم أهل أريحية يستفزهم الإطراء والاستنجاد، فوجدوا في السخاء بابًا واسعًا لتلك الملاذِّ، فبذلوا الأموال على الشعراء

والندماء والمغنين والمستجدين من سائر الطبقات، لما في ذلك من لذة الفخر أو توقع الأجر.

مبلغ السخاء على العموم

وقد ذكرنا في كلامنا عن الارتزاق بالسخاء ما الذي بعث على بقاء هذه المنقبة الجاهلية حتى صارت سنة مرعية، وتدرج المسلمون فيها بتدرجهم في الحضارة والمدنية، وزادت جوائزهم بزيادة الثروة واتساع الأرزاق، فكان الأمويون يعطون بالألف درهم أو بضعة آلاف يلحقونها ببعض الماشية أو الكسوة أو الخيل، وإذا توسموا في العطاء مصلحة جعلوا الصلة عشرة آلاف أو عشرات الألوف أو مائة ألف أو مئات الألوف، كما فعل معاوية في استرضاء الناس واكتساب بني هاشم إلى حزبه، فإنه جعل صلات أبناء الصحابة ملايين يبذلها رواتب كل عام، وهو أول من فعل ذلك من المسلمين، غير ما كان يصلهم به من الهدايا لسبب أو لغير سبب، كما فعل لما وُلد لعبد الله بن جعفر غلام فبذل له ١٠٠٠٠٠ درهم على أن يسميه معاوية فرضي، ولكنه أعطى تلك الصلة للذي بشره بالغلام.[٧٨]

واقتدى بمعاوية من خلفه من الأمويين وأمرائهم، واشتهر من هؤلاء آل المهلب بالسخاء في الدولة الأموية، كما اشتهر البرامكة في الدولة العباسية،[٧٩] ومن أسخياء عمالهم خالد القسري والحجاج بن يوسف إذا مست الحاجة إلى السخاء، فالحجاج أعطى للذي توسط في زواجه بهند بنت أسماء ثلاثين غلامًا مع كل غلام عشرة آلاف درهم، وثلاثين جارية مع كل جارية تخت من ثياب وغير ذلك،[٨٠] وكان سعيد بن العاص لا يرسل إلى أحد هدية مع عبد إلا كان العبد في جملتها.[٨١]

أما العباسيون فكانت الثروة في أيامهم أوفر، فبلغت عطياتهم عشرات الملايين من الدراهم، وأول من أعطى هذا القدر منهم المنصور،[٨٢] ثم صاروا يهبون الضياع وخراج البلاد، أو يوقرون الزوارق ذهبًا أو فضة، أو يهدون الغلمان يحملون بدر المال، أو يرسلون الجائزة على مئات من الدواب، أو يولون الولايات والأعمال، وتزداد جوائزهم إذا استخفهم الطرب أو استفزهم الإطراء، فقد ولى السفاح رجلًا الأهواز بقصيدة،[٨٣] والغالب أن يكون سخاؤهم لغرض سياسي يعود نفعه على الدولة، كما فعل المنصور إذ أعطى في يوم واحد عشرة ملايين درهم فرقها في أعمامه ووجوه قواده ليقطع ألسنتهم عن مقاومته، ولما تولى ابنه المهدي استكتب أسماء أولاد المهاجرين والأنصار وجلس

مجلسًا عامًّا فرق فيه ٣٠٠٠٠٠٠ درهم، وقرر لكل واحد من أهل بيته ٦٠٠٠ درهم كل سنة،[٨٤] وأعطى المغيرة بن حبيب ألف فريضة يضعها حيث شاء،[٨٥] وفرق الرشيد في يوم واحد ١٣٥٠٠٠٠ دينار،[٨٦] وطرب يومًا فنثر على الناس ٦٠٠٠٠٠٠ درهم،[٨٧] وأعطى الهادي لعبد الملك بن مالك صاحب شرطة أبيه مالًا أرسله إليه على ٤٠٠ بغل موقرة دراهم،[٨٨] وأعطى الأمين إلى سليمان بن أبي جعفر مليون درهم،[٨٩] واختص الأمين من أساليب السخاء بأنه كان يأمر بإيقار زورق الطالب ذهبًا أو فضة، وكان قصره على شاطئ دجلة، فإذا جاءه شاعر أو طالب في زورق وأخذته الأريحية واستخفه الطرب قال: «أوقروا زورق هذا ذهبًا أو فضة.» وقلما كانوا يفعلون ذلك، والغالب أن يعوضوا عنه بمبلغ من المال كما فعلوا بأبي محمد التيمي، فإنه مدح الأمين بقصيدة أطربته فأمر الفضل بن الربيع، أن يوقر زورقه مالًا فقال: «نعم يا سيدي.» فلما طالبه التيمي بذلك قال له الفضل «أنت مجنون! من أين لنا ما يملأ زورقك؟» ثم صالحه على ١٠٠٠٠٠ درهم،[٩٠] وأجاز المأمون طبيبه بمليون درهم وألف كر حنطة،[٩١] وفرق المأمون في ساعة ٢٦٠٠٠٠٠٠ درهم، ومدحه أعرابي فأجازه بثلاثين ألف دينار،[٩٢] وكان المتوكل يهب القطائع جوائز على المدح،[٩٣] وقس على ذلك هدايا سائر الخلفاء، وإنما ذكرنا أعظمها لبيان مبلغ ذلك في إبان التمدن.

فلما افتقر الخلفاء العباسيون في أواسط الدولة صاروا يهبون الرتب الاسمية وألقاب الشرف يسترضون الناس بها، وهذه أبيات يقولون: إن أبا بكر الخوارزمي نظمها بهذا المعنى:

ما لي رأيت بني العباس قد فتحوا	من الكنى ومن الألقاب أبوابا
ولقبوا رجلًا لو عاش أولهم	ما كان يرضى به للحبس بوابا
قل الدراهم في كفي خليفتنا	هذا فأنفق في الأقوام ألقابا

سخاء البرامكة

على أن العصر العباسي الأول إنما زها بالبرامكة، وهم الذين رغبوا الخلفاء في السخاء، وأولهم خالد بن برمك وزير المنصور، والثروة لم تنضج في أيامه، ومع ذلك فالوافدون على الخلفاء للاستجداء كانوا يسمونهم السؤال، فقال خالد: «هذا والله اسم أستقله لطلاب الخير، وأرفع قدر الكريم عن أن يُسمي به أمثال هؤلاء المؤملين؛ لأن فيهم الأشراف

والأحرار وأبناء النعيم، ومن لعله خير ممن يقصد وأفضل أدبًا، ولكننا نسميهم الزوار.»
وكان ممن شهد مجلسه وسمع قوله بشار بن برد فقال:

حذا خالد في فعله حذو برمك	فمجد له مستطرف وأصيل
وكان ذوو الآمال يدعون قبله	بلفظ على الإعدام فيه دليل
يسمون بـ «السؤال» في كل موطن	وإن كان فيهم نابه وجليل
فسماهم «الزوار» سترًا عليهم	فأستاره في المهتدين سدول

فأعطاه خالد عن كل بيت ألف درهم.[٩٤]

وكان ابنه يحيى بن خالد إذا ركب أعطى كل من تعرض له ٢٠٠ درهم،[٩٥] ويروون من أخبار سخائه ما هو أشبه بالخرافات منه بالحقائق، نذكر حادثة تواتر ذكرها في كتب التاريخ والأدب، وهي تمثل سخاء يحيى أحسن تمثيل، وذلك أن البرامكة لما نكبوا منع الرشيد الناس من ذكرهم أو رثائهم، فمن ذكرهم إنما يذكرهم سرًّا، وظلوا على ذلك في أيام الأمين والمأمون، فسمع المأمون بشيخ يأتي خرابات البرامكة ويبكي وينتحب طويلًا ثم ينشد شعرًا يرثهم به وينصرف، فبعث في طلبه، فلما حضر انتهره الخليفة وسأله: من هو؟ وبم استحق البرامكة منه ما يصنع؟ فقال الرجل وهو غير هائب: «للبرامكة عندي أياد خضر، فإن أمر أمير المؤمنين حدثته ببعضها.» فقال: «هات.» فقال: «أنا المنذر بن المغيرة الدمشقي، نشأت في نعمة فزالت حتى وصلت إلى بيع داري وأملقت إلى غاية، فأشير عليَّ بقصد البرامكة فخرجت إلى بغداد ومعي نيف وعشرون امرأة وصبيًّا، فدخلت بهم إلى مسجد ببغداد ثم خرجت، وتركتهم جياعًا لا نفقة لهم، فمررت بمسجد فيه جماعة عليهم أحسن زي، فجلست معهم أردد في صدري ما أخاطبهم به فتحيد نفسي عن ذل المسألة، وإذا خادم قد أزعج القوم فقاموا فقمت معهم، ودخلوا دارًا كبيرة فدخلت، فإذا يحيى بن خالد على دكة وسط بستان فجلسوا وجلست، وكنا مائة رجل ورجل فخرج مائة خادم في يد كل خادم منهم مجمرة ذهب فيها قطعة عنبر، فتبخروا وأقبل يحيى على القاضي وقال: زوج ابن عمي هذا بابنتي عائشة، فخطب وعقد النكاح وأخذنا النثار من فتات المسك وبنادق العنبر وتماثيل الند، فالتقط الناس والتقطت، ثم جاءنا الخدم في يد كل واحد منهم صينية فضة فيها ألف دينار مخلوطة بالمسك، فوضع بين يدي كل واحد واحدة، فأقبل كل واحد يأخذ الدنانير في كمه والصينية تحت إبطه ويخرج، فبقيت وحدي لا أجسر أفعل ذلك، فغمزني بعض الخدم وقال: خذها وقم،

فأخذتها وقمت وجعلت أمشي والتفت خوفًا من أن تُؤخذ مني، ويحيى يلاحظني من حيث لا أفطن، فلما قاربت الستر رددت، فيئست من الصينية، فجئته فأمرني بالجلوس فجلست، فسألني عن حالي فحدثته عن قصتي فبكى ثم قال: عليَّ بموسى، فجاءه، فقال: يا بني، هذا رجل من أولاد النعم قد رمته الأيام بصرفها، فخذه إليك فاخلطه بنفسك، فأخذني وخلع عليَّ وأمرني بحفظ الصينية لي، فكنت في ألذ عيش يومي وليلتي، ثم استدعى أخاه العباس وقال: إن الوزير قد سلم إليَّ هذا وأريد الركوب إلى دار أمير المؤمنين فليكن عندك اليوم، فكان يومي مثل أمس، فأقبلوا يتداولونني وأنا قلق بأمر عيالي ولا أتجاسر أن أذكرهم، فلما كان في اليوم العاشر أدخلت على الفضل بن يحيى فأقمت عنده يومي وليلتي، فلما أصبحت جاءني خادم فقال: قم إلى عيالك وصبيانك، فقلت: إنا لله، ذهبت الصينية وما فيها، فليت هذا كان من أول يوم! وقمت والخادم يمشي بين يدي، فأخرجني من الدار فازداد ما بي، ثم أدخلني إلى دار كأن الشمس تطلع في جوانبها، وفيها من صنوف الآلات والفرش، فلما توسطتها رأيت عيالي يرتعون في الديباج والستور، وقد حمل إليهم مائة ألف درهم وعشرة آلاف دينار، وسلم إليَّ الخادم صكًّا باسم ضيعتين جليلتين، وقال: هذه الدار وما فيها والضياع لك، فأقمت مع البرامكة في أخفض عيش إلى الآن، ثم قصدني عمرو بن مسعدة في الضيعتين وألزمني من خراجهما ما لا يفي به دخلهما، فكلما لحقتني نائبة قصدت دورهم فبكيت.»

فاستدعى المأمون عمرو بن مسعدة وأمره أن يرد على الرجل ما استخرج منه، ويقرر خراجه على ما كان في أيام البرامكة، فبكى الشيخ بكاء شديدًا، فقال له المأمون: «ألم أستأنف بك جميلًا؟» فقال: «بلى، ولكن هذا من بركة البرامكة!» فقال: «امض مصاحبًا، فإن الوفاء مبارك وحسن العهد من الإيمان.»[٩٦]

وعلى ذلك شب جعفر والفضل ابنا يحيى وسائر البرامكة، وتوسعوا في السخاء حتى عينوا الرواتب لأهل الحاجات، فقد ذكرنا فيما تقدم أن غلتهم بلغت ٢٠٠٠٠٠٠٠ دينار في السنة، فلما قتل جعفر وقبضت أموالهم وجدوا ١٢٠٠٠٠٠٠ دينار في بدر مختومة وعليها صكوك لأناس على سبيل الرواتب أو الصلات أو نحو ذلك،[٩٧] ومن فنون سخائهم أن الفضل بن يحيى كان يكتب رقاعًا بخطه فحواها «امض إلى فلان الصيرفي وخذ منه كذا وكذا دينارًا.» حسبما يجريه الله على يده، ويركب في الليل أو في القائلة ويخترق شوارع البلد وينثرها فيها، وسئل عن ذلك فقال: «أردت أن يصل بري إلى من لا يصل إليَّ ولا أعرفه ولا يعرفني.» فإذا وجد أحد رقعة من هذه الرقاع مضى بها إلى الصيرفي

فيأخذها منه ويعطيه ما فيها، وعند الصيرفي أمين جالس لئلا يصالحه على بعضها، ولا يعطي لأحد غير رقعة واحدة ولا يسأل عنه ولا يثبت اسمه، وربما جاءت بيد الصبي والمرأة والذمي فيأخذ ما فيها.[٩٨]

واشتهر من وزراء الدولة العباسية بالسخاء بعد البرامكة آل الفرات في أيام المقتدر، فكانوا يفرضون الرواتب للعلماء والأدباء والفقهاء وأهل الفاقة، وقد نكبوا كما نكب البرامكة، ولكن شهرة البرامكة غلبت على سواهم، فأصبحوا مضرب الأمثال في الكرم، ولا يزال الناس يتداولون أخبارهم ويتمثلون بسخائهم ويستحثون أريحية العظماء على السخاء بما يروون من أحاديثهم، حتى ظنها بعضهم موضوعة لهذه الغاية، ولا يبعد أن تكون رغبة الناس في الاستحثاث بعثت على المبالغة في بعضها، ولكنها صحيحة على إجمالها؛ قال السلطان العادل الأيوبي مرة وقد جرى ذكر البرامكة وأمثالهم من الكرماء: «هذا كذب مختلق من الوراقين ومن المؤرخين، يقصدون بذلك أن يحركوا همم الملوك والأكابر للسخاء وتبذير الأموال.»

فقال بعض الحضور: «يا خوند، ولأي شيء يكذبون عليك؟»[٩٩]

السخاء على الشعراء والمغنين

واعتبر ذلك في سخائهم على الشعراء، فقد كانت إجازة الشعراء قاعدة عامة من أوائل الإسلام لأسباب تقدم ذكرها، ويشبه ذلك ما تنفقه بعض الدول اليوم على الصحافة لتنصرها أو تأخذ بيدها في نشر مبدأ أو رأي.

وتعودوا أن يسموا ما يُعطى للشاعر جائزة أو صلة، كما يسمون ما يُعطى للصحف إعانة أو راتبًا، على أن بعض الخلفاء كانوا يفرضون للشعراء رواتب يتناولونها مشاهرة أو مسانهة، وربما عدوا الجائزة راتبًا يناله الشاعر إذا وفد على الخليفة أو الأمير في يوم معين من السنة، وقد تكلمنا عن الشعر وسائر أحواله فيما تقدم، ونحن ذاكرون سخاء الخلفاء على الشعراء في إبان الحضارة.

أول من جاد على الشعراء في الإسلام بنو أمية، وأسخاهم الوليد بن يزيد، وهو أول من عد أبيات الشعر وأعطى على كل بيت ألف درهم،[١٠٠] واقتدى به من جاء بعده منهم، أما العباسيون فزادوا القيمة وأعطوا على القصيدة في مدحهم ١٠٠٠٠٠ درهم، وأول من نال هذه الصلة منهم مروان بن أبي حفصة وصله بها المهدي على قصيدة مدحه بها مطلعها:

«طرقتك زائرة فحي خيالها»[١٠١]

ومدحه سلم الخاسر بقصيدة مطلعها:

«حضر الرحيل وشدت الأحداج»

فأراد أن ينقص له من جائزة مروان فحلف أنه لا يأخذ إلا مائة ألف ألف درهم، ويقال: إنه أعطاه إياها[١٠٢] والغالب أنه أعطاه مائة ألف فقط، وإنما أضيفت الألف الأخرى خطأ من النساخ.

وكان المنصور قبله بخيلًا على الشعراء، إذا أحب أن يعطي شاعره أبا دلامة فرض على الهاشميين دينارين ليعطيها له.[١٠٣]

أما الرشيد فأعطى مروان كما كان يعطيه المهدي، أي مائة ألف درهم[١٠٤] وأعطاه مرة ٥٠٠٠ درهم وعشرة من الرقيق، وكان يعطي أبا العتاهية راتبًا سنويًّا مقداره ٥٠٠٠٠ درهم غير الجوائز والمعاون،[١٠٥] وفاقهم المتوكل في ذلك؛ لأنه أعطى حسين بن الضحاك ألف دينار عن كل بيت من قصيدة قالها، وهو أول من أعطى ذلك،[١٠٦] وكان المعتصم إذا أعجبه قول الشاعر ملأ فمه جوهرًا، وقد سبقه إلى ذلك يزيد بن عبد الملك.[١٠٧]

وتشبه الوزراء والأمراء بالخلفاء، فكان خالد القسري يجلس للشعراء في مقام معين ويجيزهم، وكذلك آل المهلب فإنهم فرضوا لهم الأعطية والجوائز.[١٠٨]

أما في الدولة العباسية فالبرامكة لم يدخروا وسعًا في إجازة الشعراء، خصوصًا الفضل بن يحيى، وقد قال فيه بعضهم:

ما لقينا من جود فضل بن يحيى ترك الناس كلهم شعراء[١٠٩]

وكان أبوه يحيى إذا لقيه شاعر ولم يكن معه مال أعطاه دابته،[١١٠] وقد فاق البرامكة الخلفاء في إجازة الشعراء، فنال شاعرهم أبان اللاحقي على قصيدة واحدة ما ناله مروان بن أبي حفصة من الرشيد كل عمره،[١١١] وقس على ذلك سخاء سائر الوزراء والأمراء، فإن يزيد بن مزيد أعطى نصف ماله لشاعر.[١١٢]

ويقال نحو ذلك في سخائهم على المغنين، فقد أعطى المهدي دحمان المغني في ليلة واحدة ٥٠٠٠٠ دينار؛ لأنه أطربه، وأعطى الأمين إسحاق الموصلي ١٠٠٠٠٠٠ درهم؛

لأنه غناه شعرًا في مدحه، فحملها إلى داره مائة فراش،[113] وكان الهادي يجري على إبراهيم الموصلي عشرة آلاف درهم في الشهر سوى صلاته، أما الرشيد فكان إذا طرب وهب وجاد حتى ولى إسماعيل بن صالح مصر؛ لأنه أطربه بغنائه،[114] وأخبار الشعراء والمغنين كثيرة لا محل لها.

واقتدى بسخاء العباسيين ورجال دولتهم سائر رجال الدولة الإسلامية، وإن لم يبلغوا شأوهم.

(٣-٦) المسكر

كان المسكر شائعًا قبل الإسلام في الشام والعراق وفارس ومصر وجزيرة العرب وغيرها، وكان ملوك الفرس يقبلون على اللذات والمسكرات، ويقال: إن الرومانيين لم يتعودوا المسكر إلا بعد فتحهم آسيا، على أن عقلاء الناس كانوا يحرمون شربه حتى في جاهلية العرب، فإن جماعة منهم حرموه على أنفسهم وأهلهم، وإذا عربد أحدهم بالسكر وتكرر ذلك منه خلعه قومه ونفوه، فلما جاء الإسلام ورد النص بتحريمه، وأقيمت الحدود في منعه؛ الجلد والحبس وحلق الرأس أو اللحية والشوارب أو قطع العطاء، وعاقبوا بائعيه وكسروا أوانيه ولا سيما في عصر الراشدين وأوائل أيام بني أمية، حتى عنف عمر بن الخطاب خالد بن الوليد على تدلكه في الحمام بغسل فيه خمر، وقال له: «إن الله حرم ظاهر الخمر وباطنها ومسها فلا تمسوها بأجسادكم.» ومع ذلك فاختلاط المسلمين بأهل البلاد المفتوحة عودهم إياها، حتى شرب جماعة من الصحابة وأبنائهم فوقعوا تحت طائلة العقاب، وأول من عوقب على شربها وحشي بن حرب قاتل حمزة،[115] ثم عوقب غير واحد منهم ومن أبنائهم، وفيهم جماعة من الكبراء كالوليد بن عقبة، ويزيد بن معاوية، وعبيد الله بن عمر بن الخطاب وأخويه عبد الرحمن وعاصم، والعباس بن عبد الله بن عباس، وقدامة بن مظعون، وعبد العزيز بن مروان، وعبد الرحمن بن عبد الله الثقفي القاضي، وأبي محجن الثقفي وغيرهم.[116]

ومما ساعد على إقبال نفر من المسلمين على الخمر أن بعض الخلفاء الأمويين كانوا يشربونها، كيزيد بن معاوية، وعبد الملك بن مروان، ويزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد،[117] والوليد هذا أول من وصف الخمر وتغزل بها فسرق الشعراء معانيه وأدخلوها في أشعارهم، وتهتك الوليد في المسكر حتى حدثته نفسه أن يسكر فوق الكعبة، فخوفه أصحابه من الناس فأمسك، وقد أفسده وعلمه الخلاعة مؤدبه عبد الصمد بن عبد

الأعلى،[١١٨] على أن رجال الحكومة كانوا يشددون في منع الخمر والحد عليها، حتى كثيرًا ما كانوا يمنعون بيع العسل لئلا يصنعوها منه،[١١٩] وأشهر من شدد في منعها من الخلفاء عمر بن عبد العزيز الأموي والمهتدي العباسي، ومع ذلك فقد كانت تزداد انتشارًا، باتساع أسباب الحضارة وذهاب دهشة الدين واشتغال الناس بالغناء والجواري، حتى صاروا يشربونها جهارًا، واشتهر بشربها غير واحد من الخلفاء وأهلهم ورجال الدولة مع التهتك في مجالس الشرب، فعمد بعض المتملقين من الفقهاء ورجال الدين إلى انتحال المسوغات لشربها، فأخذوا يبحثون في الفرق بين أنواعها وميزوا بين المحلل والمحرم منها، فأجمعوا على تحريم الخمر واختلفوا في تحريم النبيذ، وفي أي أنواعه حلال وأيها حرام، ويقال بالإجمال: إن أهل العراق كانوا يستحلون النبيذ وأهل الحجاز يحرمونه.[١٢٠]

والنبيذ يصنع من أكثر أنواع الفاكهة ولا سيما العنب والتمر والتفاح والمشمش ومن الذرة، ويختلف باختلاف البلاد وباختلاف طرق عمله وهو عصير بعض هذه الأثمار أو منقوعها كما يُنقع الزبيب اليوم (الخشاف).

وقد يضيفون إليه العسل أو الدبس أو يصنعونه من أحدهما مع الحب على النار،[١٢١] وكانوا إذا أقبلوا على شربه صفوه وتناولوه بالأقداح الكبيرة، وربما صنعوا الخمر منه، وإذا صُفي في القناني صعب تمييزه من الخمر أو منقوع الزبيب أو مذاب العسل،[١٢٢] فمن أحب الشرب استحل تناوله على أنه نبيذ، فإذا أكثر من شربه فعل فعل الخمر، وبعضهم كان يحلل قليل الخمر ويحرم كثيرها، وآخرون يحللون شرب الخمر إلا إذا أدت إلى السكر،[١٢٣] ولكن الأكثرين حكموا بتحريمها، ولهم في ذلك أقوال يطول شرحها تراها مبسوطة في كتب الشرع.

فالخلفاء العقلاء الذين بلغنا أنهم سكروا في بعض مجالسهم كانوا يستحلون شرب النبيذ، وهو حلو منعش فيكثرون منه حتى يسكروا، ويؤيد ذلك أنهم كانوا يشربونه بالأرطال، وإذا طال مكث النبيذ قبل شربه دب فيه الاختمار وتولد الكحول ولو قليلًا، وقد يطول مجلس الشراب فيسكر الشاربون ويعربدون، وربما أتوا في سكرهم بما لا يأتيه غير المجانين، وأفظع ما يُروى من هذا القبيل أن الملك الناصر ابن الملك المعظم الأيوبي كان إذا سكر يقول: «أشتهي أن أرى غلامي فلانًا طائرًا في الهواء!» فيُرمى ذلك المسكين بالمنجنيق، ويراه في الهواء فيضحك ويشرب ويقول: «أشتهي أن أشم رائحة فلان وهو يُشوى!» فيُحضر ذلك الرجل ويُقطع لحمه ويُشوى،[١٢٤] وكتب التاريخ والأدب مشحونة بأخبار مجالس الشراب، وهي في الغالب مجالس الغناء، ويندر أن يترفع خليفة أو وزير

عنها، ومن أكثر العباسيين رغبة فيها الهادي والرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل، وأكثرهم نفورًا منها المنصور والمهتدي. واشتهر من الفاطميين بالتهتك بها المستنصر[١٢٥] واشتهر بمقاومتها الحاكم بأمر الله، وكثيرًا ما أمر بإراقة الخمور وإراقة العسل حتى لا تُصنع منه.

أما العامة فانغمس الكثيرون منهم في المسكر وشربوه على أنواعه، شأنهم في كل زمان وإن لم يشربه حكامهم، فكيف إذا كانوا يشربون؟ والغالب في شاربي النبيذ أن ينبذوه في بيوتهم، وبعضهم يشربه عند إخوانه، وآخرون يتناولونه في الحانات وكانت كثيرة، وأكثر أصحابها من اليهود، وقد يشربون الخمر في الأديار وخمرها مشهورة بجودتها.

(٣-٧) التهتك

وطبيعي فيما قدمناه من الحضارة والترف أن يعتورها شيء من التهتك والفحشاء، وإن كان ذلك لا يخلو منه قوم مهما بلغ من بعدهم عن الحضارة، ولكنه يكثر غالبًا في المتحضرين، لسكون خواطرهم وتوفر أسباب الرغد والتنعم عندهم، كان في جاهلية العرب جماعة من البغايا لهن رايات ينتحيها الفتيان، وكان بعض الناس يكرهون إماءهم على البغاء يبتغون عرض الدنيا،[١٢٦] ولكن ذلك شأن الحضر منهم؛ لأن البدو أقرب إلى صحة الآداب، فاعتبر كم تكون أسباب التهتك أوفر في المدن الكبرى، حيث تتزاحم الأقدام وتتوفر الثروة وتكثر الجواري ويتفشى الغناء والمسكر، كما كان شأن بغداد وقرطبة والقاهرة والفسطاط في إبان ذلك التمدن، فلا غرو إذا تفشت الفحشاء فيها ولا سيما في العصور الوسطى، حتى صار البغاء في بعض الأحيان صناعة عليها رئيس يحتكم إليه البغاءون عند الحاجة،[١٢٧] وتفننوا في ترويج تلك البضاعة بتصوير النساء على جدران الحمامات،[١٢٨] وأصبح أهل القصف من الأغنياء يصورون حظاياهم على جدران منازلهم كما فعل ابن طولون، وكان الحكام العقلاء يبذلون جهدهم في منع الفحشاء ويقاومون تيارها بما في إمكانهم،[١٢٩] ولما عجزوا عن كف أذاها بالقوة ضرب بعضهم عليها ضرائب يدفعها أصحابها مثل سائر التجارات.[١٣٠]

وأقبح ما ظهر من التهتك في أثناء هذا التمدن مغازلة الغلمان وتسريهم، وظهر ذلك على الخصوص في أيام الأمين، وتكاثر بتكاثر غلمان الترك والروم من أيام المعتصم وفيهم الأرقاء بالأسر أو بالشراء، وتسابق الناس إلى اقتنائهم كما تسابقوا إلى اقتناء الجواري

وغالوا في تزيينهم وتطييبهم، وكانوا يخصونهم ليأمنوا تعديهم على نسائهم وجواريهم، وفشا حب الغلمان في أهل الدولة بمصر وتغزل بهم الشعراء،[١٣١] حتى غارت النساء من ذلك فعمدن إلى التشبه بالغلمان في اللباس والقيافة ليستملن قلوب الرجال.[١٣٢]

وكثرة الجواري في بعض القصور جرتهن إلى التفنن في أساليب الفحشاء، وربما اتخذت كل جارية خصيًّا لنفسها كالزوج، كما فعلت جواري خمارويه صاحب مصر،[١٣٣] حتى النساء الشريفات فإن قعودهن عن الزواج لعدم وجود الأكفاء أو لأسباب أخرى كان يجرهن إلى مثل ذلك فتكاثر الفساد فيهن لقلة التزويج،[١٣٤] ذكروا أن ابنة الإخشيد صاحب مصر اشترت جارية لتتمتع بها، وبلغ المعز لدين الله الفاطمي ذلك — وكان لا يزال في الغرب يتحفز للوثوب على مصر ويخاف الفشل — فلما بلغه ما فعلته ابنة الإخشيد استبشر وقال: «هذا دليل السقوط.» وجند على مصر وفتحها، والعفاف سياج العمران.

هوامش

(١) الجزء الثاني من هذا الكتاب.
(٢) لطائف المعارف ٧٢.
(٣) العقد الفريد ٢٢ ج٢.
(٤) المقريزي ١٥٥ ج٢.
(٥) المقريزي ٣٠١ ج١.
(٦) ابن الأثير ١٠٣ ج٥.
(٧) المسعودي ٣١٤ ج٢، وابن خلكان ٣١٩ ج٢.
(٨) سير الملوك ١١٣.
(٩) ابن خلدون ١٤٥ ج١.
(١٠) ابن خلدون ١٧٠ ج١.
(١١) طبقات الأطباء ١٧٥ ج١.
(١٢) لطائف المعارف ٩٥، وابن بطوطة ٣ ج٢.
(١٣) طبقات الأطباء ١٤٠ ج١.
(١٤) المسعودي ١٩٩ ج٢.
(١٥) تاريخ الوزراء ٣٥١.

(١٦) الفخري ٢٣٢.
(١٧) الفخري ٢٧٦.
(١٨) المقريزي ٣١٨ ج١.
(١٩) المسعودي ٢٦٧ ج٢، والفرج بعد الشدة ١٠٢ ج٢.
(٢٠) الفخري ٢٥، و٦٦.
(٢١) العقد الفريد ٦ ج١.
(٢٢) ابن خلدون ١٦٩ ج١.
(٢٣) المستطرف ٤٠ ج٢، والعقد الفريد ٢٦٦ ج٢.
(٢٤) ألف باء ١٨٧ ج٢.
(٢٥) المقريزي ٤٠٩ ج١.
(٢٦) المقريزي ٣١٩ ج١.
(٢٧) ابن خلدون ٢١٧ ج١.
(٢٨) الفخري ٧٤.
(٢٩) ابن الأثير ٢٥٥ ج٢.
(٣٠) ألف باء ١٨٧ ج٢.
(٣١) الأغاني ١٢٩ ج٦.
(٣٢) الدميري ٥٨ ج١.
(٣٣) ابن خلدون ١٤٥ ج١.
(٣٤) الفرج بعد الشدة ١٠٣ ج١.
(٣٥) لطائف المعارف ٩٥.
(٣٦) الأتليدي ٩٨.
(٣٧) الأغاني ٤١ ج١٥.
(٣٨) المستطرف ١٣٤ ج١.
(٣٩) المسعودي ٣٦٦ ج١.
(٤٠) الأغاني ٨١ ج١٢.
(٤١) المسعودي ١٩٦ ج٢.
(٤٢) العقد الفريد ١٨٤ ج٣.
(٤٣) ابن الأثير ٢٤ ج٣.

(٤٤) المسعودي ٣٠٠ ج٢.

(٤٥) الأتليدي ١٤١.

(٤٦) الطبري ١٨٩ ج٢.

(٤٧) الأغاني ٨٣ ج٩.

(٤٨) المسعودي ٣٦٦ ج٢.

(٤٩) ابن خلدون ١٥ ج١.

(٥٠) ابن خلدون ١٤٥ ج١.

(٥١) المسعودي ٢٠٥ ج٢.

(٥٢) المقريزي ٤٧٢ ج١.

(٥٣) المقريزي ٤٠٩–٤٢٥ ج١.

(٥٤) ابن خلدون ٣٠٢ ج١.

(٥٥) ابن الأثير ١٦٥ ج١١.

(٥٦) نفح الطيب ٧٣١ و٧٣٢ ج٢.

(٥٧) نفح الطيب ٢٠٨ ج١.

(٥٨) ابن خلكان ٨٧ ج١، و٦٣ ج٢.

(٥٩) ابن الأثير ٢٦ و٩٢ ج٣.

(٦٠) ألف باء ٣٤٧ ج٢.

(٦١) ابن الأثير ٢٩ ج٣.

(٦٢) ابن خلكان ٣٢٠ ج١.

(٦٣) Gibbon, 11. 205.

(٦٤) الجزء الرابع من هذا الكتاب.

(٦٥) المسعودي ٢٧٩ ج٢.

(٦٦) الأغاني ١٣٣ ج١٩.

(٦٧) ابن خلكان ٥٧ ج١.

(٦٨) الأغاني ٨٨ ج٩.

(٦٩) الأتليدي ٦٧.

(٧٠) المسعود ٢٠٨ ج٢.

(٧١) المسعودي ٣٦٦ ج٢.

(٧٢) المقريزي ٣٦ ج١.
(٧٣) المقريزي ٤٨٥ ج٢.
(٧٤) المقريزي ٤٩٧ ج١.
(٧٥) العقد الفريد ٢٠٣ ج٣، والمستطرف ١٣٢ ج٢.
(٧٦) الطبري ١٣٣٢ ج٢.
(٧٧) العقد الفريد ٤٣ ج٣، والأغاني ١٤٥ ج١٥.
(٧٨) الأغاني ٧١ ج١١.
(٧٩) ابن خلكان ٢٦٦ ج٢.
(٨٠) الأغاني ١٣٠ ج١.
(٨١) الفرج بعد الشدة ٣٣ ج٢.
(٨٢) لطائف المعارف ١٦.
(٨٣) فوات الوفيات ٢٠ ج١.
(٨٤) سير الملوك ٦٥ و٦٦.
(٨٥) الأغاني ٩٨ ج١٨.
(٨٦) المستطرف ١٣٥ ج١.
(٨٧) الأغاني ٨٨ ج، و١٢٤ و١٧.
(٨٨) ابن الأثير ٤٢ ج٦.
(٨٩) المستطرف ١٣٣ ج١.
(٩٠) الأغاني ١١٨ ج١٨.
(٩١) طبقات الأطباء ١٢٨ ج١.
(٩٢) فوات الوفيات ٢٤٠ ج١.
(٩٣) الأغاني ٣ ج١١.
(٩٤) الأغاني ٣٦ ج٣.
(٩٥) ابن خلكان ٢٤٤ ج٢.
(٩٦) الفرج بعد الشدة ٢٢ ج٢، وسير الملوك ١١١ والأتليدي ١٣٢.
(٩٧) العقد الفريد ٢٢ ج٣.
(٩٨) ترتيب الدول ٢٢.
(٩٩) نفح الطيب ٤٧٢ ج١.

(١٠٠) ابن الأثير ١٣٧ ج٥، والأغاني ١٤٨ ج١٧، و٣٩ ج٩.
(١٠١) ابن خلكان ١١٢ ج٢.
(١٠٢) ابن خلكان ١٩٨ ج١.
(١٠٣) الأغاني ١٢٨ و١٣١ ج٩.
(١٠٤) الأغاني ١٩ ج١٢.
(١٠٥) الأغاني ١٥٧ ج٣.
(١٠٦) الأغاني ١٨٤ ج٦.
(١٠٧) الأغاني ١٧٤ ج٦، و١٤٧ وج١.
(١٠٨) الأغاني ١٦٤ ج١١.
(١٠٩) ابن خلكان ٤١١ ج١.
(١١٠) الأغاني ٨ ج٥.
(١١١) الأغاني ٧٣ ج٥.
(١١٢) ابن خلكان ٢٨٥ ج٢.
(١١٣) الأغاني ٩٩، و١٤٢ ج٥.
(١١٤) حلبة الكميت ٦٣ و٦٤.
(١١٥) المعارف لابن قتيبة ١١٢.
(١١٦) العقد الفريد ٣١٤ ج٣.
(١١٧) الأغاني ١٥٤ ج١٩، و١٥٧ ج١٣، والعقد الفريد ٣١٤ ج٣.
(١١٨) ابن الأثير ١٢٤ و١٣٦ ج٥.
(١١٩) المقريزي ٢٩٧ ج٢.
(١٢٠) ابن الأثير ٣٦ ج٦، وابن خلدون ١٥ ج١.
(١٢١) كتاب البخلاء ٥١.
(١٢٢) الأغاني ٤ ج٥، و١١٢ ج٤، و٣٥ ج٢.
(١٢٣) العقد الفريد ٣٠٩، و٣١٨ وج٣، و٢٧٠ ج٢، وألف باء ٨١ ج١.
(١٢٤) فوات الوفيات ١٥٧ ج١.
(١٢٥) المقريزي ١٥٤ ج٢.
(١٢٦) العقد الفريد ٢ ج٣.
(١٢٧) الفرج بعد الشدة ١٤٣ ج٢.

(١٢٨) ابن خلكان ١٢٧ ج٢، ونفح الطيب ٨٦٠ ج٢.
(١٢٩) ابن الأثير ٩٥ ج١٠، و٢١٥ ج١١، والمقريزي ٣١٦ ج١.
(١٣٠) المقريزي ٨٩ ج١.
(١٣١) تزيين الأسواق ١٦٣.
(١٣٢) المقريزي ١٠٤ ج٢.
(١٣٣) ابن الأثير ١٨٨ ج٧.
(١٣٤) الفرج بعد الشدة ٦١ ج٢.

أبهة الدولة

الأبهة «العظمة والبهجة والكبر والنخوة»، ونريد بها مظاهر الدولة في أبهج أحوالها وأفخم أطوالها، والبحث فيها يتناول النظر في مجالس الخلفاء ومواكبهم وضخامة دولتهم وألعابهم وملاهيهم وملابسهم، وغير ذلك مما سنفصله، ولما كانت الدولة العباسية أسبق الدول الإسلامية إلى تلك المظاهر وقدوتها فيها، رأينا أن نحصر كلامنا عن الأبهة في العصر العباسي، مع ما يقتضيه المقام من الاستشهاد بما عند الدول الأخرى فنقول:

(١) مجالس الخلفاء

يختلف مجلس الخليفة شكلًا وأبهة باختلاف الدول، وفي الدولة الواحدة باختلاف أطوارها، وفي كل طور باختلاف المراد منها، فكانت مجالس الراشدين في المسجد أو المنزل، يقعدون على حصير أو جلد يلتفون بعباءة أو نحوها، فيدخل عليهم الناس في حوائجهم ويخاطبونهم بأسمائهم، لا يستنكفون من ذلك ولا يرون فيه ضعة، وإذا خرج أحد قوادهم للفتح مشى الخليفة لوداعه بلا حرس ولا بنود ولا طبول، وأوصاه بالتؤدة والصبر مع الرفق والعدل، وكان عمالهم في الأمصار على نحو ذلك، على أن العمال — نظرًا لإقامتهم في مدن عمرها الفرس أو الروم مع ما رأوه من أحوال تينك الدولتين — كانوا أقرب إلى مظاهر الأبهة، وكان الخلفاء إذا علموا بذلك أنبوهم كما فعل عمر لما علم أن سعد بن أبي وقاص أمير الكوفة اتخذ قصرًا وجعل عليه بابًا، فأرسل إليه رجلًا من خاصته وأمره أن يحرق الباب عليه ففعل.

ثم إن طبيعة العمران غلبت على تلك السذاجة، فتدرج الخلفاء والأمراء في مظاهر الأبهة واتخاذ الحجاب؛ بدأ بذلك معاوية بن أبي سفيان، وأعانه عليه أمراؤه في العراق ومصر، وعملوا مثل عمله وأشاروا عليه بضروب من الفخامة كان عليها ملوك تلك البلاد قبلهم، واقتدى بهم سائر خلفاء بني أمية، وزاد العباسيون أسباب الأبهة بمن قربوهم من الفرس، فأدخلوا في الدولة كثيرًا مما كان عليه الأكاسرة في مجالسهم وسائر أحوالهم، فتعددت تلك المجالس وأصبحوا يجلسون مجلسًا للحكم وآخر للمنادمة أو للمناظرة أو للمذاكرة أو غيرها، ويختلف المجلس باختلاف ذلك فخامة وترتيبًا.

على أن مؤسسي الدول قلما كانوا يجلسون لغير العمل والنظر في شئون الدولة، فمعاوية بن أبي سفيان،[١] وأبو جعفر المنصور،[٢] كانا يوزعان ساعات النهار على ما لديهما من الأعمال من إدارة وسياسة ومفاوضة ومطالعة، أما في أواسط الدولة فتعددت المجالس، والمراد هنا بالأكثر المجلس الذي كانوا يجلسونه للنظر في مصالح الدولة.

(١-١) شكل المجلس وفرشه

قلنا إن الراشدين وعمالهم كانوا يجلسون في المساجد؛ لأن الإسلام كان لا يزال غضًّا، فلما جعله الأمويون دولة جلسوا في قصور كانت للدولة السابقة أو بنوا قصورًا لأنفسهم نصبوا بها الأسرة والكراسي، وافترشوا الطنافس والمصليات والوسائد وعلقوا الستور وأقاموا الحجاب، فالأَسِرَّة أول من اتخذها معاوية، قلد بها بطارقة الروم في الشام وكذلك الستور والطنافس، وأما الكراسي فيظهر أنه قلد بها مرازبة الفرس؛ لأن أول من استخدمها من أمراء المسلمين زياد بن أبيه عامله على فارس،[٣] فلعله نقلها إلى الشام، وقد يكون معاوية اقتبسها من الروم رأسًا، وقس على ذلك سائر ما أدخلوه من مظاهر الأبهة من الطراز ونقش الأشعار في صدور المجلس، وفرش الديباج والخز واصطناع الأسرة من الأبنوس أو الصندل أو العاج أو الذهب أو غيرها.

وبعد أن كانت مصالح الدولة تجتمع في بناء واحد اختصت كل منها بإدارة، وأصبح لبعض كبار الرجال إدارات خاصة بأعماله تشبه ما للخلفاء من إدارات الكتاب والحساب والأطباء وغيرهم،[٤] وكان لمجلس الحكم في العصر العباسي داران، دار خاصة ودار عامة، يجلس الخليفة في الأولى مع رجال الدولة أو من يفد عليه من كبار الأمراء أو الملوك، وينظر في الثانية في سائر الشئون ويعقد بها المجالس الاعتيادية.

والمجلس في إبان الحضارة كان ينعقد في قاعة أو بهو كبير، على جدرانه صور ممثلة بالذهب والفضة لما في البر والبحر من شجر أو حيوان أو جبال، ويكسو أرضه

بساط واحد أو عدة أبسطة من الديباج أو نحوه، وفي أطراف البهو مناور من الذهب أو الفضة توضع عليها الشموع،[٥] ويسبل على أبواب المجلس ونوافذه ستائر من الحرير أو غيره مطرزة بشارة الدولة أو بأشعار أو حكم أو آيات أو أحاديث أو رسوم مدن أو أنهر أو جبال.

وفي وسط القاعة سدة أو سرير يجلس عليه الخليفة،[٦] يصنع من العاج أو الأبنوس أو الصندل يحلى بالذهب، وقد غالى الفاطميون في النفقة على الأسرة حتى يدخل في الواحد منها ١١٠٠٠٠ مثقال من الذهب الإبريز الخالص،[٧] وقد يجعل الخليفة بين يديه بعض التحف أو نحوها للزينة أو التشاغل بها، فالمعتمد الأندلسي كانوا يضعون أمامه في المجالس تماثيل عنبر من جملتها جمل مرصع بالذهب واللؤلؤ وجمل من بلور له عينان من ياقوت وقد حُلي بنفائس الدر.[٨] ولما كان الخلفاء يحتجبون عن الناس كانوا يعلقون في وسط القاعة سترًا بينهم وبين الجلساء،[٩] أو يستترون عنهم وراء شباك مخرم، على أن فرشهم يختلف في الشتاء عنه في الصيف، فيضاف إليه في الشتاء مواقد النار يستجر فيها الند والعود ويلبسون الفراء اللائقة بالوقت على أشكالها.[١٠]

(١-٢) مجالسة الخلفاء

الاستئذان في الدخول

كان الاستئذان على الخليفة في عصر الراشدين أن يقف الرجل بالباب ويقول: «السلام عليكم، أأدخل؟» يكرر ذلك ثلاثًا، فإن لم يؤذن له لم يعدها،[١١] وربما أقام الراشدون الحجاب لمنع الازدحام أو للاستئذان في بعض الأحوال، فلما انقضى ذلك العصر أقيم الآذنون والحجاب يتوسطون للناس في دخولهم على الخليفة بحسب طبقاتهم وفي أوقات معينة لكل طبقة من الجلساء أو الأدباء أو الشعراء أو غيرهم،[١٢] أما في المجالس العامة فيقدمون الناس حسب مراتبهم.

وأول من رتب المراتب في الدخول على الخليفة زياد بن أبيه في العراق، أشار عليه بذلك حاجبه عجلان ولعله اقتبسها من الفرس، فجعل الإذن للناس على البيوتات ثم على الأسنان ثم على الآداب،[١٣] وصار ذلك سنة في الاستئذان على الخلفاء في عصر الأمويين، فإذا استأذن جماعة في الدخول على الخليفة أو الأمير يؤذن أولًا لأشرفهم نسبًا، وإذا تساووا في النسب قدموا أكبرهم سنًّا، فإذا تساووا في السن قدموا أكثرهم أدبًا، وظلت هذه القاعدة مرعية في سائر العصور الإسلامية.

وكانوا في أيام بني أمية وفي أوائل الدولة العباسية إذا وفد الناس على الخليفة أو الأمير وقفوا ببابه يلتمسون الإذن، فإما أن يأذن لهم أو يصرفهم، فإذا صرفهم عادوا ثانية وإذا لم يؤذن لهم هذه المرة عادوا ثالثة حتى يؤذن لهم أو يملوا، ويعبرون عن ذلك بقولهم الإذن الأول والثاني والثالث إلخ،[١٤] ثم جعلوا للوافدين على الخليفة منازل بجوار دار العامة يقيمون فيها ريثما يؤذن لهم، وأول من فعل ذلك المنصور العباسي لما بنى بغداد، فاتخذ في قصره بيوتًا للإذن، فجرى الأمر على ذلك في الدولة العباسية،[١٥] فكان الوافد يقيم ريثما يستريح ثم يستأذن، وقد يلتمسون إذنًا لدخول القصر وآخر لدخول المجلس.

الدخول على الخليفة والسلام عليه

فإذا أذن لأحدهم بالدخول تقدم وألقى التحية، وكانوا في أول الإسلام يحيون تحية عامة، فيقول الداخل على الخليفة أو الأمير أو الوالي: «السلام عليك» ويكرهون قولهم: «عليك السلام» لأنها تحية الموتى،[١٦] وقد يضاف إلى التحية كنية الأمير أو الخليفة، ولا يزيدون على ذلك، فلما خالطوا الأعاجم، ورأوا تمييزهم بين الرئيس والمرءوس، هموا بتقليدهم، وأول من قلدهم المغيرة بن شعبة فقال: «ينبغي أن يكون بين الأمير ورعيته فرق.» وألزم أهل عمله أن يؤمروه أي يحيوه تحية الأمراء وهي: «السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته»،[١٧] أو «السلام على الأمير ورحمة الله» ففعلوا، واقتدى بهم سائر المسلمين، وميزوا الخلفاء بتحية الخلافة، فصاروا يقولون عند الدخول على الخليفة: «السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته»، أو «السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله»،[١٨] وما زالت هذه تحيتهم حتى فسدت حضارتهم بالتملق ونحوه، فقلدوا الدول الأخرى بالتعظيم، وحظروا على الناس السلام على الخليفة لما فيه من تكليف الرد والجواب، واقتصروا في تحيته على الخدمة والدعاء له، والخدمة تختلف بين أن تكون بانحناء الرأس والتطامن والبلوغ إلى حد الركوع، وما زاد عليه فهو سجود ولا يجوز لغير الله.

وربما قبلوا يد الخليفة عند التحية، وكانوا في أوائل الإسلام يقبلونها عند البيعة أو تجديد العطاء، وعند العفو أو الوداع، وكان الصحابة يفعلون ذلك مع النبي ﷺ وظل متبعًا مع أكثر الخلفاء، ثم ترفع هؤلاء عن أن يلمس الناس أكفهم، فصار التقبيل للأكمام والعتبات على حسب الاقتدار، وإذا أراد الخليفة تشريف أحد قواده منعه من تقبيل يده أو كمه كما فعل المهدي مع مسلم بن قتيبة، فجذب يده منه وقال: «نصونك

عنها ولا نصونها عن غيرك.»[١٩] وقد يختلف ذلك باختلاف الناس واختلاف الدول وتباين الأحوال، فإن جوهر القائد لما ودع مولاه المعز لدين الله عند قدومه لفتح مصر أنزل المعز أولاده لوداعه، فنزلوا عن خيولهم ونزل أهل الدولة لنزولهم فقبل جوهر يد المعز وحافر فرسه.[٢٠] وعبد الله بن مالك صاحب شرطة المهدي كان خائفًا من الهادي؛ لأنه سبه قبل خلافته، فرأى منه رعاية وحلمًا فلم يتمالك عن تقبيل يده ورجله وحافر دابته،[٢١] وكذلك فعل إبراهيم الموصلي فقبل حافر دابة الرشيد؛ لأنه تنازل لزيارته،[٢٢] وكان أهل الدين والنسك إذا دخلوا على الخليفة لا يدخلون مثل سواهم، بل يدخلون وعليهم السكينة والوقار.

والداخلون على الخليفة يجلسون في المواضع اللائقة بمراتبهم، ويتولى إجلاسهم الحاجب أو الآذن، وكانت الرتبة الأولى بعد الخليفة في الدولة الأموية لبني أمية، يجلسون على الأسرة وبنو هاشم على الكراسي، وأما في الدولة العباسية فصارت الأفضلية لبني هاشم، وصاروا يسمونهم الملوك والأشراف، فيجلس الخليفة على السرير أو السدة، ويجلس بنو هاشم على الكراسي، ويقعد بنو أمية إذا حضروا على الوسائد تثنى لهم،[٢٣] لكن الأمويين قلما كانوا يحضرون مجلس بني العباس، بعد أن نكبوهم وقتلوا معظمهم وما بقي منهم أسقطت مرتبته في أيام المستعين سنة ٢٥٠هـ،[٢٤] ويلي هؤلاء سائر طبقات الجلساء من أهل الدولة وغيرهم، وتتفاوت مراتب هؤلاء وتتباين على مقتضى الأحوال مما لا حد له.

الآداب في مجالسة الخلفاء

كانت مجالسة الخلفاء في صدر الإسلام مثل مجالسة سائر الناس، لما علمته من سذاجة الراشدين، وكانوا يخاطبون الخليفة باسمه أو كنيته، فيقولون: يا عمر ويتباحثون بلا احتراس ولا تهيب، لأسباب تقدم بيانها، فلما ضخم ملكهم وذهبت دهشة النبوة، عمل الأمويون على التشبه بالدول المستبدة، وأخذ الدهاة من عمالهم بتعظيم أمر الخليفة وتفخيم منصبه وتنزيه مجلسه عن مجالس سائر الناس، وأول من فعل ذلك زياد بن أبيه، فوضع القاعدة «أن لا يسلم على قادم بين يدي الخليفة»،[٢٥] ثم منعوا الكلام في حضرة الخلفاء على الإطلاق، وأول من منعه عبد الملك بن مروان، وتجبر الخلفاء بعد ذلك حتى منعوا الناس من مخاطبتهم كما كانوا يخاطبون أسلافهم، وأول من تجبر الوليد بن عبد الملك، فكلف الناس أن لا يكلموه كما كانوا يكلمون أسلافه، وقال بعد كلام: «وإني

أعطي الله عهدًا يأخذني بالوفاء به لا يكلمني أحد بمثل ذلك إلا أتلفت نفسه، فلعمري إن استخفاف الرعية براعيها سيدعوها إلى الاستخفاف بطاعته والجرأة على معصيته.» وقال له رجل من بني مرة يومًا: «اتق الله يا وليد فإن الكبرياء لله.» فأمر به فوطئ حتى مات، فاتعظ الناس وهابوه،[٢٦] وهو أول من منع الناس أن يكاتبوه بما كانوا يكاتبون أسلافه أو يكاتبون بعضهم بعضًا.

ثم صارت القاعدة المرعية في مجالسة الخلفاء أن لا يُدعى لأحد في حضرتهم،[٢٧] ولا ينهض لداخل إلا إذا نهض الخليفة، ثم صارت رسوم أرباب الدواوين كبارهم وصغارهم إذا كانوا في دواوينهم لا يقومون لأحد من خلق الله ممن يدخل عليهم،[٢٨] فلا يتكلم أحد في مجلس الخلفاء إلا إذا كلموه، أي لا يبدؤهم أحد بكلام، وجرت العادة أن يطلقوا الكلام للوافد عليهم بقولهم: «ما أنعمنا بك يا أبا فلان» وهي كلمة كانت تقولها العرب،[٢٩] فيذكر الرجل ما جاء من أجله، وإذا لم يطلق له الكلام ظل ساكتًا.

وما زال ذلك سنة مرعية في مجالس الخلفاء، حتى أباح المأمون الكلام لأهل مجلسه للمناظرة بين يديه،[٣٠] واستمر ذلك بعده مع مراعاة الأحوال، أما مبادأة الخليفة بالكلام فأول من استطاعها أحمد بن أبي دؤاد وزير المعتصم.[٣١] ولما استولى القواد على الأمور ضعفت هيبة الخلفاء وذهبت تلك الرسوم، حتى أبيح اللعب والضحك والهزل في مجالسهم، وأول من أباحها المتوكل على الله في أواسط القرن الثالث للهجرة.[٣٢]

ومن آدابهم في ذلك المجلس أن لا يأمر فيه أحد غير الخليفة،[٣٣] وإذا نهض نهض سائر الحضور، وأن يصغي الجليس إلى كلامه بكليته فلا يشتغل عنه بشيء، ومن لطيف ما يروونه من هذا القبيل أن معاوية كان يحدث يزيد بن سحرة حديثًا، وابن سحرة مصغ فصك جبينه حجر غائر فأدماه، فجعلت الدماء تسيل على وجهه ولحيته وثوبه ولم يتغير عما كان عليه من الاستماع، حتى نبهه معاوية إلى ذلك فأجابه: «إن حديث أمير المؤمنين ألهاني حتى غمر فكري وغطى على قلبي.» فزاد معاوية عطاءه.[٣٤]

والخلفاء لا يعزون، وإنما يقتصر على الدعاء لهم بدوام الظفر والسعادة من غير تطويل، ولا يقال للخليفة كيف أصبح ولا كيف أمسى، ولا يُسأل عن حاله ولا يطنب في تحسين كلامه ولا أفعاله، ولا يستعاد منه الكلام ولا يستزاد ولا تحسن الإشارات في مجلسه ولا يغامز، ولا يشتغل بحضرته بوداع راحل ولا سلام قادم،[٣٥] ولا يليق أن يرد على الخليفة بلفظ «لا» فيحتال في التخلص منها،[٣٦] وقد قالوا في الاحتراس في مخاطبة الملوك: «من أراد مصاحبة الملك فليدخل كالأعمى وليخرج كالأخرس.»[٣٧] ومن

أمثلة التأدب في مخاطبة الخلفاء أن عبد الملك بن صالح وجه إلى الرشيد فاكهة في أطباق الخيزران وكتب إليه: «أسعد الله أمير المؤمنين وأسعدني به، إني دخلت إلى بستان لي أفادنيه كرمك وعمرته لي نعمك، قد أينعت أشجاره وآتت ثماره، فوجهت إلى أمير المؤمنين منه شيئًا على الثقة والإمكان في أطباق القضبان، ليصل إليَّ من بركة دعائه مثل ما وصل إليَّ من كثرة عطائه.» فاستحسن الرشيد تكنيته عن الخيزران بالقضبان لأنه اسم أمه.[٣٨]

وكان الحديث يجري في مجلس الخليفة في أول الإسلام باللغة العربية الفصحى، فيعربون الكلام ويضبطون حركات الألفاظ، فمن لم يستطع ذلك من الخلفاء عدوه لحانًا، فكان الأمويون يرسلون أولادهم إلى البادية يشبون فيها ليضبطوا ألفاظهم، وقد أحسنوا ذلك إلا الوليد بن عبد الملك فإن أباه لم يرسله إلى البادية فنشأ لحانًا، وكان أبوه يكره اللحن ومن أقواله: «اللحن في الكلام أقبح من التفتيق في الثوب والجدري في الوجه.» ومنها: «تعلموا النحو كما تتعلمون الفرائض.» وكان يخاف اللحن إذا وقف للخطابة فيؤلمه ذلك، وسأله سائل: «لقد عجل إليك الشيب يا أمير المؤمنين.» فقال: «شيبني ارتقاء المنابر وتوقع اللحن.» وكذلك كان سائر بني أمية، وللوليد أخبار في اللحن مضحكة،[٣٩] وكان عمال بني أمية مثل خلفائهم في المحافظة على الإعراب إلا الحجاج بن يوسف فقد كان يلحن أحيانًا،[٤٠] فلما استعجمت الدولة في زمن بني العباس قلت عناية الناس بالإعراب، وظهر غير واحد من الفقهاء والعلماء يلحنون في كلامهم، كأبي حنيفة النعمان وأبي عبيدة وغيرهما.

احتجاب الخلفاء عن جلسائهم

كان الخلفاء الراشدون يجالسون الناس ويخاطبونهم ولا يحتجبون عنهم، ثم احتجب الأمويون وجعلوا بينهم وبين الجلساء حجابًا، ووسطوا في حوائج الناس من يقضيها عنهم، وأول من احتجب معاوية بعد محاولة البرك بن عبد الله الخارجي سنة ٤٠هـ قتله غيلة، وكان قد قعد له في المسجد فلما خرج ليصلي الغداة شد عليه بالسيف فجرحه، فلما شُفي ابتنى هناك مقصورة يصلي فيها خوفًا من مثل ذلك، واحتجب عن الناس إلا من اختصهم بالمجالسة، واقتدى به الخلفاء بعده في أوائل دولتهم، وكذلك الأوائل من بني العباس.[٤١]

والحجاب كان شائعًا عند الفرس من عهد أردشير، فكانوا ينصبون في مجلس الملك ستارة بينها وبينه عشرة أذرع وبينها وبين الجلساء عشرة أذرع، فقلدهم العباسيون،

ثم ضاعفوا الحجاب في بعض الأحوال، فاتخذوا عدة أستار الواحد وراء الآخر إلى ثلاثة أو أربعة، وفعل ذلك وزراؤهم البرامكة أيضًا،[٤٢] وجعلوا لقصورهم عدة أبواب الواحد وراء الآخر.[٤٣]

كذلك كان شأن العباسيين، من أبي العباس السفاح إلى المتوكل ومن بعده، إلا الهادي فإنه لم يحتجب عن أحد،[٤٤] على أنهم كانوا يحتجبون غالبًا عن الندماء والمغنين وسائر طبقات العامة، وليس عن الخاصة إلا أحيانًا، فكانوا يقيمون عند الستارة حاجبًا يسمونه صاحب الستارة، يتوسط في نقل ما يريد الخليفة إبلاغه إلى جلسائه أو ندمائه، واقتدى بالعباسيين غيرهم من الدول الإسلامية بمصر والأندلس.

علامة الصرف

وإذا أراد الخليفة صرف جلسائه أبدى إشارة يعرفونها فينصرفون، وهي عادة فارسية وضعها كسرى أنوشروان، فكان إذا أحب أن يصرف ندماءه مد رجله فينصرفون … وتابعه ملوكهم على ذلك، فكان فيروز يدلك عينيه، وبهرام يرفع رأسه إلى السماء،[٤٥] وقلدهم فيها المسلمون من أيام بني أمية، فكان معاوية إذا أراد صرف الناس قال: «إذا شئتم» أو «العزة لله»، وكان ابنه يزيد يصرفهم بقوله: «على بركة الله»، وعبد الملك كان يحمل بيده خيزرانة فإذا ألقاها من يده عرف جلاسه أنه يريد انصرافهم،[٤٦] وقس عليه سائر الخلفاء من بني أمية وأمرائهم، فكان يزيد بن هبيرة إذا أراد صرف جلسائه دعا بمنديل فيقومون.

أما بنو العباس فقد كانت إمارة السفاح منهم أن يتثاءب ويلقي المروحة من يده،[٤٧] وكانت علامة المأمون أن يعقد أصبعه الوسطى بإبهامه ويقول: «برق يمان برق يمان!» ومن انصرف من حضرة الخليفة مشى القهقرَى ووجهه نحو مجلسه حتى يتوارى.

(١-٣) مجالس الأدب والشعر

رغبة الخلفاء في الاطلاع

كان للخلفاء ميل شديد إلى سماع الأخبار، فيعقدون المجالس يحضرها الأدباء من أهل الأخبار والنوادر والأدب والشعر، يحادثون الخليفة بما يلذ له سماعه من أخبار العرب ونوادرهم وأشعارهم، وكان الدهاة من الخلفاء والأمراء مثل معاوية وهشام والمنصور

وابن هبيرة،[٤٨] يقيمون أناسًا يتلون عليهم أعمال القواد والملوك من الروم والفرس، وأخبار الدول وحوادث الشجاعة والرأي، يلتمسون بذلك التوسع في أسباب الدهاء وأفانين السياسة، كما يفعل رجال اليوم بالاطلاع على تراجم العظماء.

على أنهم كانوا يعقدون مجالس الأدب على الغالب لترويح النفس من مشاغل الدولة، وتلذذًا بالاطلاع على آداب العرب وأخبارهم، فاختص بكل خليفة جماعة ممن عاصروه من أصحاب الأخبار والشعر، يجالسونه في أوقات معينة أو إذا دعاهم في ساعة قلقه أو أرقه، وقد يكون ذلك في أواسط الليل والناس نيام، فلا يزال الرجل ينتقل بحديثه من خبر إلى نكتة إلى نادرة إلى شعر، حتى يزول ما في نفس الخليفة وينشرح صدره، وقد تفرغ جعبة المحدث مما يعلمه من الأخبار قبل أن ينشرح صدر الخليفة، فيضع قصة من عند نفسه يبنيها على نكتة أو حكمة مما يعلم ارتياح الخليفة له.[٤٩]

احترام الخلفاء لأهل العلم

وكانوا يجلون أهل الأدب والعلم ويقربونهم ويبذلون لهم الأموال ويدافعون عنهم، ولا سيما الرشيد والمأمون، وفيما يروونه عن الرشيد ومعاملته للعلماء أدلة عديدة على ذلك، فكان كثير الملاطفة للأصمعي والإجلال له، فإذا خلا به سأله واستفاد منه علمًا وأدبًا، فيقول الرشيد عند ذلك: «هكذا وقرنا في الملا وعلمنا في الخلا.» وكان يعطيه الجوائز الحسنة، وأكل أبو معاوية الضرير طعامًا مع الرشيد، فلما قام ليغسل يديه تناول الرشيد الإبريق وصب عليهما والرجل لا يعلم، فقال له: «أتدري من يصب الماء على يديك؟» قال: «لا.» قال: «أنا.» قال: «أنت يا أمير المؤمنين؟» قال: «نعم، إجلالًا للعلم.»[٥٠]

ناهيك بما وقع من البحث في مسألة الزنبور والنحلة بين سيبويه والكسائي، وكيف انتصر الأمين للكسائي والمأمون لسيبويه، وما جرى من الجدال في ذلك بحضرة الرشيد، فأخذ الرشيد يناصر الكسائي في حديث طويل ذكرنا خلاصته في الجزء الثالث.

ومن أدلة إجلالهم للعلم أنهم كانوا يحرضون أبناءهم على تلقيه وحفظ الأشعار والأخبار، ويعينون لهم المعلمين من نخبة العلماء المعاصرين، فالمنصور ضم الشرقي بن القطامي إلى ابنه المهدي وأوصاه أن يعلمه أخبار العرب ومكارم الأخلاق وقراءة الأشعار،[٥١] والرشيد عهد بتعليم ابنه الأمين إلى الأحمر النحوي ثم إلى الكسائي وعهد

بتأديب المأمون لليزيدي وسيبويه وغيرهما، وللرشيد وصية يقال إنه أوصى بها الأحمر المذكور لما عهد إليه بتأديب الأمين وهي:

> يا أحمر، إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبه، فصير يدك عليه مبسوطة وطاعته لك واجبة، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين: أقرئه القرآن، وعرفه الأخبار، وروه الأشعار، وعلمه السنن، وبصره بمواقع الكلام وبدئه، وامنعه من الضحك إلا في أوقاته، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه، ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه، ولا تمعن في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه، وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة، فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة.[٥٢]

وعهد المأمون إلى الفراء بتعليم ولديه النحو، واتفق أن الفراء أراد أن ينهض ذات يوم إلى حوائجه فابتدرا إلى نعله ليقدماها له، فتنازعا أيهما يقدمها ثم اصطلحا على أن يقدم كل منهما واحدة، وبلغ ذلك المأمون فاستدعاه، فلما دخل عليه قال المأمون: «من أعز الناس؟» قال: «لا أعرف أحدًا أعز من أمير المؤمنين.» فقال: «بل من إذا نهض تقاتل على تقديم نعله وليا عهد المسلمين حتى يرضى كل واحد منهما أن يقدم له فردًا.» فقال: «يا أمير المؤمنين لقد أردت منعهما عن ذلك، ولكن خشيت أن أدفعها عن مكرمة سبقا إليها أو كسر نفسيهما عن شريفة حرصا عليها.»[٥٣] وعهد المتوكل بتعليم أبنائه إلى ابن السكيت،[٥٤] وتعلم عبد الله بن المعتز الأدب والعربية على المبرد وثعلب وأحمد بن سعيد الدمشقي.[٥٥]

تقديم الشعراء

ويقال نحو ذلك في تقديمهم الشعراء، فقد أجزلوا لهم الأعطية، وعينوا لهم أوقاتًا يدخلون فيها عليهم كما قلنا في غير هذا المكان، وكانوا يفرضون لهم مالًا يدفعونه إليهم كل سنة على الوفدة أو القصيدة، أو يعطونهم على البيت من الشعر مبلغًا معينًا، على أن مقامهم كان يعلو ويهبط تبعًا لأمزجة الخلفاء وأغراضهم وأحوال السياسة، فمنهم من كان يبعد الشعراء بخلًا كعبد الملك بن مروان وابنه الوليد،[٥٦] ومنع عمر بن عبد العزيز الشعراء من بابه تورعًا لاعتقاده أنه لا تصح إجازتهم من بيت المال، وكان ذلك اعتقاد غير واحد

من أبناء الصحابة كعبد الله بن الزبير وغيره، وكان المنصور بخيلًا على الشعراء اشتغالًا عنهم بتأييد الدولة، فكانوا يخرجون في أيامه من بغداد ويجتمعون ويتذاكرون أيامهم في الشام،[٥٧] على عهد بني أمية.

ولكن معظم الخلفاء كانوا يحبون الشعر ويقربون الشعراء، وبعضهم تعلموا العروض ونظموا الشعر ولهم أبيات مشهورة، وكان الشعراء يتقربون إلى الخلفاء أو الأمراء بالمديح، وقد يرتكبون أقبح الأكاذيب في هذا السبيل، إلا من لم ينتجع بشعره وهم قليلون، وكانت لهم منزلة رفيعة عند أهل الدولة،[٥٨] وأما سائر الشعراء فكانوا يتعيشون بالمدح أو الهجاء، وقيل للحطيئة: «إياك وهجاء الناس.» فقال: «إذًا يموت عيالي جوعًا، هذا مكسبي ومنه معاشي.»[٥٩] وقد يمدح الشاعر الضدين رغبة في الكسب، كما فعل ابن دأب فمدح معاوية وعليًّا.[٦٠]

وكان الشاعر إذا دخل على الخليفة بقصيدة أنشدها بصوت عال وهو قائم، وإذا تعدد المنشدون قدمهم على الأسنان، وكان الخلفاء يتفهمون معاني الشعر، حتى إنهم كثيرًا ما كانوا يباحثون الشاعر في معنى البيت أو الكلمة، وإذا استبطئوا الشاعر أو الراوية بعثوا في استقدامه من العراق أو الحجاز، وقد لا يكون الغرض من ذلك إلا سماع بيت أو قصيدة، كما فعل الوليد بن يزيد في استقدام حماد من العراق لينشده قصيدة تغنيها مغنيته،[٦١] أو لينظم له شعرًا في حادثة جرت معه كما فعل الواثق لما غضبت عليه حظيته فاستقدم ابن الضحاك ليقول في ذلك شعرًا،[٦٢] وقد يجيزون من يأتيهم بشاعر يعجبهم، كما أجاز المهدي الفضل بن الربيع بعشرة آلاف دينار وولاه حجابته لأنه أتاه بابن جامع.[٦٣]

وكانوا لا يكتفون بمن يفد عليهم من الشعراء للاستجداء، فيرسلون في طلبهم إلى الأنحاء، وأرغب الخلفاء في ذلك الرشيد،[٦٤] فتكاثر الشعراء ببابه حتى ضاقت بهم بغداد، واضطروا إلى امتحانهم وترتيبهم في الجوائز، فعهد يحيى بن خالد بذلك إلى شاعره إبان اللاحقي،[٦٥] وأصبح الخليفة إذا أحب مجالسة الشعراء بعث رجلًا يثق به ليختار له أحسنهم،[٦٦] أو إذا عَنَّ له بيت أو قصيدة خرج وصيف أو حاجب أو نحوهما فيقول للشعراء: «من منكم يقدر يقول قول فلان أو يحفظ القصيدة الفلانية فليدخل وله كذا وكذا.»[٦٧] وكانوا يطربون للشعر ويستلذونه، وربما تزاحفوا عن مجالسهم إعجابًا وطربًا.[٦٨]

(١-٤) مجالس المناظرة والعلم

كانت مجالس الأدب في أيام بني أمية وأوائل بني العباس يقتصر البحث فيها على المسائل الأدبية والعلوم اللسانية كما تقدم، فلما ترجمت علوم القدماء في العصر العباسي ونشأ علم الكلام شاعت المناظرة بين العلماء والفقهاء، وقد سبق الناس إلى العناية في ذلك البرامكة، فكان ليحيى بن خالد مجلس يجتمع فيه المتكلمون وغيرهم من أهل النحل، يتباحثون في الكون والظهور والقدم والحدوث والإثبات والنفي وغيرها من الأبحاث الفلسفية المبنية على علم الكلام.[٦٩]

ثم اهتم الخلفاء أنفسهم في ذلك، ولا سيما بعد أن ظهر القول بخلق القرآن وقام به المأمون، فأخذ يعقد المجالس للمناظرة فيه وفي سواه، وعين لذلك يوم الثلاثاء من كل أسبوع، فإذا حضر الفقهاء ومن يناظره من سائر أهل المقالات أدخلوا حجرة مفروشة وقيل لهم: «انزعوا أخفافكم.» ثم أحضرت الموائد وقيل لهم: «أصيبوا من الطعام والشراب وجددوا الوضوء، ومن كان خفه ضيقًا فلينزعه، ومن ثقلت عليه قلنسوته فليضعها.» فإذا فرغوا أتوا بالمجامر فتبخروا وتطيبوا ثم خرجوا، فاستدناهم الخليفة حتى يدنوا منه ويناظرهم أحسن مناظرة وألطفها وأبعدها من مناظرة المتجبرين، فلا يزالون كذلك إلى أن تزول الشمس، ثم تنصب الموائد ثانية فيطعمون وينصرفون،[٧٠] وسار الواثق على خطواته في هذا السبيل، وكانوا يعقدون هذه المجالس كلما دعت الحاجة إلى إثبات رأي أو مذهب جديد.

ولما استقرت الدولة الفاطمية بمصر فعل وزيرها يعقوب بن كلس مثل ما فعل يحيى البرمكي وزير العباسيين، فأنشأ مجالس للمناظرة في الفقه والأدب والشعر وعلم الكلام وغيره، وغرض هذه الدولة إثبات مذهب الشيعة؛ لأن دولتهم قامت عليه، فأخذ الحاكم بأمر الله يفاوض العلماء ويجيزهم، ويسهل عليهم البحث والمناظرة في دار الحكمة التي أنشأها في القاهرة،[٧١] وربما عقدوا حلق المناظرة في الجوامع أو غيرها.

وصارت تلك المجالس عامة في الدول التي خلفت الدولة العباسية أو تفرعت منها، وأكثر العقلاء والأقوياء من الملوك والسلاطين كانوا يعقدونها للمناظرة، كذلك فعل صلاح الدين الأيوبي وسيف الدولة الحمداني ونظام الملك وزير ملكشاه والحكم المستنصر الأندلسي، واقتدى بهم أهل العلم والوجهاء والأطباء، وأطلقت حرية البحث في كل شيء، ومن أشهر مجالس المناظرة مجلس كان يعقده يوحنا بن ماسويه في بغداد، فيحضره العلماء على اختلاف طبقاتهم من الفلاسفة والأطباء والأدباء والمتكلمين

وغيرهم،[٧٢] ومجلس أبي حامد الإسفراييني كان يحضره ٣٠٠ فقيه، وقس عليهما مجلس ابن المنجم وكان يعقده بحضرة المكتفي.[٧٣]

(١-٥) مجالس الغناء والأنس

منزلة المغنين

تقدم الكلام في تاريخ الغناء وأصله وانتشاره، وقد رغب الخلفاء فيه على الخصوص في إبان الحضارة وعصر الرخاء والترف، وجعلوا للمغنين نوبات يدخلون فيها مجالسهم،[٧٤] وفرضوا لهم الرواتب كما فرضوها للشعراء، وعهدوا بهم إلى بعض أهل البلاد أو الحاشية ينظرون في أمورهم،[٧٥] وكانوا يصطحبونهم في خروجهم للصيد أو نحوه ويجيزونهم[٧٦] الجوائز الكبرى، وهم أقرب إلى ذلك من الشعراء لما يتفق في مجالسهم من طرب الخلفاء؛ لأنهم قلما كانوا يسمعون الغناء من غير شراب، فإذا طربوا بذلوا الأموال بلا حساب كما تقدم.

ومن أكثر الخلفاء الأمويين رغبة في الغناء وبذلًا للمغنين يزيد بن عبد الملك، الذي استخفه الطرب من غناء جاريته حبابة حتى قال: «أريد أن أطير!» فقالت له حبابة: «على من تدع الأمة وتدعنا؟»[٧٧] وكذلك كان ابنه الوليد بن يزيد، ومن الخلفاء العباسيين المهدي والرشيد والأمين والمأمون والواثق والمتوكل ومن نبغ في أيامهم من الوجهاء والعظماء.

على أنهم كانوا إذا أهمهم أمر الدولة وخافوا سقوطها أبعدوا المغنين ليتفرغوا لمهامهم، كما فعل المأمون لما رجع من خراسان،[٧٨] وكان لكبار المغنين منزلة رفيعة في الدولة كإبراهيم الموصلي وابنه إسحاق وابن جامع، وكانت جوائزهم من الخلفاء تفوق الحصر، ذكروا عن إبراهيم المذكور أنه غنى للأمين بشعر أبي نواس:

رشأ لولا ملاحته خلت الدنيا من الفتن

فاستخفه الطرب حتى وثب من مجلسه وركب على إبراهيم وجعل يقبل رأسه! فنهض إبراهيم وأخذ يقبل أخمص قدمي الأمين وما وطئتا من البساط، فأمر له بثلاثة آلاف درهم، فقال إبراهيم: «يا سيدي قد أجزتني إلى هذه الغاية بعشرين ألف ألف درهم.» فقال الأمين: «وهل ذلك إلا خراج بعض الكور؟»[٧٩] فاعتبر ما دخل على الموصلي من الرشيد وغيره، فلا غرو إذا توفي عن ثروة طائلة، واشتهر في الأندلس علي بن نافع

المعروف بزرياب المغني وهو الذي نقل هذه الصناعة إلى الأندلس، فقد أُثري وارتفعت منزلته حتى صار يركب في ٢٠٠ غلام ويملك ٣٠٠٠٠ دينار غير الخيل والضياع والرقيق.[٨٠]

المضحكون والمجانون

ومن توابع مجالس الغناء المضحكون والمجانون، أشهرهم أشعب في دولة بني أمية، وأبو الحسن الخليع الدمشقي في أيام الرشيد، وأبو العبر في أيام المتوكل وغيرهم كثيرون، فكانوا إذا عقدت مجالس الأنس ودارت الأقداح وطرب الخليفة لبسوا ملابس مضحكة يقلدون بها الدب أو القرد، يعلقون في أعناقهم الجلاجل والأجراس مما يضحك الثكلى، وكان بعض الخلفاء إذا استخفهم الطرب كلفوا هؤلاء المجانين ما لا يطاق من ضروب العذاب وهم يتلذذون بعذابهم، فالمتوكل كان إذا طرب أمر بأبي العبر المجان أن يُرمى به في المنجنيق إلى الماء وعليه قميص حرير، فإذا علا في الهواء صاح: «الطريق الطريق!» ثم يقع في الماء فيخرجه السباح، وكان يجلس أحيانًا على الزلاقة فينحدر فيها حتى يقع في البركة، ثم يطرح الخليفة الشبكة فيخرجه كما يخرج السمك،[٨١] وكان الأمين إذا طرب صاح في ندمائه وجلاسه: «من يكون منكم حماري؟» فكل واحد يقول: «أنا!» فيركب الواحد ويصله،[٨٢] وكان يقع في مجالس الوليد بن يزيد من السكر والفحش في القول والفعل ما نتحاشى ذكره، وقد أفرط الخلفاء في التبسط في العيش والتمتع بالملذات، ولذلك كانوا قصار الأعمار فمات أكثرهم قبل سن الكهولة.

(٢) مواكب الخلفاء

نريد بالموكب الاحتفال بخروج الخليفة أو السلطان أو الأمير في عيد أو غير عيد، وهو من مقتضيات الأبهة والمدنية، وكانت المواكب معروفة عند ملوك العرب في الجاهلية، فكان لمعد يكرب عبيد من الأحباش يمشون بين يديه بالحراب،[٨٣] فلما جاء الإسلام تزهد أصحابه من التقوى، فكان الخلفاء الراشدون يركبون في خروجهم كسائر الناس، وكان أبو بكر في أول خلافته يقيم في السنح بضاحية المدينة ويغدو كل يوم على رجليه إلى المدينة وقد يركب فرسه، وكان يغدو إلى السوق فيبيع ويبتاع، وله قطعة غنم تروح عليه وربما خرج هو بنفسه فيها منفردًا، وكان عمر يخرج في الأسواق ماشيًا ويسوءه

أن يركب عماله وأمراؤه ركوب الفرس والروم. وفد على الشام أربع مرات جاءها في المرة الأولى على فرس، وفي الثانية على بعير، وفي الثالثة على بغل، وفي الرابعة على حمار، وبعث في إحدى خطراته إلى أمرائه أن يوافوه في الجابية، فكان أول من لقيه يزيد بن أبي سفيان وأبو عبيدة، ثم خالد على الخيول عليهم الديباج والحرير، فنزل وأخذ الحجارة ورماهم بها،[٨٤] فقس على ذلك سائر الراشدين.

(٢-١) مواكب الخلفاء في إبان التمدن

على أن اتخاذ الآلة والأعوان في المواكب إنما بدأ به العمال في الأمصار، لقربهم من حضارة الفرس والروم، فاتخذوا الطبول والأعلام والحرس وغيرها من شارات الدولة، وأسبقهم إلى ذلك معاوية، فأقام حراسًا يرفعون الحراب بين يديه، أو يقفون بالسيوف عند المقصورة التي يُصلي فيها خوفًا من الاغتيال،[٨٥] واقتدى به عماله، وبعضهم سبقه إلى مثله، فاتخذ زياد بن أبيه رجالًا يمشون بين يديه بالأعمدة[٨٦] أو بالحربة، وأصبح ذلك قاعدة في المسير بين يدي الخليفة، ثم صار المسير بالحربة خاصًّا بولي العهد أو بكبار العمال، يحملها رجل راكب على جواد يتقدم الخليفة أو الأمير، فجرى على ذلك الخلفاء العباسيون.[٨٧]

وفي أيام المتوكل جاء بعضهم بحربة كانت للنبي ﷺ تسمى العنزة، وأصلها للنجاشي، فأهداها للزبير بن العوام فأهداها الزبير للنبي ﷺ، وكانت تركز بين يديه في العيدين، ثم اتصلت بذلك الرجل فحملها إلى المتوكل، فكان صاحب الشرطة يحملها بين يديه،[٨٨] إذا خرج في موكبه.

وتدرجوا في الأبهة بتدرجهم في أسباب المدنية واتساع السلطة، حتى اصطنعوا المحامل أو القباب أو المحفات يحملون بها بدل الركوب على الخيل، ثم صاروا يركبون والناس يمشون بين أيديهم، وأقدم من فعل ذلك الأشعث بن قيس سيد أهل اليمن، فكان يركب والناس يمشون بين يديه،[٨٩] ثم صاروا يمشون بين يدي الخلفاء بالسلاح، وأول من فعل ذلك الهادي العباسي، فكان إذا ركب مشت الرجال بين يديه بالسيوف المرهفة والأعمدة المشهورة والقسي الموتورة،[٩٠] فلما خلفه الرشيد تجاوزه فاتخذ خدمًا صغارًا يسمونهم النمل يتقدمونه وبأيديهم قسي البندق يرمون بها من يعارضه من الناس،[٩١] ثم صار ذلك سنة جرى عليها الوزراء والأمراء، وأول وزير مشى أرباب الدولة بين يديه رجالة الحسن بن علي وزير المسترشد،[٩٢] وكانوا إلى ذلك الحين يركبون بالحلية الخفيفة

الفضية والسروج المكسوة بالديباج، ثم ركبوا في حلية الذهب، وأول من ركب بها المعتز العباسي المتوفى سنة ٢٥٥هـ، فجرى الناس على ذلك.

أما في مصر فالخلفاء الفاطميون قلدوا العباسيين في مواكبهم على جاري العادة في سائر أسباب المدنية، وزادوا عليهم الركوب بالمظلة والشمسية، ولعلهم نقلوا هذه العادة من المغرب؛ لأنها كانت جارية هناك قبل الإسلام، فكان الناس يظللون حكامهم بريش الطواويس،[٩٣] فاتخذها الفاطميون من الديباج أو الخز المحلى بالذهب والمرصع بالجوهر وحولها الأعلام تختلف ألوانها باختلاف الأحوال.

وكان السلاجقة يركبون بالطبل والبوق والعلم وبالجتر على رءوسهم، وهو كالقبة الصغيرة مرتفعة في الهواء على رمح يحمله من يسير قرب الملك بحيث يظلله من الشمس، ويتخذونه من الديباج أو الحرير المذهب.[٩٤]

على أن تلك المواكب تختلف فخامة وشكلًا باختلاف المقصود منها وباختلاف الدول، أهمها موكب الخروج إلى الحج أو إلى بلد آخر، ومواكب الأعياد وهي تمتاز بمن يقف للخليفة في خروجه من صفوف الجند، وأول من صفت له الجنود زيد بن الوليد الأموي، فكان يخرج يوم العيد بين صفين عليهم السلاح.[٩٥]

وللخلفاء مواكب كثيرة لو أردنا الإتيان عليها كلها لضاق المقام، ولكننا نقول بالإجمال: إنهم كانوا يخرجون على الخيول أو في القباب، وحولهم الأعوان ركوبًا والشرطة مشاة، وكذلك الغلمان على اختلاف طبقاتهم يلبسون مناطق الذهب أو يحملون المقارع أو الطبرزينات المحلاة بالذهب، ويقف الناس أو الجند في الطريق صفين يسير الموكب بينهما، ويختلف طول هذا الموكب باختلاف ما يريدونه من إظهار الأبهة، وقد بلغ طوله في خروج المتوكل على الله أربعة أميال ترجل فيها الناس بين يديه،[٩٦] وإذا كان المسير إلى مكان بعيد ضربوا القباب العظيمة في الطريق،[٩٧] يستظل الخليفة بها أو يقيم فيها.

وكان الخلفاء الفاطميون يركبون يوم الجمعة إلى الجامع الأزهر بالمظلة المذهبة وبين أيديهم نحو ٥٠٠٠ ماش، وعلى الخليفة الطيلسان والسيف وبيده قضيب الخلافة، حتى يأتي الجامع ويصلي، ولهم رسوم كثيرة يجرونها قبل الصلاة، وإذا خرجوا للمبايعة أو الاحتفال لفتح الخليج ركب الخليفة وعليه العمامة الجوهر،[٩٨] وثوب يقال له: البدنة؛ كله ذهب وحرير مرقوم والمظلة من شكله، وبين يدي الخليفة الجنائب عليها السروج الذهب المرصع بالجوهر والسرج العنبر والقباب الديباج بالحلي، والعسكر على أزيائه من الأتراك والديلم والعزيزية والإخشيدية والكافورية بالديباج الثقيل والمناطق المذهبة،

وبين يديه الفيلة عليها الرجالة بالسلاح والزراقة، وفوق الخليفة المظلة الثقيلة بالجوهر وبيده قضيب الخلافة، ويمشي أمامه أصحاب الأبواق الذهب فأبواق الفضة فالنحاس، وأصحاب الطبول الكبار التي مكان خشبها فضة، والألوية تخفق فوق ذلك الموكب.

(٢-٢) احتفالاتهم

الاحتفالات الدينية

والاحتفالات في التمدن الإسلامي بعضها ديني كالموالد والأعياد والكسوة، وبعضها وطني كالنيروز والمهرجان وشم النسيم وفتح الخليج، على أن الاحتفالات الدينية إنما اتخذوا أسلوب الاحتفال بها من غير المسلمين، كما اتخذ النصارى بعض طقوس الاحتفال بأعيادهم من الوثنيين، ولا يزال الاحتفال بالأعياد الإسلامية شائعًا إلى الآن مع تغيير اقتضاه الفرق بين التمدنين، وأكثر الدول الإسلامية عناية بهذه الأعياد الفاطميون، منها: يوم عاشوراء، والمولد النبوي، ومولد علي وفاطمة والحسن والحسين، والخليفة الحاضر، وليلة أول رجب، وعيد النحر، وعيد الفطر، وفتح الخليج، ويوم النيروز، وغيرها مما فصله المقريزي في خططه،[٩٩] ولهم في كل من هذه الأعياد رسوم وقواعد يبذلون فيها الأموال ويفرقون الصدقات ويهدون الهدايا من النقود والثياب والحلي وغيرها مما يطول شرحه.

وممن اشتهرت عنايته بالاحتفالات الدينية مظفر الدين صاحب أربل، وكان احتفاله بالمولد النبوي بالغًا حد النهاية في الأبهة، والمشهور أنه أول من احتفل به على الصورة المعروفة اليوم،[١٠٠] وكذلك السلطان أبو حمو موسى صاحب تلمسان،[١٠١] هذا غير احتفالاتهم الاجتماعية كالأعراس والمآتم والختان ونحوها، والسياسية كاستقبال الوفود والمبايعة والتتويج والخلع، فنذكر أمثلة منها فيما يلي:

احتفالات الأعراس ونحوها

فالاحتفال بالأعراس تقلب على أحوال شتى ترجع إلى نحو المشهور من الاحتفال بأعراس المسلمين في مصر الآن، مع اعتبار عوائد البلاد وتفاوت الثروة، ونأتي بمثال من أبلغ ما يُعرف من التناهي بالبذخ في مثل هذه الحال، فنذكر احتفالين اشتهرا في تاريخ الإسلام:

الأول: زفاف خديجة بنت الحسن بن سهل المسماة بوران إلى الخليفة المأمون، احتفلوا به في «فم الصلح»، احتفالًا لم يسبق له مثيل، نثر الحسن فيه على الهاشميين والقواد والكتاب والوجوه بنادق المسك فيها رقاع بأسماء ضياع وأسماء جوار وصفات دواب وغير ذلك، فكانت البندقة إذا وقعت في يد الرجل فتحها فيقرأ ما في الرقعة، فإذا علم ما فيها مضى إلى الوكيل المرصد لذلك فيدفعها إليه، ويتسلم ما فيها، سواء كان ضيعة أو ملكًا آخر أو فرسًا أو جارية أو مملوكًا، ثم نثر على سائر طبقات الناس الدنانير والدراهم ونوافج المسك وبيض العنبر، غير ما أنفقه على المأمون وقواده وأصحابه وسائر من كان معه من أجناده وأتباعه، وكانوا خلقًا لا يحصى حتى على الحمالين والمكارية والملاحين وكل من ضمه عسكره، ذكروا أنه خدم في ذلك الاحتفال ٣٦٠٠٠ ملاح ونفد الحطب يومًا فأوقدوا تحت القدور الخيش مغموسًا في الزيت، ولما كانت ليلة البناء وجليت بوران على المأمون فرش لها حصير من الذهب، وجيء بمكتل مرصع بالجواهر فيه درر كبار نثرت على النساء وفيهن زبيدة وحمدونة بنت الرشيد فما مست إحداهن من الدر شيئًا، فقال المأمون: «شرفن أبا محمد وأكرمنه.» فمدت كل واحدة منهن يدها فأخذت درة، فبقي سائر الدر يلوح على ذلك الحصير الذهب ويتلألأ فقال المأمون: «قاتل الله الحسن بن هانئ.» كأنه قد رأى هذا حيث يقول:

كأن صغرى وكبرى من فقاقعها   حصباء در على أرض من الذهب

وكانت في المجلس شمعة عنبر فيها مائة رطل، فضج المأمون من دخانها فعملت له مثل من الشمع، فكان الليل مدة مقامه فيه كالنهار، وبلغت نفقة هذا الاحتفال ٥٠٠٠٠٠٠٠ درهم، وأمر المأمون للحسن بن سهل عند منصرفه بمبلغ ١٠٠٠٠٠٠٠ درهم وأقطعه فم الصلح، فجلس الحسن وفرق المال على قواده وأصحابه وحشمه، وأطلق له خراج فارس وكور الأهواز مدة سنة، وجاء المأمون إلى عروسه في الليلة التالية فنثرت عليه جدتها ألف درة كانت في صينية ذهب،[١٠٢] وغير ذلك مما يفوق طور التصديق.

والاحتفال الثاني: أقامه المتوكل على الله حين ظهر ابنه المعتز بالموضع المعروف ببركوازا، ومما جرى فيه أنه جلس بعد فراغ القواد والأكابر من الأكل ومدت بين يديه مرافيع ذهب مرصعة بالجوهر، وعليها أمثلة من العنبر والند والمسك المعجون على جميع الصور، وجعلت بساطًا ممدودًا، وأحضر القواد والجلساء وأصحاب المراتب،

فوضعت بين أيديهم صواني الذهب مرصعة بأصناف الجواهر من الجانبين وبين السماطين فرجة، وجاء الفراشون بزنابيل قد غشيت بالأدم مملوءة دراهم ودنانير نصفين، فصبت في الفرجة حتى ارتفعت على الصواني، وأمر الحاضرون أن يشربوا وأن يتنفل كل من شرب من تلك الدنانير بثلاث حفنات مما حملت يده، وكلما خف موضع صب عليه من الزنابيل حتى يرد إلى حالته، ووقف غلمان في آخر المجلس فصاحوا: «إن أمير المؤمنين يقول لكم: ليأخذ من شاء ما شاء!» فمد الناس أيديهم إلى المال فأخذوه، وكان الرجل يثقله ما معه فيخرج به فيسلمه إلى غلمانه ويرجع إلى مكانه.

ولما تقوض المجلس خلع على الناس ألف خلعة، وحملوا على ألف مركب بالذهب والفضة وأعتق ألف نسمة.[١٠٣]

وقس على ذلك احتفال الخليفة المقتدي بالله سنة ٤٨٠هـ لما زفت إليه بنت السلطان ملكشاه وحمل جهازها إلى دار الخلافة،[١٠٤] وأما الاحتفال بتتويج السلاطين والبيعة فقد ذكرنا أمثلة منه في الجزء الأول من هذا الكتاب.

الخلع على الوزراء

ومن مظاهر الأبهة احتفالهم بالخلع على الوزراء والسلاطين، وأول من خلع عليه جعفر البرمكي في اليوم الذي تولى الرشيد الخلافة فيه، وكان في جملة ما خلعه عليه ١٠٠ بدرة دراهم ودنانير، وأمر الناس فركبوا إليه حتى سلموا عليه وأعطاهم خاتم الملك ليختم به على ما يريد،[١٠٥] وحذا حذو الرشيد من جاء بعده فخلعوا على وزرائهم وعمالهم خلعًا تختلف شكلًا وقدرًا باختلاف الأحوال، ومعها في كل حال ثوب يرسله الخالع ويلبسه المخلوع عليه يقال له: الخلعة، فالخليفة العاضد الفاطمي لما ولى السلطان صلاح الدين الأيوبي الوزارة بمصر لقبه الملك الناصر، وخلع عليه خلعة مؤلفة من عمامة بيضاء تنيسى بطرف ذهب وثوب ديبقي بطراز ذهب، وجبة بطراز ذهب وطيلسان مطرز ذهب، وعقد جوهر بعشرة آلاف دينار وسيف محلى بخمسة آلاف دينار وحجرة بثمانية آلاف دينار عليها سرج ذهب وسرسار ذهب مجوهر، وفي رأسها مائتا حبة جوهر وفي قوائمهما أربعة عقود جوهر وفي رأسها قصبة بذهب وفيها شدة بياض بأعلام بيض، ومع الخلعة عدة بقج وخيل وأشياء أخرى ومنشور الوزارة مكتوب في ثوب أطلس أبيض.[١٠٦]

ولما نقلت الخلافة العباسية إلى مصر خلع الخليفة العباسي على السلطان الملك الظاهر بيبرس يومئذ خلعة ألبسه إياها باحتفال، هي عبارة عن جبة سوداء وعمامة سوداء وطوق في عنقه من ذهب وقيد في رجله من ذهب،[١٠٧] وقس على ذلك.

استقبال الوفود

أما استقبال الوفود فقد كان فخيمًا يظهرون به عز الإسلام، ولا سيما إذا كان القادمون من وفود الدول غير الإسلامية من الروم أو الهند أو الإفرنج، والاحتفال بذلك يختلف باختلاف الأحوال، نذكر من أمثلته احتفال المقتدر العباسي برسل جاءوه من ملك الروم سنة ٣٠٥هـ، فإنه استقبلهم في «دار الشجرة» التي تقدم ذكرها وعبأ لهم الجيوش، وصفت الدار بالأسلحة وأنواع الزينة، وكانت جملة العساكر المصفوفة حينئذ ١٦٠٠٠٠ رجل بين راكب وواقف، ووقف الغلمان الحجرية بالزينة والمناطق المحلاة، وكانوا اثنين وعشرين ألفًا، ووقف الخدم والخصيان كذلك وعددهم سبعة آلاف، منهم ٤٠٠٠ خادم أبيض و٣٠٠٠ خادم أسود، ووقف الحجاب وكانوا سبعمائة حاجب، وزينت المراكب والزوارق في دجلة أعظم زينة، وزينت دار الخلافة، وكانت جملة الستور المعلقة عليها ٣٨٠٠٠ ستر منها ديباج مذهب ١٢٥٠٠ ستر، وكانت جملة البسط ٢٢٠٠٠ بساط، واستعرضوا مائة سبع مع مائة سباع، وكان في جملة الزينة الشجرة الذهب والفضة التي تشتمل على ثمانية عشر غصنًا من الذهب والفضة، فكانت أغصانها تتمايل بحركات موضوعة، وعلى الأغصان طيور وعصافير مختلفة من الذهب والفضة تصفر بحركات مرتبة كما وصفناها في محلها، فشاهد الرسل من العظمة ما يطول شرحه.[١٠٨]

(٢-٣) الخلفاء والدول المعاصرة

هب العرب للفتح والعالم قد تضعضع وأهله في خمول، فبغتوهم وفتحوا بلادهم في بضع عشرة سنة على أسلوب لم يسبق له مثيل، فلما أفاقوا أرادوا ردهم فعجزوا عنه، وما لبثوا أن شاهدوا تمدنهم وعمران مملكتهم واشتغالهم بالعلوم والفنون والصناعة والتجارة والرحلة والسياحة، فهابوهم وأخذوا يتقربون إليهم بالوفود والهدايا إلى المدينة فدمشق، ثم أصبحت بغداد مجتمع الوفود القادمين من أطراف العالم من الهند والصين شرقًا إلى أعالي آسيا وأواسط أوربا شمالاً إلى أقصى إفريقيا غربًا والبحر الهندي جنوبًا، وصارت البصرة مركز التجارة البحرية في الشرق وملتقى السفن القادمة من أقاصي البحور.

الإسلام في تاريخ الصين

المشهور أن الإسلام لم يذكر ظهوره وانتشاره غير أصحابه، ولم يدون أخباره غير أهله، حتى الروم مع ما كان من مدنيتهم يومئذ لم يكتب المعاصرون منهم شيئًا عن الإسلام أو المسلمين، ولكن الباحثين عثروا في الكتب الصينية على خبر الإسلام وانتشاره إلى استقلال معاوية بالخلافة لنفسه، فقيام أبي مسلم الخراساني ونقله الدولة إلى العباسيين وغير ذلك، فقرءوا أسماء محمد وقريش ومعاوية وأبي العباس وأبي جعفر وغيرهما من رجال الإسلام مكتوبة بالأحرف الصينية، ومما جاء هناك أن أبا جعفر أرسل سنة ٧٥٦م وفدًا إلى إمبراطور الصين التقى عنده بوفد قادم من «هوي هو» من مغول الشمال فاختصم الوفدان فيمن يتقدم بالدخول على الإمبراطور، فأنصف الحاجب بينهما وأدخل كل وفد من باب؛ ذكروا ذلك بكتاب طنغ شو الفصل العاشر في أثناء سيرة الإمبراطور سوتسونغ، قالوا: «ثم تولى المهدي وخلفه هارون الرشيد وفي أيامه (سنة ٧٨٦–٨٠٤م) جرد العرب أصحاب الجبة السوداء على توفان (تيبت) ثم صار أهل توفان يتجندون لقتالهم كل سنة، وفي (٧٩٨م) جاء ثلاثة سفراء من العرب إلى بلاط الإمبراطور ... إلخ.»[١٠٩]

ووقفوا في تاريخ الصين أيضًا على نصوص تشير إلى ما كان من العلائق التجارية بين الصينيين والعرب من أواسط القرن العاشر للميلاد أو الثالث للهجرة، فذكروا سفنًا تجارية عربية كانت ترسو على شواطئ الصين يحملون فيها الزجاج والسكر وغيرها، وأن تجار العرب وربان سفنهم كثيرًا ما كانوا يفدون على البلاط ويدخلون على الإمبراطور فيخاطبهم ويسألهم عن بلادهم وملكهم وسائر أحوالهم، ووقفوا على نصوص أخرى تدل على علائق مثل هذه بين الصين وغير العرب من دول الإسلام مما يطول بيانه، ومع اختصار هذه الأخبار وتشوش حوادثها وفساد تهجئة الأعلام فيها فهي عظيمة الأهمية؛ لأنها منقولة عن مصدر صيني مستقل.

أما العرب فقد ذكر مؤرخوهم وأهل الرحلة منهم كثيرًا من أخبار نزولهم شواطئ الصين والهند ودخولهم على ملوكهما ومخاطبتهم في بعض الشئون التجارية، ولكن أكثر الناس كانوا لا يكترثون بتلك الروايات لاعتقادهم أنها محشوة بالمبالغات والخرافات، كأنهم قاسوها بما يقرءونه من الأقاصيص الخرافية في ألف ليلة وليلة مثل قصة السندباد البحري والفرس المسحور وغيرهما، على أن هذه الأقاصيص منقولة في الأصل عن غير العربية، وأكثر خرافات العرب دخيلة في آدابهم، وأما ما يكتبونه من عند أنفسهم فالغالب فيه التحقيق والصدق، ولا سيما كتب التاريخ ونحوها إذا نظرنا فيها نظر الناقد المنصف واعتبرنا الفرق بين عصرهم وعصرنا.

على أننا لا نلوم المنكرين؛ لأنهم إنما عرفوا العرب بعد ذهاب دولتهم وانحلال عصبيتهم وانحطاط هممهم وضعف عزائمهم، فأكبروا أن يكون لهم مثل تلك الهمم الشماء في عهد ذلك التمدن، فكذبوا ما قرءوه في كتبهم من هذا القبيل، أما وقد رأينا ما يؤيده في كتب أهل الصين على غير تواطؤ أو نقل فلم يبق لنا بد من تصديقه.

وأقدم ما وصل إلينا من الكتب العربية التي ذكرت تجارة العرب مع الصين والهند، ونزول تجار العرب شواطئ تلك البلاد كتاب «سلسلة التواريخ» وهو يشتمل على السياحات البحرية التي أجرتها العرب والعجم من شواطئ خليج فارس إلى بلاد الهند والصين، تأليف سليمان التاجر وأبي زيد حسن من أبناء القرن الثالث للهجرة، وقد طبع هذا الكتاب بباريس سنة ١٨١١، ومعه ترجمة فرنسية للمستشرق الشهير رينو، ثم «مروج الذهب» للمسعودي، وهو مشهور ومتداول، غير أمهات كتب الجغرافية العربية وكلها مبني على رحلات حقيقية أشهرها ما كتبه البلخي والإصطخري وابن حوقل والمقدسي وغيرهم، وليس هنا مكان الإفاضة في ذلك.

ويقال بالإجمال: إن في كتب التاريخ نصوصًا كثيرة تدل على علائق تجارية وسياسية بين العباسيين وملوك المشرق في الهند والصين، وإن المهاداة كانت متواصلة بينهما، فكانت وفود ملوك الهند تؤم بغداد من أواخر القرن الثاني للهجرة تحمل الهدايا أو كتب المخابرة،[١١٠] ولا بد أيضًا من وفود كانت تأتي بغداد من صاحب الصين.

الإسلام وملوك أوربا

على أن علاقات ملوك المسلمين مع ملوك أوربا — وأعظمهم يومئذ الروم والجرمان والإفرنج والإسبان — كانت أوثق من سواها، أما الروم، وهم ملوك القسطنطينية، فكانت المخابرات متواصلة بينهم وبين المسلمين من أيام بني أمية، إما لصلح أو مهادنة أو مهاداة أو مفاداة،[١١١] والحرب كانت سجالًا بينهما على الحدود أو في البحار، وقد حاصر الأمويون القسطنطينية غير مرة ولم يفتحوها، ولكنهم فتحوا بلادًا أخرى من أوربا وأوقعوا الرعب في دول الإفرنج، وكذلك بنو العباس[١١٢] فإن الرشيد أخذ الجزية من إيريني صاحبة القسطنطينية.

وأما حوادث المهاداة فهدية الرشيد إلى شارلمان ملك فرنسا أشهر من أن تُذكر، على أن هدايا ملوك الروم إلى دار الخلافة كانت متواصلة، وأكثرها من السيوف والثياب والأطياب والذهب والكلاب، منها هدية بعث بها قيصر الروم (ربما ميخائيل الثاني) إلى المأمون وفيها تحف سنية من جملتها مائة رطل مسك ومائة حلة سمور.[١١٣]

وأهدت ثريا بنت الأوباري (كذا) ملكة الإفرنج إلى المكتفي بالله سنة ٢٩٣هـ خمسين سيفًا، و٥٠ رمحًا، و٢٠ ثوبًا منسوجًا بالذهب، و٢٠ خادمًا صقلبيًّا، و٢٠ جارية، و١٠ كلاب كبار لا تغلبها السباع، وستة بازات وسبعة صقور ومضرب حرير ملون كقوس القزح وغيرها.[١١٤]

وكان الخلفاء أيضًا يوجهون وفودًا من عندهم في مراسلة أو مخابرة، وممن سار في ذلك القاضي الأشعري المعروف بابن الباقلاني أنفذه عضد الدولة سنة ٣٧١هـ إلى قيصر الروم (باسيل الثاني) في جواب رسالة فأظهر في بلاط القيصر أنفة زادت مقام المسلمين عندهم.[١١٥]

الأندلسيون وملوك الإفرنج

على أن العلاقات كانت أكثر وثوقًا بين ملوك أوربا وملوك الإسلام في الأندلس؛ لأن قياصرة القسطنطينية كانوا يتقربون من الخلفاء الأمويين في قرطبة ليستنصروهم على العباسيين أعداء الجانبين، حتى إن ثيوفيلوس ملك الروم المعاصر لعبد الرحمن الأوسط هاداه سنة ٢٢٥هـ وكتب إليه يرغبه في ملك المشرق من أجل ما ضيق عليه به المأمون والمعتصم، وقد ذكرهما في كتابه له وعبر عنهما بابن مراجل وابن ماردة، تحقيرًا لهما بالانتساب إلى أمهات من الجواري، فكافأه عبد الرحمن عن الهدية وبعث إليه يحيى الغزال شاعره وأحد كبار دولته فأحكم الصلة بينهما،[١١٦] فلما ظهر الخليفة الناصر عبد الرحمن الثالث وأوطأ عساكر المسلمين من بلاد الإفرنج ما لم يطأه أحد من أسلافه، تقدم إليه ملوكهم بالطاعة وتقربوا بالهدايا فأوفدوا رسلهم وهداياهم من رومية والقسطنطينية وغيرهما على سبيل المهادنة والسلم والعمل على كسب مرضاته، ووصل إلى بابه الملوك من الإسبان المتاخمين لبلاده بجهات قشتالة وبنبلونة وما ينسب إليها من الثغور الشمالية فقبلوا يده والتمسوا رضاه واحتقبوا جوائزه وامتطوا مركبه.[١١٧]

وتوالت الهدايا على عبد الرحمن الناصر من سائر ملوك الإسبان، فملكا برشلونة وطركونة هادياه يلتمسان تجديد الصلح،[١١٨] وملك الصقالبة وهو يومئذ «ذوفوة» (كذا) أوفد إليه رسولًا مع رسل آخرين من ملك الألمان (ربما أوتو الأعظم) وملك الفرنجة وراء الرون وهو يومئذ «أوفه» ورسول آخر من ملك الفرنجة بقاصية المشرق واسمه «كلدة» (ربما كونراد)، واحتفل الناصر لقدومهم احتفالًا شائقًا، ولما رجعوا بعث مع رسول الصقالبة ربيعًا الأسقف إلى ملكهم، وبالجملة إن الخليفة الناصر كان سلطانه ضخمًا

عزيزًا، لم يبق ملك من ملوك أوربا إلا خطب مودته، وفي جملتهم قياصرة الروم وملوك الإفرنج والإسبان والجرمان، وفي نفح الطيب للمقري تفصيل ما كان يجريه من الاحتفال في استقبالهم،[١١٩] تعظيمًا لدولة المسلمين، ولما أراد بناء «الزهراء» أهداه أولئك الملوك من أصناف الحجارة والرخام على اختلاف ألوانه وأشكاله شيئًا كثيرًا،[١٢٠] وقد ذكرنا ذلك في كلامنا عن بناء هذا القصر الفخيم.

وقس على ما تقدم علاقات ملوك أوربا بسائر خلفاء المسلمين وملوكهم، فكانت هدايا قيصر القسطنطينية ترد على صاحب مصر، ولا سيما في زمن الفاطميين بعد أن ضخمت دولتهم، منها هدية بعث بها الإمبراطور قسطنطين التاسع إلى المستنصر بالله الفاطمي سنة ٤٣٧هـ، اشتملت قيمتها على ثلاثين قنطارًا من الذهب الأحمر، كل قنطار في عشرة آلاف دينار، الجملة ٣٠٠٠٠٠ دينار،[١٢١] وكان رسول الروم إذا قدم القاهرة في ذلك العهد نزل عند باب الفتوح، ولا يزال يقبل الأرض وهو ماش حتى يصل القصر الكبير مقر الخليفة.[١٢٢]

(٣) ألعاب الخلفاء وملاهيهم

ما برح الملوك من قديم الزمان يلهون في ساعات الفراغ بألعاب يروضون بها عقولهم وأبدانهم، ولكل أمة ألعاب تلائم عاداتهم وتشاكل أخلاق أهلها، ولكن الملوك يتشابهون في أكثرها لتشابه مرادهم منها، وألعاب الخلفاء كثيرة، بعضها كان معروفًا في الجاهلية كالصيد والسباق، وبعضها اقتبسوه من الأعاجم كاللعب بالكرة والصولجان والرمي بالبندق واللعب بالنرد والشطرنج ونحوها، وأسبق الدول إلى الاحتفاء بهذه الألعاب العباسيون في أيام الرشيد، فإنه أول من لعب بالصولجان والكرة، وأول من رمى بالنشاب في البرجاس، وأول من لعب الشطرنج والنرد وقرب اللاعبين وأجرى عليهم الأرزاق،[١٢٣] وإليك وصف أهم ألعابهم في إبان تمدنهم:

(٣-١) الصيد والقنص

كان الصيد معروفًا في الجاهلية، ولكنه كان قاصرًا على صيد غزال أو طائر بالنبل أو الفخ، فلما تمدن العرب بعد الإسلام وخالطوا الفرس والروم توسعوا في طرائق الصيد والقنص، فاتخذوا الجوارح من الطير وهي الباز والشاهين والعقاب والصقر يعلمونها

صيد الطيور، وغالوا في اقتناء الكلاب والفهود ونحوها يستعينون بها على صيد الخنازير والغزلان وحمر الوحش، وأول من اشتغل بالصيد من الخلفاء يزيد بن معاوية، وكان صاحب طرب وجوارح وقرود وفهود، وله كلف بالصيد فاتخذه للهو وليس للرياضة، وكان يلبس كلابه الأساور من الذهب والأجلة المنسوجة بالذهب، ويهب لكل كلب عبدًا يخدمه،[١٢٤] واشتغل بالصيد غيره من خلفاء بني أمية على تفاوت في ذلك.

حتى إذا أفضى الأمر إلى بني العباس ورسخت أقدامهم في الدولة، اهتموا بالصيد وتفننوا في تربية الجوارح والكلاب والفهود، وغالوا في انتقائها وبذلوا الأموال في اقتنائها وتربيتها، وأقاموا عليها أناسًا ينظرون في شئونها وفيهم البيازرة والحجالون والفهادون وأصحاب الصقور والكلاب، وأطلقوا لهم الأرزاق الجليلة وأقطعوهم الإقطاعات السنية وسهلوا عليهم حجابهم، وتسابق الشعراء إلى وصف تلك الجوارح وحركاتها وسرعتها وخصالها،[١٢٥] وكتبوا في فنون الصيد وأساليبه كتبًا عديدة، ككتاب البزاة والصيد وكتاب المصائد والمطارد.[١٢٦]

وكان العباسيون يصيدون السباع والخنازير فضلًا عن الغزلان والطيور وحمر الوحش ونحوها، وأول من أحب الصيد منهم المهدي فالرشيد، وكان ابنه صالح يحب صيد الخنازير،[١٢٧] وابنه الأمين يهوى صيد السباع يصطادها له جماعة يعرفون بأصحاب اللبابيد،[١٢٨] وكان المعتصم ألهجهم به، فبنى في أرض دجيل قرب بغداد حائطًا طوله فراسخ كثيرة يحدون الصيد عنده، وذلك أن يطارد رجاله تلك الحيوانات من الجهة المقابلة للحائط فتنفر نحوه فيضربون حولها حلقة، ولا يزالون يطاردونها بخيولهم وكلابهم وفهودهم وهي تثب بين الأعشاب والأدغال حتى يضايقوها ويحصروها بين الحائط ودجلة، فلا يبقى لها مجال للنجاة فيقبل المعتصم وأولاده وأقاربه وخواص حاشيته، ويتأنقون في القتل والصيد ويتفرجون، فيقتلون ما يقتلون ويطلقون الباقي.[١٢٩]

وقس على ذلك سائر الخلفاء من بني العباس والفاطميين والمروانيين وغيرهم من ملوك المسلمين السلاجقة والأتابكة والأيوبية والمماليك، فقد عدوا ما اصطاده السلطان ملك شاه السلجوقي من الحيوانات فبلغ عشرة آلاف رأس، حتى بنى من حوافر الحمر الوحشية وقرون الظباء التي صادها منارة،[١٣٠] وكان السلطان مسعود السلجوقي يبالغ في ترفيه الكلاب حتى ألبسها الجلال الأطلس الموشاة وسورها بالأساور الذهب، واصطنع السلطان أبو عبد الله المستنصر في المغرب مصيدًا بناحية بنزرت في بقعة ببسيط من الأرض، وأحاطها بسياج خرج نطاقه عن التحديد بحيث لا يراع فيه حمر الوحش، فإذا

ركب للصيد تخطى السياج في أصحابه ومواليه وفعل فعل المعتصم بحصر الصيد عند ذلك السياج،[١٣١] وفي كتاب الاعتبار لابن منقذ فصول طويلة في الصيد وطرقه.[١٣٢]

(٣-٢) الحلبة أو السباق

لم تبق أمة من الأمم القديمة أو الحديثة إلا لهجت بالسباق، ولا سيما اليونان والرومان والفرس، وكان العرب في الجاهلية يتسابقون بخيولهم ويتفاخرون بذلك، وكثيرًا ما انتشبت الحرب بين القبائل من أجل السباق، وكانوا يرسلون خيلهم إلى الحلبة وهي ميدان السباق عشرة عشرة، وعندهم لكل منها اسم باعتبار تقدمها في السباق بعضها على بعض.[١٣٣]

ولما تحضروا بعد الإسلام بالغوا في اتخاذ الميادين، واستكثروا من الخيول وتفننوا في تضميرها، وكان لمعاوية حلبة يخرجون إليها في أيام معينة للسباق، فمن حاز قصب السبق أجازوه — وقصب السبق قصبة يغرسونها في آخر الحلبة فمن سبق إليها واقتلعها فهو الفائز — ومن غريب ما ذكروه أن يزيد بن معاوية كان له قرد يكنى أبا قيس، يحضره مجلس منادمته ويطرح له متكأ، وكان نبيهًا خبيثًا يحمله على أتان وحشية قد ريضت وذللت بسرج ولجام، وكان يسابق بها الخيل يوم الحلبة، فجاء أبو قيس في بعض الأيام سابقًا وتناول القصبة ودخل الحجرة قبل الخيول، وعليه قباء من الحرير الأحمر والأصفر، وعلى رأسه قلنسوة من الحرير ذات ألوان بشقائق، وعلى الأتان سرج من الحرير الأحمر المنقوش.[١٣٤]

وكان لهشام بن عبد الملك رغبة في الحلبة، يستجيد الخيل للسباق ويبذل في اقتنائها الأموال، فاجتمع عنده ٤٠٠٠ فرس ولم يسبقه أحد من العرب في ذلك، وكان له فرس سابق اسمه «الزائد» اشتهر في ذلك العصر، وكان الوليد بن يزيد مغرمًا بخيل السباق، فجمع منها ألف فرس أسبقها فرس اسمه «السندي» كان يسابق به في أيام هشام، وكان يقصر عن فرس هشام «الزائد» وربما ضامه أو جاء مصليًا (أي: جاء الثاني)، وكان ميدان السباق يومئذ في الرصافة (بالشام) ولهم فيها ميادين مشهورة وحوادث مذكورة.[١٣٥] ولمحمد بن يزيد بن عبد الله بن مروان قصيدة عامرة وصف بها خيل الحلبة العشرة بأسمائها وصفاتها، هي أحسن ما نظم في هذا الموضوع.[١٣٦]

أما العباسيون فلم يكونوا أقل رغبة في السباق، وكانت لهم ميادين كبيرة، منها الرقة والشماسية، وللرشيد مواقف شهيرة في الحلبة، نظم فيها الشعراء القصائد في

مدح السوابق،[١٣٧] وقس على ذلك ما كان من ميادين الحلبة في سائر دول الإسلام، ومن أشهرها ميدان ابن طولون وميدان بيبرس بمصر،[١٣٨] وميادين الحكم في الأندلس.

(٣-٣) الكرة والصولجان

هي لعبة فارسية لم يكن بنو أمية يعرفونها، وأول من لعبها بنو العباس وأسبقهم إليها الرشيد، وهي عبارة عن كرة تصنع من مادة خفيفة مرنة كالفلين ونحوه تلقى في أرض الميدان فيتسابق الفرسان إلى التقافها بعصا عقفاء يسمونها الصولجان أو الجوكان، ويرسلون الكرة بها في الهواء وهم على خيولهم، وكان المعتصم شديد الرغبة فيها، ومن لطيف ما يُحكى أنه قسم أصحابه يومًا للعب بها، فجعل الأفشين في جهة وهو في جهة، فقال الأفشين: «يعفيني أمير المؤمنين من هذا.» فقال: «ولِمَ؟» قال: «لأني ما أرى أن أكون على أمير المؤمنين في جد ولا هزل.» فاستحسن ذلك منه وجعله في حزبه.[١٣٩]

(٣-٤) البندق

البندق كرات تُصنع من الطين أو الحجارة أو الرصاص أو غيرها، وهي فارسية بلفظها واستعمالها، ويسمونها أيضًا الجلاهقات جمع جلاهق، فكان الفرس يرمون هذا البندق عن الأقواس كما يرمون النبال، واقتبس العرب هذه اللعبة في أواخر أيام عثمان بن عفان، وعدوا ظهورها في المدينة منكرًا،[١٤٠] ثم ألفوها حتى شكلوا فرقًا من الجند ترمي بها، وقد رأيت أن الرشيد كان عنده فرقة يقال لها: النمل تسير بين يديه ترمي البندق على من يقف في طريق الموكب، وكان رماة البندق في العصر العباسي طائفة كبيرة يخرجون إلى ضواحي المدن يتسابقون في رميه على الطير ونحوه،[١٤١] ويعدون ذلك من قبيل الفتوة، ويغلب في رماة البندق أن يشتغلوا بتطيير الحمام، ولهم زي خاص يمتاز بسراويل كانوا يلبسونها ويسمونها سراويل الفتوة، وكان العيارون من أهل بغداد يلبسونها في أواخر الدولة، حتى إذا أفضت الخلافة إلى الناصر لدين الله العباسي المتوفى سنة ٦٢٢هـ جعل لرمي البندق شأنًا؛ لأنه كان ولعًا به وباللعب بالحمام المناسيب (أي: المنسوب ذي الأصل المعروف)، وكان يلبس سراويل الفتوة، وقد بلغ من رغبته في ذلك أن جعل رمي البندق فنًّا لا يتعاطاه إلا الذين يشربون كأس الفتوة ويلبسون سراويلها، على أن يكون بينهم روابط وثيقة نحو ما عند بعض الجمعيات السرية، وجعل نفسه رئيس

هذه الطائفة يُدخل فيها من شاء ويحرم من شاء، وكتب سنة ٦٠٧هـ إلى ملوك الأطراف الذين يعترفون بخلافته أن يشربوا له كأس الفتوة ويلبسوا سراويلها، وأن ينتسبوا إليه برمي البندق ويجعلوه قدوتهم فيه، فأجابوه إلى ذلك؛ فمن أراد الانتظام في سلك هذه الطائفة يأتي بغداد فيلبسه الخليفة السراويل بنفسه ... فبطلت الفتوة في البلاد جميعها إلا من لبس سراويلها منه، ومنع الرمي بالبندق إلا من ينتسب إليه، فأجابه الناس في العراق وغيره إلا إنسانًا اسمه ابن السفت من بغداد هرب إلى الشام، فأرسل الخليفة إليه يرغبه ببذل المال ليرمي عنه وينتسب في الرمي إليه، فلم يفعل فلامه بعضهم على ذلك فقال: «يكفيني فخرًا أنه ليس في الدنيا أحد لا يرمي للخليفة إلا أنا.»[١٤٢]

وكان لرمي البندق شأن كبير في العصور الإسلامية الوسطى بالعراق والشام ومصر وفارس وغيرها، وخط البندقانيين بالقاهرة ينسب إلى صناعة أقواس البندق،[١٤٣] ثم تفننوا في رمي البندق بالمزاريق أو الأنابيب بضغط الهواء من مؤخر الأنبوب بما يشبه أنابيب البنادق ... فلما اخترعوا البارود صاروا يرمون البندق به من تلك الأنابيب وسموا هذه الآلة بندقية نسبة إليه، ومن قبيل رمي البندق رمي النشاب في البرجاس، وهو غرض في الهواء، أو على رأس رمح أو نحوه يطلبون إصابته بالنشاب، وهي لعبة فارسية أول من لعبها من الخلفاء الرشيد.

ومما يدخل في الألعاب والملاهي لعبة الشطرنج، وهي هندية الأصل أخذها العرب عن طريق الفرس، وأول من لعبها من الخلفاء الرشيد أيضًا، وهو من لعب النرد كما تقدم، ولا تزال هاتان اللعبتان شائعتين إلى اليوم.

(٣-٥) ارتباط السباع

وكان من ملاهي الخلفاء والملوك ارتباط الأسود والفيلة والنمور لإثبات الهيبة في قلوب الرعية، وأول من اهتم بذلك بنو العباس، فكان المنصور كثير العناية في جمع الفيلة لتعظيم الملوك السالفة إياها، وكان للرشيد أقفاص فيها الأسود والنمور وغيرها،[١٤٤] وغالى الذين جاءوا بعده في اقتنائها واقتناء الكلاب والقردة ونحوها؛ ذكروا أنه كان عند أم جعفر زوج الرشيد قرد يخدمه ثلاثون رجلًا، وكانوا يلبسونه لباس الناس ويقلدونه السيف، وإذا ركب ركبوا في خدمته، وإذا دخلوا عليه قبلوا يده، فجاء يزيد بن مرثد يومًا إلى أم جعفر ليودعها قبل سفره، فأتوا إليه بالقرد وأمروه أن يقبل يده، فشق عليه

ذلك وجرد السيف وقطعه نصفين وانصرف، فبعث إليه الرشيد وعاتبه فقال: «يا أمير المؤمنين أبعد أن أخدم الخلفاء أخدم القرود؟ لا والله أبدًا.» فعفا عنه.[١٤٥]

وما زال شأن الخلفاء وأهلهم على ذلك حتى تولى المهتدي، وكان يتشبه بعمر بن عبد العزيز في التقوى والزهد، فأمر بقتل السباع التي كانت في القصور وطرد الكلاب، ولكن ذلك المنع لم يدم طويلًا، فلما مات المهتدي عادوا إلى المغالاة في اقتناء السباع حتى ارتبطها بعضهم في مجلسه، فقد كان عضد الدولة بن بويه إذا جلس على سريره أحضر الأسود والفيلة والنمور في السلاسل، وجعلت في حواشي مجلسه تهويلًا بذلك على الناس وترويعًا لهم.[١٤٦]

وقس على ذلك سائر دول المسلمين في مصر والأندلس وغيرهما، فقد كان لخمارويه بن أحمد بن طولون دار خاصة بالسباع، عمل فيها بيوتًا بآزاج كل بيت يسع سبعًا ولبؤته، وعلى تلك البيوت أبواب تفتح من أعلاها بحركات، ولكل بيت منها طاق صغير يدخل منه الرجل الموكل بخدمة ذلك البيت يفرشه بالرمل، وفي جانب كل بيت حوض من رخام بميزاب من نحاس يصب فيه الماء، وبين يدي هذه البيوت قاعة فسيحة متسعة فيها رمل مفروش بها، وفي جانبها حوض كبير من رخام يصب فيه ماء من ميزاب كبير، فإذا أراد سائس سبع من تلك السباع تنظيف بيته، أو وضع وظيفة اللحم لغذائه، رفع الباب بحيلة من أعلى البيت وصاح بالسبع فيخرج إلى القاعة المذكورة، فيرد الباب وينزل إلى البيت من الطاق فيكنس الزبل ويبدل الرمل بغيره مما هو نظيف، ويضع الوظيفة من اللحم في مكان معدٍّ لذلك بعدما يخلص ما فيه من الغدد ويقطعه له، ويغسل الحوض ويملؤه ماء ثم يخرج ويرفع الباب من أعلاه، وقد عرف السبع ذلك؛ فحالما يرفع السائس باب البيت يدخل إليه الأسد فيأكل ما هيئ له من اللحم حتى يستوفيه ويشرب من الماء كفايته، فكانت هذه البيوت مملوءة من السباع، ولهم أوقات تفتح فيها فتخرج السباع كلها إلى القاعة وتتمشى فيها وتمرح وتلعب ويهارش بعضها بعضًا، فتقيم يومًا كاملًا إلى العشي فيصيح بها السواس فيدخل كل سبع إلى بيته لا يتخطاه إلى غيره.

وكان من جملة هذه السباع سبع أزرق العينين يقال له: زريق، وقد أنس بخمارويه وصار مطلقًا في الدار لا يُؤذي أحدًا، ويقام له بوظيفته من الغذاء كل يوم، وإذا نصبت مائدة خمارويه أقبل زريق معها وربض بين يديه، فيرمي إليه الدجاجة بعد الدجاجة والفضلة الصالحة من الجدي ونحو ذلك مما على المائدة فيتفكه به، وكانت له لبؤة لم تُستأنس كما أنس هو، فكانت مقصورة في بيت ولها وقت معروف يجتمع معها فيه،

فإذا نام خمارويه جاء زريق ليحرسه، فإن كان قد نام على سرير ربض بين يدي السرير وجعل يراعيه ما دام نائمًا، وإن نام على الأرض بقي قريبًا منه وتفطن لمن يدخل ويقصد خمارويه لا يغفل عن ذلك لحظة واحدة، وكان على ذلك دهره وقد ألفه ودرب عليه، وكان في عنقه طوق من ذهب، فلا يقدر أحد أن يدنو من خمارويه ما دام نائمًا لمراعاة زريق له وحراسته إياه.[١٤٧]

وتطرف آخرون في اقتناء الحيوانات حتى الهوام والحشرات، فالوزير جعفر بن خنزابه أحد وزراء المقتدر بالله العباسي كان يهوى النظر إلى الحشرات من الأفاعي والحيات والعقارب، وأم أربعة وأربعين وما يجري هذا المجرى، وكان في داره بمصر قاعة لطيفة مرخمة فيها تلك الحيات بالسلال ولها قيم وفراش وحاو يستخدمون برسم نقلها وحطها، وكان كل حاو بمصر يصيد له ما يقدر عليه من الحيات ويتناهون في ذوات العجب من أجناسها وفي الكبير والغريب منها وهو يثيبهم على ذلك أجل ثواب ويبذل لهم المال الجزيل، وكان له وقت يجلس فيه على دكة فيدخل المستخدمون والحواة فيخرجون ما في تلك السلال ويطرحونه على ذلك الرخام ويحرشون بين الهوام وهو يستعجب من ذلك ويستحسنه.[١٤٨]

وكانت لهم عناية في تربية الحيوانات الداجنة أيضًا كالغزلان والقماري وأشباههما، يجعلونها في حظائر وأقفاص مخصوصة عليها قوام يخدمونها.[١٤٩]

واجتمع عند العزيز الفاطمي صاحب مصر من غرائب الحيوانات ما لم يجتمع عند غيره وذكروا بينها العنقاء. قالوا: «وهو طائر جاءه من صعيد مصر في طول البلاشون وأعظم جسمًا منه، له غبب ولحية وعلى رأسه وقاية وفيه عدة ألوان ومشابهة من طيور كثيرة.»[١٥٠]

واتخذ الخليفة الناصر الأموي في مدينة الزهراء بالأندلس محلات للوحوش والسباع واسعة الأرجاء متباعدة السياج، ومسارح للطيور مظللة بالشباك كالأقفاص الكبيرة.[١٥١]

وهناك ألعاب أخر تتعلق بالحيوانات كسمكة كانت للأمين مقرطة، صيدت له وهي صغيرة فقرطها بحلقتين من ذهب فيهما حبتا در، وكلعب الحمام وتطييره، واللعب بالكباش والديوك للمناطحة والمهارشة، وغير ذلك مما لا محل لذكره.

اسم الكتاب	اسم مؤلفه	مكان طبعه وسنته
الآثار الباقية عن القرون الخالية	للبيروني	ليبسك سنة ١٨٧٨م
الآداب السلطانية (الفخري)	لابن الطقطقي	مصر ١٣١٧هـ
أبجد العلوم، ٣ أجزاء	لصديق القنوجي	الهند ١٢٩٦هـ
ابن الأثير، تاريخ	انظر: الكامل	
ابن الجوزي، تاريخ	انظر: كتاب الأذكياء	
ابن حوقل، جغرافية	انظر: المسالك والممالك	
ابن خرداذبة، جغرافية	انظر: المسالك والممالك	
ابن خلدون، تاريخ	انظر: العبر والمبتدأ والخبر	
ابن خلكان، معجم	انظر: وفيات الأعيان	
ابن الساعي، تاريخ	انظر: مختصر أخبار الخلفاء	
ابن عساكر، تاريخ	انظر: تاريخ دمشق	
ابن الفقيه، جغرافية	انظر: كتاب البلدان	
ابن هشام، تاريخ	انظر: السيرة النبوية	
أبو الفرج الملطي، تاريخ	انظر: مختصر الدول	
أبو المحاسن، تاريخ	انظر: النجوم الزاهرة	
الأتليدي، معجم	انظر: أعلام الناس	
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم	للمقدسي	ليدن ١٨٧٦م
الأحكام السلطانية	للماوردي	مصر ١٢٩٨م
أخبار الدول وآثار الأول	لأحمد شلبي بن يوسف الدمشقي القرماني	بغداد ١٢٨٢م
أدب الدنيا والدين	للماوردي	بهامش الكشكول
الاستقصا في المغرب الأقصى٤ أجزاء	للسلاوي	مصر سنة ١٣١٢
أسد الغابة في أخبار الصحابة٥ أجزاء	لابن الأثير	مصر سنة ١٢٨٦هـ
الإصطخري، جغرافية	انظر: المسالك والممالك	
أعلام الناس	الأتليدي	مصر ١٣١٨هـ
الأغاني ٢٠ جزءًا	لأبي الفرج الأصفهاني	بولاق ١٢٨٥هـ

اسم الكتاب	اسم مؤلفه	مكان طبعه وسنته
الإفادة والاعتبار	لعبد اللطيف البغدادي	مصر ١٢٨٦هـ
ألف باء، جزآن	يوسف البلوي	مصر ١٢٨٧هـ
البخاري، صحيح	انظر: صحيح البخاري	
بغية الطالبين في علوم وعوائد المصريين	لأحمد بك كمال	بولاق ١٣٠٩هـ
البلاذري، تاريخ	انظر: فتوح البلدان	
بلوغ الأرب في أحوال العرب٣ أجزاء	للألوسي	بغداد ١٨٩٨م
البيان والتبيين جزآن	للجاحظ	مصر ١٣١٣هـ
البيروني، تاريخ	انظر: الآثار الباقية	
تاريخ أبي الفداء ٤ أجزاء	للملك المؤيد	الأستانة ١٢٨٦هـ
تاريخ الأمم والملوك ١١ جزءًا	للطبري	ليدن ١٨٨٥م
تاريخ دمشق	لابن عساكر	(خط)
تاريخ المشارقة	لصليبا بن يوحنا	(خط)
تاريخ الوزراء	للهلال الصابي	بيروت١٩٠٤م
تحذير المسلمين	محمد ظافر	مصر ١٩٠٤م
تراجم الحكماء	لابن القفطي	(خط)
ترتيب الدول	للحسن بن عبد الله	بولاق ١٢٩٥هـ
تزيين الأسواق	لداود الأنطاكي	مصر ١٣٠٨هـ
تهذيب الأسماء	للنووي	جوتنجن ١٨٣٢م
الجبرتي، تاريخ	انظر: عجائب الآثار	
حسن المحاضرة في مصر والقاهرة جزآن	للسيوطي	مصر ١٢٩٩هـ
حلبة الكميت	لشمس الدين النواجي	مصر ١٢٩٩هـ
حياة الحيوان الكبرى (جزآن)	للدميري	مصر سنة ١٣٠٩هـ
الخراج — كتاب	لأبي يوسف	بولاق ١٣٠٢هـ
الخراج — كتاب	لقدامة بن جعفر	ليدن ١٣٠٦هـ
الخطط التوفيقية ٢٠ جزءًا	لعلي باشا مبارك	بولاق ١٣٠٦هـ
خطط مصر (جزآن)	للمقريزي	بولاق ١٢٧٠هـ

اسم الكتاب	اسم مؤلفه	مكان طبعه وسنته
الخميس (جزآن)	للديار بكري	مصر ١٨٢٣م
الدميري، كتاب	انظر: حياة الحيوان	
ديوان أبي نواس	للحسن بن هانئ	مصر ١٨٩٨م
رحلة ابن بطوطة جزآن	لابن بطوطة	مصر ١٢٨٧هـ
رحلة ابن جبير	لابن جبير	ليدن ١٨٥٢م
رسائل الخوارزمي	لأبي بكر الخوارزمي	الأستانة ١٢٩٧هـ
سراج الملوك	للطرطوشي	على هامش مقدمة ابن خلدون بمصر سنة ١٣١١
سلسلة التواريخ	لسليمان وأبي زيد	باريس ١٨١١م
السيرة الحلبية ٣ أجزاء	لعلي بن برهان الدين الملقب نور الدين الحلبي القاهري	مصر ١٣٠٢هـ
سيرة الملوك	لعبد الرحمن الأربلي	بيروت ١٨٨٥م
السيرة النبوية ٣ أجزاء	لابن هشام	بولاق ١٢٩٥هـ
السيوطي، تاريخ	انظر: حسن المحاضرة	
شعراء السريان	للقرداحي	رومية ١٨٧٥م
الشعر والشعراء	لابن قتيبة	ليدن ١٩٠٢م
الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية	لطاشكبرى زاده	على هامش ابن خلكان
الشهرستاني، كتاب	انظر: الملل والنحل	
صحيح البخاري ٤ أجزاء	للإمام البخاري	مصر ١٣٠٤هـ
طبقات الأطباء — جزآن	لابن أبي أصيبعة	مصر ١٨٨٢م
طبقات الأدباء	لعبد الرحمن الأنباري	مصر ١٢٩٤هـ
طبقات ابن سعد	لابن سعد	(خط)
تاريخ تغري بردي	انظر: النجوم الزاهرة	
العبر والمبتدأ والخبر ٧ مجلدات	لابن خلدون	بولاق سنة ١٢٨٤هـ

اسم الكتاب	اسم مؤلفه	مكان طبعه وسنته
عجائب الآثار ٣ أجزاء	للجبرتي	على هامش ابن الأثير
عجائب المخلوقات	للقزويني	على هامش الدميري
العقد الفريد ٣ أجزاء	لابن عبد ربه	مصر ١٣٠٥هـ
العقد الفريد	للملك السعيد	مصر ١٢٨٣هـ
فتوح البلدان	للبلاذري	ليدن ١٨٦٦م
الفخري في الآداب السلطانية، تاريخ	انظر: الآداب السلطانية	
الفرج بعد الشدة جزآن	للتنوخي	مصر ١٩٠٣م
الفلاحة النبطية	لابن وحشية	(خط)
الفهرست	لابن النديم	ليبسك ١٨٧٢م
فوات الوفيات جزآن	لابن شاكر الكتبي	مصر ١٢٨٢هـ
قاموس الإدارة والقضاء ٧ أجزاء	ليفيلب جلاد	مصر ١٨٩٠م
القانون	لابن سينا	رومية ١٥٩٣م
القبة الزرقاء	للدكتور فانديك	بيروت ١٨٩٣م
قدامة، كتاب	انظر: الخراج	
القرماني، تاريخ	انظر: أخبار الدول	
القزويني، كتاب	انظر: عجائب المخلوقات	
القوانين العقارية للحكومة المصرية		مصر ١٨٩٣م
الكامل ١٢ جزءًا	لابن الأثير	مصر ١٣٠٢هـ
الكامل	للمبرد	مصر ١٢٨٦هـ
كتاب الأذكياء	لابن الجوزي (جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسين)	مصر ١٣٠٦هـ
كتاب الاعتبار	لابن منقذ	ليدن ١٨٨٤م
كتاب البخلاء	للجاحظ	مصر ١٣٢٤هـ
كتاب البلدان	لابن الفقيه الهمذاني	ليدن ١٨٨٥م
كتاب البلدان	لليعقوبي	ليدن ١٨٨٥م

اسم الكتاب	اسم مؤلفه	مكان طبعه وسنته
كتاب الحيوان ٣ أجزاء	للجاحظ	مصر سنة ١٣٢٤هـ
كشف الظنون جزآن	لكاتب جلبي	الأستانة ١٣١١هـ
الكشكول	للعاملي	مصر ١٣٠٥هـ
لطائف المعارف	للثعالبي	ليدن ١٨٦٧م
اللمعة الشهية في اللغة السريانية	للمطران يوسف داود	الموصل ١٨٧٩م
الماوردي، كتاب	انظر: الأحكام السلطانية	
مجمع الأمثال جزآن	للميداني	بيروت ١٣١٢هـ
مختصر أخبار الخلفاء	لابن الساعي (محمد بن أنجب البغدادي)	بولاق ١٣٠٩هـ
مختصر أخبار الدول	لأبي الفرج بن هرون الملطي المعروف بابن العبري	بيروت ١٨٩٠م
مروج الذهب جزآن	للمسعودي	مصر ١٣٠٤هـ
المزهر جزآن	للسيوطي	بولاق ١٢٨٢هـ
المسالك والممالك	لابن حوقل	ليدن ١٨٧٣م
المسالك والممالك	لابن خرداذبة	ليدن ١٨٨٠م
المسالك والممالك	للإصطخري	ليدن ١٨٧٠م
المستطرف جزآن	للأبشيهي	مصر ١٣١١هـ
المسعودي، كتاب	انظر: مروج الذهب	
مشكاة المصابيح	لولي الدين العمري	دهلي ١٣١٠هـ
المعارف	لابن قتيبة	مصر ١٣٠٠هـ
معجم البلدان ستة أجزاء	لياقوت الحموي	ليبسك ١٨٧٠م
مفتاح السعادة	لطاشكبرى زاده	(خط)
المقدسي، جغرافية	انظر: أحسن التقاسيم	
المقري، تاريخ	انظر: نفح الطيب	
المقريزي، تاريخ	انظر: خطط مصر	
الملل والنحل جزآن	للشهرستاني	لندن ١٨٤٢م

اسم الكتاب	اسم مؤلفه	مكان طبعه وسنته
الموطأ	للإمام مالك	(خط)
الميداني، كتاب	انظر: مجمع الأمثال	
ميزانية مصر لسنة ١٩٠٢ للحكومة المصرية		بولاق سنة ١٩٠٣م
النجوم الزاهرة جزآن	لأبي المحاسن	ليدن ١٨٥١م
نفح الطيب ٤ أجزاء	للمقري	بولاق ١٢٧٩هـ
نهاية الأرب في قبائل العرب	للقلقشندي	(خط)
الهداية	برهان الدين الفرغاني	لكنهو ١٣١٤هـ
الهمداني، جغرافية	انظر: كتاب البلدان	
وفيات الأعيان ٣ أجزاء	لابن خلكان	مصر ١٣١٠هـ
اليعقوبي، جغرافية	انظر: كتاب البلدان	

هوامش

(١) المسعودي ٥١ ج٢.
(٢) ابن الأثير ١١ ج٦.
(٣) العقد الفريد ٤ ج٣.
(٤) طبقات الأطباء ١٣٠ ج١.
(٥) العقد الفريد ١٠٨ ج٣.
(٦) طبقات الأطباء ١٤٢ ج١.
(٧) المقريزي ٣٨٥ ج١.
(٨) نفح الطيب ١١٢٨ ج٢.
(٩) الأغاني ٩٩ ج٢.
(١٠) ترتيب الدول ١٢٣.
(١١) العقد الفريد ٢١ ج١.

(١٢) الأغاني ٦٠ ج٥.
(١٣) العقد الفريد ٥ ج٣، و٢١ ج١.
(١٤) الأغاني ٧٠ ج٦.
(١٥) لطائف المعارف ١٤.
(١٦) العقد الفريد ٢٠٩ ج١.
(١٧) الأغاني ٣٥ ج١٢.
(١٨) المقريزي ٢٨٨ ج٢.
(١٩) ترتيب الدول ٦٠ و٩.
(٢٠) ابن خلكان ١١٩ ج١.
(٢١) ابن الأثير ٤٢ ج٦.
(٢٢) الأغاني ٩١ ج٩.
(٢٣) الأغاني ٩٢ ج٤.
(٢٤) ابن الأثير ٥١ ج٧.
(٢٥) العقد الفريد ٦ و٢١٨ ج٢.
(٢٦) لطائف المعارف ١٤ والبيان والتبيين ١٢ ج٢، وابن الأثير ٢٥١ ج٤.
(٢٧) البيان والتبيين ٣٨ ج٢.
(٢٨) الفرج بعد الشدة ١٠٠ ج١.
(٢٩) ترتيب الدول ٩٢.
(٣٠) الأغاني ٣٦ ج١٤، والمسعودي ٢٥٧ ج٢.
(٣١) ابن خلكان ٢٢ ج١.
(٣٢) المسعودي ٢٦١ ج٢.
(٣٣) العقد الفريد ١١١ ج٣.
(٣٤) المسعودي ١٥٧ ج٢.
(٣٥) ترتيب الدول ٦١.
(٣٦) ابن الجوزي ٣٦ و٦٠.
(٣٧) ترتيب الدول ٩٨.
(٣٨) فوات الوفيات ١٣ ج٢.
(٣٩) العقد الفريد ٢٢٤ ج١، والفخري ١١٢.

(٤٠) ابن خلكان ٢٤٤ ج١.
(٤١) المسعودي ١٠٦ ج١.
(٤٢) الفرج بعد الشدة ٢٣ ج١، والمستطرف ١٦٤ ج١، والأتليدي ١٣٣.
(٤٣) الأتليدي ١١٥.
(٤٤) الأغاني ١٦ ج٥.
(٤٥) حلبة الكميت ٢٦.
(٤٦) البيان والتبيين ٦٠ ج٢، والعقد الفريد ٢١٩ ج١.
(٤٧) الأغاني ٢٠٦ ج١٨.
(٤٨) ابن الأثير ١١ ج٦، والمسعودي ٥١ ج٢، وابن خلكان ٢٨٠ ج٢، وسير الملوك ٢٢.
(٤٩) المسعودي ١٦٣ ج٢.
(٥٠) سير الملوك ٧٩.
(٥١) المسعودي ١٨٠ ج٢، وطبقات الأطباء ٤٢.
(٥٢) ابن خلدون ٤٧٥ ج١، والمسعودي ١٩٤ ج٢.
(٥٣) طبقات الأدباء ١٣٠، وابن خلكان ٢٢٨ ج٢.
(٥٤) طبقات الأدباء ٢٣٨.
(٥٥) فوات الوفيات ٢٤١ ج١.
(٥٦) الأغاني ١٥٨ ج١٥، و١١٩ ج٢٠.
(٥٧) الأغاني ٩١ و١٠٢ ج١٢.
(٥٨) الأغاني ٧٩ ج٢٠.
(٥٩) الأغاني ٥٥ ج٢.
(٦٠) الأغاني ١٣٩ ج٤.
(٦١) الأغاني ٦٥ ج٢.
(٦٢) الأغاني ١٧٨ ج٦.
(٦٣) الأغاني ٨٣ ج٦.
(٦٤) الأغاني ٧٤ ج١٧.
(٦٥) الأغاني ٧٣ ج٢٠.
(٦٦) الأغاني ٢ ج١٢.

(٦٧) الأغاني ١٣٥ ج١١، و١٤١ ج١٧.
(٦٨) سير الملوك ٩٣.
(٦٩) المسعودي ٢٠٢ ج٢، وابن خلكان ٤٨٩ ج١.
(٧٠) المسعودي ٢٣١ ج٢، وأبو الفرج الملطي ٢٣٦.
(٧١) الجزء الثالث من هذا الكتاب.
(٧٢) طبقات الأطباء ١٧٥ ج١، وأبو الفرج الملطي ٢٢٧.
(٧٣) ابن خلكان ٢٣٥ ج٢.
(٧٤) الأغاني ٩ ج١٣.
(٧٥) ابن الأثير ٦١ ج٨.
(٧٦) الأغاني ١١١ ج٥.
(٧٧) المسعودي ١٢٦ ج٢.
(٧٨) الفرج بعد الشدة ٨٧ ج١.
(٧٩) العقد الفريد ١٩٥ ج٣.
(٨٠) الأغاني ١٣٢ ج١.
(٨١) الأغاني ٩٢ ج٢٠.
(٨٢) الأغاني ٢٠٣ ج٦.
(٨٣) المسعودي ١٩٧ ج١.
(٨٤) ابن الأثير ٢٤٦ ج٢، والعقد الفريد ٢٣٦ ج٢.
(٨٥) الفخري ٩٧.
(٨٦) لطائف المعارف ١٢، والعقد الفريد ٤ ج٣.
(٨٧) البيان والتبيين ١٥ ج٢، وابن الأثير ٣٩ ج٦، والمقريزي ٣٠٧ ج١.
(٨٨) ابن الأثير ٣٢ ج٧.
(٨٩) لطائف المعارف ١٢.
(٩٠) المسعودي ٣٦٥ ج٢.
(٩١) الأغاني ٩٤ ج٢٠.
(٩٢) الفخري ٢٧٢.
(٩٣) الأغاني ٥٩ ج٦.
(٩٤) ترتيب الدول ١٠٣.

(٩٥) ابن الأثير ١٤٧ ج٥.
(٩٦) ابن الأثير ٣٦ ج٧، والأغاني ٣٢ ج٩، وابن خلكان ٣٨٠ ج٢.
(٩٧) فوات الوفيات ٤ ج١.
(٩٨) المقريزي ٢٨٠ و٢٨٥ ج٢.
(٩٩) المقريزي ٤٩٠ ج١.
(١٠٠) ابن خلكان ٤٣٦ ج١.
(١٠١) نفح الطيب ٦٠٤ ج٤.
(١٠٢) لطائف المعارف ٧٣، وابن خلكان ٩٣ ج١.
(١٠٣) لطائف المعارف ٧٤.
(١٠٤) ابن الأثير ٦٥ ج١٠.
(١٠٥) المقريزي ٩٩ ج٢.
(١٠٦) السيوطي ٢٥ ج٢.
(١٠٧) السيوطي ٥٨ ج٢.
(١٠٨) أبو الفدا ٧٣ ج٢، وابن الساعي ٧٥.
(١٠٩) E. Betschneider. The knowledge Possessed by the Ancient Chinese of the Arabs & Arabian Colonies 7.
(١١٠) العقد الفريد ١٤٩ ج١، والمسعودي ٢٤٨ ج٢، وترتيب الدول ٩٦.
(١١١) المبرد ٢٩٦ و٣٢٤.
(١١٢) ابن الأثير ٧٤ ج٦.
(١١٣) فوات الوفيات ٢٤٠ ج١.
(١١٤) المستطرف ٤٦ ج٢.
(١١٥) ابن الأثير ٦ ج٩.
(١١٦) نفح الطيب ١٦٣ ج١.
(١١٧) نفح الطيب ١٦٧ ج١.
(١١٨) نفح الطيب ١٨١ ج١.
(١١٩) نفح الطيب ١٧٢ ج١.
(١٢٠) نفح الطيب ٢٧٠ ج١.
(١٢١) المستطرف ٤٦ ج٢.

(١٢٢) المقريزي ١٠٧ ج٢.
(١٢٣) المسعودي ٣٦٥ ج٢.
(١٢٤) الفخري ٤٩.
(١٢٥) ترتيب الدول ١٣٦، وديوان أبي نواس والأغاني ١١٦ ج٩.
(١٢٦) ابن خلكان ٢٣٥ ج٢، و٤٢٣ ج١.
(١٢٧) الأغاني ٩٧ ج٩.
(١٢٨) المسعودي ٢١٣ ج٢.
(١٢٩) الفخري ٤٧.
(١٣٠) ابن خلكان ١٢٤ ج٢.
(١٣١) ابن خلدون ٢٨١ ج٦.
(١٣٢) كتاب الاعتبار ١٥٠.
(١٣٣) المسعودي ٣٨٠ ج٢.
(١٣٤) المسعودي ٦٨ ج٢.
(١٣٥) المسعودي ١٢٩ و١٣٥ ج٢.
(١٣٦) المسعودي ٣٨١ ج٢.
(١٣٧) العقد الفريد ٤٧ ج١، والمسعودي ١٩٩، ج٢.
(١٣٨) المقريزي ١١١ ج٢.
(١٣٩) ترتيب الدول ١٣٠.
(١٤٠) ابن الأثير ٩٠ ج٣.
(١٤١) الأغاني ٩٣ ج٢٠.
(١٤٢) ابن الأثير ٢٠٢ ج١٢، وأبو الفدا ١١٩، و١٤٢ ج٣، وابن خلدون ٥٣٥ ج٣.
(١٤٣) المقريزي ٣١ ج٢.
(١٤٤) العقد الفريد ١٥٠ ج١.
(١٤٥) تاريخ طبرستان لابن إسفنديار ترجمة إدورد برون إلى الإنجليزية صفحة ٤٥.
(١٤٦) الفخري ٢٠.
(١٤٧) المقريزي ٣١٧ ج١.
(١٤٨) فوات الوفيات ١٠٥ ج١.

(١٤٩) المسعودي ٢٦٠ ج٢، وابن الأثير ٦٦ ج٨.
(١٥٠) ابن خلكان ٢٦٧ ج١.
(١٥١) نفح الطيب ٢٧٤ ج١.